آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

الجزء الخامس

www.haydarya.com

آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الخامس

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠٠٥٦
التاريخ ٢٠٠٥/١/١

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

٣٨١.٤٥٥
١٣٧
٩٠٤٣٢
٦٧٤٥
٥ ج

مكارم شيرازى، ناصر، ١٣٠٥ -
نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغة / ناصر مكارم الشيرازى؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء؛ إعداد عبدالرحيم الحمراني. ـ قم: مدرسة الامام على بن ابى طالب ﷺ، ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٤.
ج.
ISBN 964-8139-58-X (دوره)
ISBN 964-8139-41-5 (ج. ٥)

كتابنامه
فهرستنويسى بر اساس اطّلاعات فيپا.
عنوان اصلى: پيام امام اميرالمؤمنين: شرح تازه و جامعى بر نهج‌البلاغه
١. على بن ابى طالب ﷺ، امام اوّل، ٢٣ سال قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه ـ ـ نقد و تفسير ٢. على بن ابى طالب ﷺ، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. ـ ـ كلمات قصار. الف. على بن ابى طالب ﷺ، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. حمرانى، عبدالرحيم، ج. عنوان. د. نهج البلاغه. شرح
BP ٣٨ / ٠٢ / ٧م ٢٩٧/٩٥١٥

هوية الكتاب

إسم الكتاب: ..... نفحات الولاية (شرحٌ عصريٌّ جامعٌ لنهج البلاغة) / الجزء الخامس
المؤلف: .... سماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء
اعداد: .... عبدالرحيم الحمراني
المطبعة: .... سليمانزاده
الطبعة: .... الأولى
الكميّة: .... ١٠٠٠ نسخة
عدد الصّفحات: .... ٤٨٨ صفحة
حجم الغلاف: .... كبير
الناشر: .... مدرسة الامام على ابن أبي طالب ﷺ
عنوان الناشر: ...... قم، شارع الشّهداء، فرع ٢٢، تلفكس: ٧٧٣٢٤٧٨-٢٥١-٩٨-٠٠
ردمك: ٩٦٤-٨١٣٩-٤١-٥
عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com
السّعر: ٣٠٠٠ تومان

النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

١ ـ محمد جعفر الامامي

٢ ـ محمد رضا الاشتياني

٣ ـ محمد جواد أرسطا

٤ ـ إبراهيم البهادري

٥ ـ سعيد داودي

٦ ـ أحمد القدسي

الخطبة ١١١[١]

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ ﷺ

فِي ذَمِّ الدُّنْيـا

نظرة إلى الخطبة

تحدثت هذه الخطبة بصورة عامّة ـ كما ورد في عنوانها ـ عن ذمّ الدنيا، الدنيا التي تغرق الإنسان في لذاتها وزخارفها الزائلة اللامشروعة، ومتعها الرخيصة، بحيث يتناسى الله والخلق ومصيره وعاقبته، الدنيا التي تغيب فيها معاني القيم والمثل ولا يعد فيها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبة التي نحن بصددها على أقسام:

القسم الأول: فيها يتعرض إلى خداع الدنيا وغرورها وزبرجها وظاهرها الأجوف الذي لا باطن له.

القسم الثاني: فيتناول تقلب أحوال الدنيا وعدم ثباتها، إلى جانب الحديث عن النعم التي قد تتبدل نقماً والنجاحات التي تتحول فشلاً.

القسم الثالث: خاض ﷺ في بيان فناء الدنيا وزوالها، حيث تضمّن عبارات رائعة مؤثرة

---

١. سند الخطبة:
نقل هذه الخطبة طائفة من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السيد الرضي ومنهم: ابن شعبة الحرّاني في «تحف العقول»، وابن طلحة الشافعي في «مطالب السؤول»، ومحمد بن عمران المرزباني في «الموفق»، كما فسّر ابن أثير ما صعب من مفرداتها في كتابه «النهاية»، إلاّ أنّ هناك اختلافاً في نقله مع بعض عبارات هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة ١٤٤/٢) وقال ابن أبي الحديد حين شرحه لهذه الخطبة: نقل هذه الخطبة أيضاً أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٣٦/٧).

تكشف النقاب عن حقيقة هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنّه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبة المريرة التي طالت الأقوام من ذات القوّة والسطوة لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاوية قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذي تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهراً بيننا بذلك النشاط والحيوية وقد ذاع صيتهم ليعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيوية أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن أتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام ﷺ هذه الخطبة بعبارات لطيفة بالغة التأثر شأنها إيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطّون في سبات الغفلة ونفث النور والأمل في أوراحهم المظلمة البائسة.

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لَا تَعْدُو -إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ ٱلرَّغْبَةِ فِيهَا وَٱلرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً».

الشرح والتفسير

الدنيا الغرارة!

إستهل الإمامعليه السلام الخطبة بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانية والغرارة، ثم أماط اللثام عن ماهية واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشرة عبارة، فقالعليه السلام أحذركم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذي إنطوى على اللذّات والشهوات، الأمر الذي يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحالة نعمها وتفاهتها، إلّا أنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

تكشف النقاب عن حقيقة هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنّه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبة المريرة التي طالت الأقوام من ذات القوّة والسطوة لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاوية قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذي تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهراً بيننا بذلك النشاط والحيوية وقد ذاع صيتهم ليعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيوية أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن أتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمامعليه السلام هذه الخطبة بعبارات لطيفة بالغة التأثر شأنها إيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطّون في سبات الغفلة ونفث النور والأمل في أوراحهم المظلمة البائسة.

٨٠٣

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ. لاَ تَعْدُو -إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ ٱلرَّغْبَةِ فِيهَا وَٱلرِّضَاءِ بِهَا- أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً».

ﮋﮊ

الشرح والتفسير

الدنيا الغرارة!

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانية والغرارة، ثم أماط اللثام عن ماهية واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشرة عبارة، فقال عليه السلام أحذركم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذي إنطوى على اللذّات والشهوات، الأمر الذي يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحالة نعمها وتفاهتها، إلّا أنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ[1] بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ».

فالإمام عليه السلام يرى خداع الدنيا في حلوّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهي محببة إلى النفوس كونها ماثلة للعيان ملموسة، وهذا هو المعنى المراد من العبارة «**تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ**».

أمّا العبارة «**رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ**»، فهي إشارة إلى أنّ الدنيا قد زينت متاعها القليل بالشكل الذي جعلها تستقطب قلوب عبدة الدنيا المتكالبين على حطامها.

بينما أشارت العبارت «**تَحَلَّتْ بِالْآمَالِ**» إلى زيف هذه الزينة التي تحلّت بها الدنيا، حيث تفتقر إلى الواقع، بل زينت مظهرها بالآمال والخيالات الفارغة الزائفة، وهذا هو المعنى الذي أكدته العبارة «**تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ**»، فرصيدها الرئيسي الذي يشكل عنصر التزيين إنّما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف على عمق هذا المعنى يتجسد من خلال النظر من بعيد إلى قصور الملوك وسلتطهم الظاهرية المرعبة، وسعة حجم أموالهم وثرواتهم، وأبهة وجلال مراكبهم وملابسهم النفيسة الفاخرة وسائر الوسائل والأدوات التي يعتمدونها في حياتهم ومعيشتهم التي تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بينما الاقتراب منهم والغوص في واقع حياتهم لا يرى سوى البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاكل التي تلف حياتهم ومدى القلق والاضطراب الذي يسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التي يخطط لها أعداؤهم إلى جانب الحسد والطمع الذي تكنّه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآيات القرآنية، فقد جاء في القرآن الكريم بشأن الحياة الدنيا:

﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**...﴾[2].

وجاء في موضع آخر: ﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**...﴾[3].

كما جاء أيضاً: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ**...﴾[4].

---

١. «راقت»: من مادة «ورق» على وزن ذوق بمعنى المسرة والإعجاب.
٢. سورة آل عمران / ١٨٥؛ الحديد / ٢٠.
٣. سورة الإنسان / ٢٧.
٤. سورة آل عمران / ١٤.

وقال تعالى أيضاً: **﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**[١].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ نعم الدنيا وسرورها إلى إنقطاع ولا دوام لها، وليس هناك من شخص بمنأى عن مشاكلها وفجائعها، ورصيدها الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفة بالفناء والزوال وعاقبة أمر سكانها وعمارها الهلاك والعدم:

«لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا[٢]، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ[٣] زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ[٤] بَائِدَةٌ[٥]، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ[٦]».

نقد تناول الإمام عليه السلام الدنيا ليتحدث بهذه العبارات الرائعة البيان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فليس هنالك من دوام واستمرار لأي من مفرداتها من قبيل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثرواتها وإمكاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فيها، فكل هذه الأمور محكومة بالفناء والزوال، وبناءاً على هذا فلا يركن إليها إلّا الجاهل الغافل.

ثم اختتم عليه السلام كلامه ـ في هذا القسم من الخطبة ـ بالقول:

«لاَ تَعْدُو ـ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا ـ أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً[٧] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[٨]».

فقد عزز الإمام عليه السلام إثبات مراده من خلال التمسك والاستشهاد بالتشبيه الرائع الذي أورده القرآن في سورة الكهف بشأن الدنيا، وكأنّي به قد اصطحب المخاطب إلى حيث الصحراء ليريهم صورة الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المطر وخروج النباتات وتفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكهة والثمار، غير أنّ هذه الأمور لا يكتب لها

١. سورة الحجر / ٣.
٢. «حبرة»: من مادة «حبر» بالفتح السرور والنعمة.
٣. «حائلة»: من مادة «حول» على وزن قول المتغيرة.
٤. «نافدة»: من مادة «نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.
٥. «بائدة»: من مادة «بيد» على وزن صيد هالكة.
٦. «غوالة»: من مادة «غول» على وزن قول الهلكة المباغتة.
٧. «هشيماً»: من مادة «هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسّر.
٨. سورة الكهف / ٤٥.

الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالة سوى بضعة شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهي تلك الثمار وتنقطع زقزقة العصافير والطيور وتتبدل الخضرة يبوسة وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقة الحياة الدنيا التي تعيشها البشرية حيث يتّجه كل شيء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

القسم الثاني

«لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلاَّ مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً؛ وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ، إِلاَّ هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ وَاحْلَوْلَى، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لاَيَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً. وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلاَّ التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

الدنيا كل يوم بلباس

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة مواصلة لذمّ الحياة المادية الدنيوية إلى صفة أخرى من صفاتها البارزة الأخرى والمتمثلة بسرعة تغيّرها وتبدّلها، إلى جانب تبدّل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلّا أتبعته حزناً وحسرة، ولم يذق حلاوتها إلّا استشعر مرارتها: «**لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إِلاَّ أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً، إِلاَّ مَنَحَتْهُ[1] مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً**».

---

١. «منحت»: من مادة «منح» على وزن مدح بمعنى العطاء.

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى بأنّه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفة والأمطار الملائمة حتى يغرق في سبيل من البلاء: «**وَلَمْ تَطُلَّهُ**[١] **فِيهَا دِيمَةُ**[٢] **رَخَاءٍ، إِلاَّ هَتَنَتْ**[٣] **عَلَيْهِ مُزْنَةُ**[٤] **بَلاَءٍ**».

ومن هنا فلا وجه للغرابة والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءاً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً: «**وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْذَوْذَبَ**[٥] **وَاحْلَوْلَى**[٦]**، أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى!**[٧]».

نعم، هذه هي طبيعة الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مرارة، ونصرها هزمة، وحياتها موتاً، وليست هناك أية قدرة يسعها الحيلولة دون هذه الاستحالة والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقة في أنّ الإنسان لا يصيب منها لذّة ونعمة إلّا أتبعته غصّة ورهقة، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّة الأمن حتى يزعجه ألم الخوف والخطر: «**لاَيَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا**[٨] **رَغَباً، إِلاَّ أَرْهَقَتْهُ**[٩] **مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلاَّ أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ**[١٠] **خَوْفٍ**».

أجل، ليست هناك من فاصلة يؤبه بها في هذه الدنيا لا مكانية ولا زمانية بين السعادة والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق في لذاته وشهواته وهنيىء عيشه ودعته في هالة من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوت بالنحيب والبكاء تنعى فقده ومفارقته لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام في الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال: «**غَرَّارَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلاَّ التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنِ**

---

١. «تطلّه»: من مادة «طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.
٢. «ديمة»: من مادة «دوام» مطر دوم في سكون لا رعد ولا برق معه.
٣. «هتنت»: من مادة «هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.
٤. «مزنة» قطعة من السحاب الممطر.
٥. «اعذوذب»: من مادة «عذب» الفرات الزلال.
٦. «احلولي»: من مادة «حلو» الطعم المعروف.
٧. «أوبي»: من مادة «وبئ» المرض والهلكة.
٨ «غضارة»: من مادة «غضر» على وزن نذر كثرة النعم، وسعة العيش.
٩. «أرهقت»: من مادة «رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوّة والقهر.
١٠. «قوادم»: جمع «قادمة» الواحدة من الريشات في مقدم جناح الطائر، وهي زلقة عادة.

اَسْتَكْثَرَ مِنْهَا اَسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ[١]**، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ**».

وهكذا أورد الإمام ﷺ هذه الصفات التي تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأفول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجة مفادها ضرورة قناعة العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحة باله، وذلك لأنّ من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها في لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبيل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

٨٠٠٣

١. «يوبق»: في الأصل من مادة «وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكة، وعليه فيوبقه يعني يهلكه.

القسم الثالث

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ وَعَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

الدنيا سند هش خاوي!

أشار الإمام ﷺ ـ في هذا المقطع من الخطبة ـ إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياة الدنيا ووضاعة متاعها المادية:

الأمر الأول: أنّ لا شيء فيها يمكن الاعتماد عليه والوثوق به. فقد قال ﷺ بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناة، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوة والشوكة، فأذاقتهم لباس الذلّة والمسكنة: **«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ. وَذِي أُبَّهَةٍ[1] قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً»**.

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيرة والمكاره

---

١. «أبهة»: بمعنى العظمة وقد اشتقت من مادة «أبه» بمعنين الفطنة حيث توصل ممن يتصف بها من الأفراد إلى المجد والعظمة.

التي تصيب الإنسان بغتة، فعظام الملوك والسلاطين والأبطال الأشداء أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوة والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيوية والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنّما يخضعون لهذه الحوادث التي تجري عليهم وهم صاغرون، الحوادث التي تأتي على جميع النعم واللذات فتخطفها في لحظة وتذل الأعزّة والجبابرة وما التاريخ عنك ببعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد في تاريخ الطبري أنّ سليمان بن عبدالملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمة خضراء وأخذ ينظر في المرآة (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعة أيّام[1].

الأمر الثاني: هو أنّ حلاوتها قد عجنت بالمرارة وانتصاراتها بالهزائم: «**سُلْطَانُهَا دُوَلٌ**[2] **وَعَيْشُهَا رَنِقٌ**[3]**، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ**[4]**، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ**[5]**، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ**[6]**، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ**[7]».

ثم تطرق الإمام ﷺ إلى حال ساكن الدنيا من أنّ حياته معرّض للموت والسقم والمرض يتربص بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفرة نعمها تحمل معها مفردات النفاد والانقضاء: «**حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا**[8] **مَنْكُوبٌ**[9]**، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!**[10]».

نعم، فتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهي مشوبة بأنواع المعاناة والألم، والحكام في ذوي القدرة والسطوة الذين نغبطهم على مدىٰ قدرتهم وشدّة شوكتهم وتربعهم على العرش نراهم

---

١. الطبري ٥/٥ ٣٠.

٢. «دول»: بضم الدال وفتح الواو المشددة المتحول، الشيء الذي يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حال الحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.

٣. «رنق»: صفة مشبهة من مادة «رنق» بمعنى الكدر.

٤. «اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.

٥. «صبر»: جمع «صبرة» على وزن كلمة أو جمع صبر على وزن فقر عصارة شجرة مرّة، كما يطلق أحياناً على نفس الشجرة.

٦. «سمام»: جمع «سم» المواد التي إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.

٧. «رمام»: جمع «رمة» بالضم القطعة البالية من العظم أو الحبل.

٨. «موفور»: من مادة «وفور» الكثير من الشيء.

٩. «منكوب»: من مادة «نكبة» بمعنى المصاب.

١٠. «محروب»: من مادة «حرب» القتال والحرب.

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربيهم، وأكثر الناس طاعة لأوامرهم، بل هم في غاية القلق والاضطراب ممّا يخبىء لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصّة التي تحدثت عن ذلك الفرد الذي كان يتمنى التربع على العرش السلطة ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنّهم عقلّوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعرة، فكان يتوقع في كل آن قطع تلك الشعرة ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلاص من مسند العرش الذي انطوى على ذلك الخطر، فما أورع الصورة التي رسمها الإمام ﷺ لهذه الدنيا الغرور حين قال: «**كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ**».

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

القسم الرابع

«أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً، وَأَكْثَفَ جُنُوداً! تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ السَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلاَّ الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ النَّدَامَةَ! أَفَهذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

تأملوا الماضي قليلاً

واصل الإمام ﷺ الخطبة التي أوردها في ذم الدنيا وسرعة زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المرة ليغوص في أعماق تاريخ الأمم السالفة، ليصور من خلالها حياة أصحاب السلطة والقدرة ممن ملأ صيتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقعد بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروة والمال ليتساءل ﷺ ألستم تحلون محلّ من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم ورغباتهم، وكانت لهم

جنودهم وحماتهم: «**أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً، وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً[١]، وَأَكْثَفَ[٢] جُنُوداً!**».

فقد أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقوام السابقة وهي: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثرة السكان، وكثرة الجنود، فهي خصائص منحتهم التفوق على سائر من سواهم، وإلّا أنّ أي من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر في فصل الخريف.

ثم أضاف ﷺ مواصلاًكلامه بهذا الشأن: «**تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ**».

نعم، فرغم كلّ سعيهم وجهدهم في سبيل عبادة الدنيا والذوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم في هذا الاتجاه، إلّا أنّهم لم يصيبوا أي شيء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التي لا يجدي غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلّا أهل الورع والتقى.

ثم خاطب ﷺ صحبه: هل بلغكم أنّ الدنيا قدمت لأحدهم فدية لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشيء في هذا السبيل؟ أم هل كانت على الأقل صاحباً حسناً لهم: «**فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ[٣] لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً!**».

نعم، لم تقدم لهم أي عون ولم تنجيهم عن المكاره والأهاويل، أفلا يكون ذلك عبرة لم اعتبر من أبناء الدنيا!!

ثمّ واصل الإمام ﷺ كلامه بهذا الخصوص قائلاً: «**بَلْ أَرْهَقَتْهُم[٤] بِالْقَوَادِحِ[٥]، وَأَوْهَقَتْهُمْ[٦]**

---

١. «عديد»: بمعنى «العدد»، كما ورد بمعنى الشبيه والمثيل وأريد بها المعنى الأول في عبارة الخطبة.
٢. «أكثف»: تفضيل «كثيف» بمعنى الكثير.
٣. «سخت»: من مادة «السخاوة» بمعنى العطاء.
٤. «أرهقت»: من مادة «إرهاق» ستر الشيء بالقوّة، أرهقتهم بمعنى غشيتهم.
٥. «قوادح»: جمع «قادحة» بمعنى الآفة.
٦. «أوهقت»: من مادة «وهق» حلقة توضع على رقبة الحيوان.

بِالْقَوَارِعِ[1]**، وَضَعْضَعَتْهُمْ**[2] **بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ**[3] **لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ**[4]**، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ**[5]».

فهذه العبارة المؤثرة تشير إلى أنّ الدنيا ليس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصحابها، بل سارعت بكل ما أوتيت من وقوّة لتوجيه ضرباتها الماحقة إليهم بغية إبادتهم، وإستئصال شوكتهم، حتى جندت جميع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطريف في بيان الإمام ﷺ هو أنّه بدأ من المراحل الكبرى نزولاً إلى الصغرى في إطار تصويره لإعانة الدنيا وما يمكنها أن تقدمه من نصرة ومساعدة، بينما تدرج في أضرارها التي تصيب من تعلق بها من المراحل السفلى إلى المراحل العليا المتمثلة بالانقضاض عليهم وإزالتهم من صحفة الوجود، ولعمري هذه قمة الفصاحة والبلاغة في بيان الحقائق المريرة والأليمة ويكشف النقاب عن مدى وضاعة الدنيا وانحطاطها وتنكرها لمن أخلد إليها واطمأن بها.

ثم خلصﷺ إلى نتيجة ممّا سبق مفادها تنكر الدنيا لأصحابها ممن آثرها على كلّ شيء وهو الأمر الذي رأوه بأم أعينهم (أو لعلهم طالعوه بشأن الأمم التي سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن يعدّوا الزاد والمتاع لتلك الدار الآخرة: «**رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ**[6] **لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ**».

فهل أمدتهم هذه الدنيا بشيء سوى الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوى للتعب والارهاق والضنك؟ وهل وهبتهم إلّا الظلمة التي ليس معها نور؟ (أبداً، بل أودعتهم حفراً مظلمة

---

١. «قوارع»: جمع «قارعة» بمعنى المحن والدواهي.
٢. «ضعضعت»: من مادة «ضعضعة» بمعنى الذلة والهوان، كما تأتي بمعنى الإبادة.
٣. «عفرت»: من مادة «التعفير» كبتهم على مناخرهم في العفر وهو التراب.
٤. «المناسم»: جمع «منسم» بكسر الميم وهو مقدم خف البعير.
٥. «ريب المنون»: الريب الشك الذي يكشف عنه الغطاء آخر لأمر ويبلغ اليقين، والمنون يعني الموت، وريب المنون الموت المحتمل ويراد بها أحياناً مكاره الدهر التي تكون في البداية مشكوكة ثم يحصل بها اليقين.
٦. «أخلد»: من مادة «إخلاد» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إليها بمعنى الركون، أي أنّ أصحاب الدنيا قد أبدوا منتهى الرغبة بالدنيا وكأنّهم التصقوا بها.

موحشة تفيض رعباً وخشية)، وهل بقي لديهم من شيء سوى الحسرة والندم: «**وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلاَّ ٱلسَّغَبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلاَّ ٱلضَّنْكَ**[١]**، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلاَّ ٱلظُّلْمَةَ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إِلاَّ ٱلنَّدَامَةَ!**».

فكيف الوثوق بهذه الدنيا التي لا تضمر لمن تعلق بها سوى البؤس والشقاء والهزيمة والفشل والظلمة، ولا تعقبه سوى الندم؟! أم كيف له التضحية بالغالي والنفيس في سبيل الحصول على بعض حطام الدنيا وجعلها هدفاً في حياته؟!

ومن هنا تساءل الإمام ﷺ مستنكراً: «**أَفَهَذِهِ تُؤْثِرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ ٱلدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!**».

حقاً، ليست هناك من عبارات أوضح وأفصح من هذه العبارات التي وردت بشأن تفاهة الدنيا والمصير والعاقبة المريرة التي تنتظر من تعلق بها وسكن إليها، وهدف الإمام ﷺ من هذه التأكيدات المتواصلة والعبارات المنبهة الشديدة إلى الوقوف بوجه الريح الدنيوية العاتية، وما إنطوت عليه من نعم جمّة أفرزتها قضية الفتوحات الإسلامية والتي إستهوت قطاعات واسعة من المسلمين لتقذف بهم في أتون الرفاهية والراحة والدعة بما ينسيهم القيم والمثل والمبادىء السماوية الخالدة، ويجعلهم يغطّون في سبات الغفلة، علّهم يفيقون إلى أنفسهم ويعودون إلى رشدهم فيهبوا لإحياء القيم الإسلامية المغيبة، إلى جانب محاولة الإمام ﷺ إعادة الأمّة ـ لا سيما أولئك الأفراد الذين تكالبوا على الدنيا وثرواتها إبان عهد عثمان ـ إلى المسار الإسلامي الصحيح.

وما أورع هذه المواعظ والنصائح البليغة الواضحة للمتكالبين على الدنيا من أبناء عصرنا الراهن حيث يشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتي عصفت بالمجتمع وجعلته يتعلق بالدنيا، والحق لو لم يلتفتوا إلى هذا الأمر ويفكروا في علاج وضعهم فلا من دين ولا دنيا معقولة يمكنهم أن يظفروا بها ويحصلوا عليها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحاديث النبوية الشريفة وروايات وكلمات

١. «ضنك»: بمعنى «الضيق» والشدّة وهي مفردة تستعمل بصيغة المفرد دائماً.

المعصومين ﷺ وبالتالي الآيات القرآنية، فقد صرّحت الآية ٩، من سورة الروم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

كما صرّحت الآية ٧ـ٨ من سورة يونس:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

وورد في الحديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنيـا أَثبَتَ اللهُ الحِكمَةَ فِي قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِهـا لِسَانَهُ وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنيـا دَاءَهـا وَدَواءَها وَأَخرَجَهُ مِنَ الدُّنيـا سـالِماً إلىٰ دارِ السَّلامِ»[1].

كما ورد عنه ﷺ أنّه قال: «مَنْ أَصبَحَ وَأَمسَىٰ وَالدُّنيـا أَكبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ تَعالىٰ الفَقرَ بَينَ عَينَيهِ وَشَتَّتَ أَمرَهُ، وَلَم يَنَلْ مِنَ الدُّنيـا إلّا مـا قَسَّمَ اللهُ لَهُ، مَنْ أَصبَحَ وَأَمسَىٰ وَالآخِرَةُ أَكبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللهُ الغِنىٰ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمرَهُ»[2].

---

١. اصول الكافي ١٢٨/٢.
٢. المصدر السابق /٣١٩.

القسم الخامس

«فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِيْنَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنْ الرُّفَاتِ جِيرانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَنُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ. حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلاَءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ. لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اِسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»».

الشرح والتفسير

الاعتبار بالموتى

إختتم الإمام ﷺ خطبته بالحديث مرّة أخرى عن تقلب أحوال الدنيا وغدرها وتنكرها لمن تعلّق بها، إلى جانب الكلام عن المصير الحتمي الذي ينتظر كل إنسان والذي يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال ﷺ: «**فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ[1] عَنْهَا**».

---

1. «ظاعنون»: من مادة «ظعن» على وزن دفن بمعنى السفر والرحيل.

نعم، فلابدّ لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...﴾[١].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * يَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٢].

ولعل الإنسان يشك في كل شيء، غير أنّه لا يشك في حقيقة الموت: ﴿واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾[٣].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الأُمم ممن غرّتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوّة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٤]. حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً[٥]، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ[٦] فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً».

ولعل العبارة إشارة لما ورد في الآية ١٥ من سورة فصلت القائلة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...﴾.

فالمعروف أنّ قوم عاد كانوا ذوي جثث ضخمة وقصور وبيوت فارهة عملاقة ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذي جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلمّا عتوا عن أمر الله وعصوه أرسل الله عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثثهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التي تتناثر على الأرض، حيث حدّث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[٧].

أمّا قوله عليه السلام «فَلا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً» والركبان جمع راكب وذلك لأنّ الراكب من يكون

---

١. سورة العنكبوت / ٥٧.
٢. سورة الرحمن / ٢٧ ـ ٢٨.
٣. سورة الحجر / ٩٩.
٤. سورة فصلت / ١٥.
٥. «ركباناً»: صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ العرب إعتادت الاصطلاح بالركبان على من يركب مختاراً وله التصرف في مركوبه، فان نزلوا سموا ضيفان، أمّا الموتى الذين يحملون إلى قبورهم فلا يدعون ركباناً ولا ضيفان.
٦. «الاجداث»: جمع «جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.
٧. سورة القمر / ١٩ ـ ٢٠.

مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله ﷺ «**فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً**» لأنّ الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذي يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٨٨ من نهج البلاغة إذ قال ﷺ: «**حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنْزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ**».

ثم قال الإمام ﷺ مواصلة لوصفهم: «**وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ ٱلصَّفِيحِ[1] أَجْنَانٌ[2]، وَمِنَ ٱلتُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ ٱلرُّفَاتِ[3] جِيرانٌ**».

فالعبارة إشارة إلى أنّ قبورهم خالية من البناء والسقوف والأعمدة والأبواب والنوافذ، فهي ليست أكثر من قبضة من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنّه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأمّا ذلك الكفن الذي يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبق سوى الكفن الأصلي وهو التراب.

والجدير بالذكر هو أنّ الإمام ﷺ واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخرة، فيكشف النقاب عن حقيقة وضعهم بعبارات غاية في الجمال والروعة، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «**فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً، وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً[4]، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً[5]**».

أضف إلى ذلك فهم على درجة من عدم الإكتراث بأي شيء بحيث: «**إِنْ جِيدُوا[6] لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ[7] وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ، وَقَرِيبُونَ لاَ يَتَقَارَبُونَ**».

حقاً، أنّهم عبرة لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاة إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلف تماماً وما عليه الحال بالنسبة لأهل الدنيا، فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

---

١. «صفيح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من مادة «صفح» على وزن مدح.
٢. «أجنان»: جمع «جنن» على وزن كفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطية والستر، ولما كان القبر يستر بدن الميت فقد اطلق عليه الجنن.
٣. «رفات»: بمعنى كل شيء بالي ومتعفن، كما يراد بها العظام المندقة المحطومة والمتنافرة.
٤. «ضيماً»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ويعني الظلم.
٥. «مندبة»: من مادة «ندبة» بمعنى البكاء.
٦. «جيدوا»: من مادة «جود» على وزن قوم مبني للمجهول بمعنى مُطروا.
٧. «جيرة»: جمع «جار» وغالباً ما تجمع جيران.

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التي تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا يتزعجون من القحط والجدب، كما كانوا يطوون المسافات القريبة والبعيدة لرؤية بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصلة متلاصقة مع بعضها، إلّا أنّ المسافة بينهما كأنّها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم يأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنينه أقرب مقربيه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجدته وتقديم العون له.

وما أروع ماكان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام علي عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول:

وأضحَوا رِمِيماً فِي التُّرابِ وَاقفَرَتْ مَجالِسُ مِنهُم عُطِّلَتْ وَمَقاصِرُ
وَحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاوُرَ بَينَهُم وَأنّى لِسُكانِ القُبُورِ تَزاوُرُ
فَما أن تَرى إلّا جُثيً قَدْ تَوَوا بِها مُسَنَّمَةً تَسفِي عَلَيهِ الأعاصِيرُ[١]

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنّهم عقلاء قد ذهبت عداوتهم وخصومتهم، وفي نفس الوقت هم جهّال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فلييس هناك ما يدعو للخشية من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعة ضيقاً وبالأهل والوطن والنور غربة وظلمة: «**حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ، وَجُهَلاَءُ قَدْ مَاتَت أَحْقَادُهُمْ، لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ، اِسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ اَلْأَرْضِ بَطْنَاً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً**».

والعجيب في الأمر أنّه يصفهم في عبارة بالعقلاء، ثم يردفها بالعبارة التالية بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنّهم جثث خاوية قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا جهلاء، بل وضعهم في موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوة بينهم، وفي موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغييرت جميع مفرداتهم في لحظة حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وبالدور الواسعة المنيرة المليئة بالأهل والعيال، القبور الضيقة

---

١. منها البراعة ٨/ ٢٥، وردت هذه الأشعار في حاشية بحار الانوار بعنوان مناجاة للإمام السجاد عليه السلام نقلاً عن البداية والنهاية، لابن كثير (بحار الانوار ٤٦/٤٨).

والمظلمة الموحشة الخالية من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه ﷺ بالقول: «**فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاةً عُرَاةً**»[١].

والعبارة مستوحاة من الآية القرآنية الشريفة: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[٢].

نعم كما خلق آدم ﷺ من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاة عراة إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدومهم إليها، وإن حملوا معهم كفناً، فهو ليس كذلك في الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعدّ له من وجود، بالتالي سيودع هذا الإنسان شاء أم أبى يوماً كل ما جمعه من أموال وأعدّ لنفسه من قصور ودور فارهة وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفرة حافياً عرياناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمة والوحشة.

نعم، الشيء الوحيد الذي يحمله معه هو عمله والذي قد يكون أحياناً وبالاً عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذي أكّده الإمام ﷺ فقال: «**قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**[٣]».

فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ أشار في ختام هذه الخطبة إلى نقطتين:

الأولى: عودة الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانية: النشأة الجديدة في الآخرة.

ثم استشهد ﷺ بالآية القرآنية الكريمة: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ**﴾، لكي لا يبقى أدنى مجال للشك في حقيقة عودة الإنسان إلى التراب الذي خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

---

١. اختلفت أقوال شرّاح نهج البلاغة لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أوردناه سابقاً.

٢. سورة طه / ٥٥.

٣. سورة الانبياء / ١٠٤.

تأمّلان

١ـ سبل مواجهة التعلق بالدنيا

إنّ حبّ الدنيا كما ورد في الرواية هو رأس كل خطيئة وأساس جميع الذنوب والمعاصي، كما أنّ التعلّق بها والاغترار بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربّه وينسيه الآخرة والحساب يوم القيامة، ومن شأن هذه الغفلة والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمّة التي تقذف بالإنسان في وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامي الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذي أحرزه الإسلام والغنائم المتحصلة من الغزوات، وهو الأمر الذي لفت إنتباه طائفة عظيمة من المسلمين ليشدّه إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالي العظيم الذي حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام في أغلب خطب نهج البلاغة من ذمّ الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والوثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحة والبلاغة وبالشكل الذي يجعلها تثير حساسية أهل الغفلة ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما في هذه الخطبة التي مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبة للقرآن الكريم في ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقة منها:

١ ـ تحدّث عليه السلام باديء ذي بدء عن «**غدر الدنيا وعدم ثباتها**» وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتنكرت له وقذفت به في وحل البؤس والشقاء.

٢ ـ تحدّث أحياناً عن «**تقلب الدنيا السريع**» حيث سرعان ما تتبدل القوّة ضعفاً، والانتصار هزيمة، والغنى فقراً، والعافية مرضاً.

٣ ـ كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاة والعذوبة بالمرارة، فهنالك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعي حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلّق بها والانخداع بزخارفها.

٤ ـ كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تارة أخرى ليوقفهم على نماذج عينية ملموسة للغدر وعدم الثبات الذي تنطوي عليه طبيعة الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوّة وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

٥ـ وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذي أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبة للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروة والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحة أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا في مصيرهم.

٦ـ كما يعمد أحياناً أخرى لرسم لوحة صادقة معبّرة عن ضيق القبر وظلمته والذي يمثل آخر منازل الدنيا، فهو يحكي عن وحدة الإنسان وغربته وسط ما يجاوره من قبور صامتة، فليس هناك من تزاور بينهم قط، كما ليس لأحد منهم علم عن آخر، إلى جانب تصويره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدىٰ عجزه وحاجته.

والملفت للنظر ها هو أنّ جميع هذه المباحث والمضامين إنّما تتحرك في ظلّ آيات القرآن الكريم، فأحياناً تشير صراحة إلى تلك الآيات، وأخرى تكون العبارات مستقاة من الآيات القرآنية، وهذا ما يسبغ نوراً ولمسات روحية، وجذبات معنوية على كلمات الإمام علي ﷺ وبالتالي مضاعفة مدى تأثيرها.

ياليت أهل الدنيا ممن اغتروا بها وخدعوا بحطامها وزيفها وتزينها أن يلتفتوا لأنفسهم ولو لحظة واحدة طيلة عمرهم فيطالعوا هذه الخطبة الموقظة ويتدبّروا عباراتها ومفاهيمها، بل ما أحرانا نحن أيضاً أن نتأمل هذه الخطبة وما شابهها من الخطب التي وردت في نهج البلاغة لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنيا والوقوف على مدىٰ ضحالتها وتفاهتها فتتجدد فينا روح الطاعة والابتعاد عن الخطيئة والمعصية.

جدير بالذكر أنّ العديد من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أيضاً في ظلّ الآيات القرآنية والروايات الشريفة والمفاهيم الدينية فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمير وتوقفه على واقع الدنيا، من أُولئك الشعراء الايرانيين هو الشاعر الكبير والفريد «الحافظ الشيرازي» الذي أنشد أشعاراً كثيرة بشأن سرعة زوال نعم الدنيا وغدرها وأنّ حلاوتها قد مزجت بالمرارة وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، كما نظم قصائداً في تقلب أحوال الدنيا وتغيرها المفاجيء وعدم استقرارها على حال.

قصر الجديد إلى بلى **والوصل في الدنيا انقطاعه**

أي اجـــــتماع لم يــــعد يـــتفرق مـــنها اجـتماعه

أم أي شـــعب ذي إلتـــئام لم يـــبدده انـــصداعـــه

أم أي مـــــنتفع بشـــــيء ثـــم تـــمّ له انـــتفاعه

يـــا بـــؤس للـــدهر الذي مـــا زال مـــختلفاً طـــباعه

قـــد قـــيل فـــي مـــثل خـــلا يكـــفيك مـــن شـــر سماعه

ومن كلام الحكيم في الدنيا: «**إنا قد أصبحنا في دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل، والداخل إليها مخرج، والمطمئن فيها مزعج، والذائق من شرابها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وتاركها محمود**».

৯০৫

٢ ـ الردّ على سؤال

حين نطالع ما أورده الإمام ﷺ في هذه الخطبة حول «أهـل القـبور» في أنّهـم جـيرة لا يتزاورون وقريبون لا يتقاربون وما إلى ذلك، يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال وهو أنّه وردت عدّة روايات صرّحت بعضها بأنّ أهل القبور يجتمعون أحياناً مع بعضهم ويطلع كل منهم على أوضاع الآخر وأنّ لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**كَأَنِّي بِهِم حِلَقٌ حِلَقٌ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ**»[1].

فكيف الجمع بين هذه الروايات وما ورد في عبارات الخطبة المذكورة؟

ولعل الآجابة على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى أنّ الروايات المذكورة إنّما وردت بشأن المؤمنين وأصحاب الأعمال الصالحة، وأمّا ما جاء في هذه الخطبة، فإنّما ورد بشأن أصحاب الدنيا من أهل الأعمال السيئة، وعليه فليس هنالك من تعارض بين هذه الخطبة وما صرّحت به الروايات.

৯০৫

١. بحار الانوار ٦/٢٦٨.

الخطبة ١١٢ [1]

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

ذكر فيها ملك الموت وتوفيه النفس وعجز الخلق عن وصف الله

نظرة إلى الخطبة

تفيد بعض القرائن أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة مفصلة طويلة، وهي تهدف في الواقع إلى بيان هذه الحقيقة التي تكمن في عجز البشرية عن إدراك كنه الذات وصفات الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الإنسان إن عجز عن معرفة ملك الموت وصفاته وطبيعة أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هي عليه.

والذي يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغة» أنّ هذه الخطبة هي جرء من الخطبة المعروفة بالأشباح والتي أوردها الإمام علي عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهيّة، والحق إنّ عبارة هذه الخطبة تنسجم تماماً وعبارات خطبة الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أنّ الخطبة التي بين أيدينا هي جزء من تلك الخطبة [2].

---

١. سند الخطبة:
ورد في مصادر نهج البلاغة أنّه نقلها «علي بن محمد الليثي» صاحب كتاب «عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحراني حين شرحه لهذه الخطبة أنّها جزء من خطبة طويلة أوردها الإمام علي عليه السلام بشأن توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه.
ويفيد هذا الكلام أنّه نقل هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢٤٤/٢).

٢. كتاب «تمام نهج البلاغة»، ص ٦٥.

«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِيْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ في أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!».

ﮩﮨﮧ

الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدرككم الموت

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة في الواقع جزء من خطبة التي تصدت لبيان صفات الله تعالى وعجز البشرية عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدل الإمام ﷺ بمثال في هذه الخطبة يشخص الحقيقة المذكورة ويبيّن عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءاً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟

فقد قال ﷺ: «**هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً؟، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً؟**».

قطعاً أنّ روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنية، والحال ليس لدينا أي علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا خروجه، كما لا نراه حين يقبض الروح، رغم أنّه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكة الذين يتعذر علينا رؤيتهم.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذي يتصف بالتعقيد والغموض، وهو قبض روح الجنين في بطن أمّه، فقال ﷺ: «**بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِيْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمِ الرُّوحُ أَجابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ في أَحْشَائِهَا؟**».

فمن البديهي أنّه يشق على كل عالم بانتقاء أي من الأجوبة الثلاث على سـؤال المـذكور، فليس هنالك دليل يثبت أي منها، وعليه فقضية قبض الروح بواسطة ملك الموت بحدّ ذاتها قضية شائكة غاية في التعقيد يعجز عن إدراكها الإنسان فضلاً عن قبض روح الجنين في بطن أُمّه.

ثم يخلص الإمام ﷺ من العبارات السابقة إلى هذه النتيجة: «**كَيْفَ يَصِفُ إِلٰهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!**».

نعم، فهناك الألوف المؤلفة من المخلوقات والكائنات التي عجز الإنسان عن إدراكها حتى بعد تطور العلوم وتقدمها، فما حقيقة الروح؟ وما كيفية إرتباطها بالجسد؟ كيف تنسلخ عـن الجسد؟ وأين تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقيقة الحياة؟ لم استطاع العلماء جمع كافة العناصر الموجودة في الخلية الحية في مختبراتهم بصورة صناعية إلّا أنّهم عجزوا عن نفخ الروح فيها؟!

ما حقيقة الزمان والمكان؟ ما كيفية أمواج الجاذبية التي تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبيل.

فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التي نشترك معها في كثير من الأمور، فكيف نتوقع إمكانية وصفنا لله الذي لا يشترك معنا في أي أمر؟! بلى، لدينا علم إجمالي بوجوده وصفاته سبحانه، حيث نعلم أنّه موجود وله الصفة الفلانية على سبيل الإجمال، إلّا أنّ الكل يعرب عن عجزه وفشله من اقتحام ميدان العلم التفصيلي، بما فيهم أنبياء الله سبحانه وتعالى.

تأمّلات

١ ـ ملك الموت أم ملائكة الموت

هل ملك واحد أم جماعة؟ سؤال يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد وردت بعض الآيـات القرآنية التي نسبت إلى الله تعالى قبض الأرواح: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...**﴾[1].

١. سورة الزمر / ٤٢.

بينما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائكة، كما نسبته إلى ملك المـوت الذي عبّرت عنه أيضاً بالملائكة، فقد صرحت الآية ١١ من سورة السجدة قائلة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...﴾. وقالت الآية ٨، من سورة النحل: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

ويعلم أرباب التفسير وأهل التحقيق في القرآن أن ليس هنالك أي تعارض بين الآيـات الثلاثة المذكورة، وذلك لأنّ السنة الإلهيّة جرت في تفويض الملائكة تـدبير شؤون الخـلق وأمور العالم، وعليه فالفعل المذكور هو فعل الله سبحانه من جانب حيث منه يصدر الأمـر، وهو فعل الملائكة من جانب آخر كونها تباشر ذلك العمل، على سبيل المثال يقال الحـاكـم الفلاني جدد بناء المسجد الحرام في التاريخ الفـلاني، يـعني أنّـه أصـدر أوامـره للـمهندسين والمقاولين والبنائين بمباشرة ذلك البناء، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: لملك الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس يستعمل في مفهوم العموم ومعنى الجمع أيضاً.

واستناداً لما مرّ معنا فانّ قبضة الأرواح هو طائفة من الملائكة يباشرنا ذلك العمل بأمر الله سبحانه وكبير هذه الملائكة هو «عزرائيل».

ويعتقد البعض بأنّ الملكين المأمورين بكتابة أعمال الإنسان هما اللذان يـتوليان قـبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الواردة في الآية الشريفة: «وكّل بكم» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والاتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطـلحاء والمـتهتكين، فـمن الممكن أن تختلف الملائكة التي تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهرة لعظماء الناس كالنبي الأكرم ﷺ، فانّ شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذي يتولى هذه المهمّة[1].

۞

٢ ـ كيفية قبض الأرواح

تبدو قضية قبض الروح مبهمة وغامضة لدينا على غـرار الابهـام الذي يكـتنف ولوج

١. وردت إشارة لهذا المعنى في رواية عن علي عليه السلام (بحار الانوار ٦/١٤٢، ح٦).

الروح في البدن، وكل الذي نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأية صيغة؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أنّ كل ما ورد في الروايات الإسلامية يكون من قبيل التلميحات والتشبيهات، وإلّا فليس لدينا سجناء عالم المادة من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلّقة بعالم ما وراء الطبيعة.

فهل ملك الموت كائن في موضع ـ كما ورد في بعض الروايات ـ والدنيا لديه كالدرهم في كف اليد يقلبه كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أنّ ملائكة الموت انتشروا في كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثة احتمالات في الخطبة بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنة في بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت في أحشاء الأم من بعض جوارحها.

والثاني: يدعو روح الجنين اليه وهو في الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين في أحشاء الأم منذ البداية، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثة إشارة الى حقيقة أنّ صعوبة إدراكنا لجزئيات هذه الأمور بفعل وجودنا في عالم المادة.

وقد ركز بعض شرّاح نهج البلاغة على الاحتمال الثاني من بين الاحتمالات الثلاثة المذكورة، ولعل دليلهم في ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟

فقال: أدعوها فتجيبني، قال: ثم قال ملك الموت: إنّ الدنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء»[1].

---

١. من لا يحضره الفقيه ١/٨٠ ح ١٢.

الخطبة[1] ١١٣

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

في ذمّ الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن عدّة مسائل مهمّة مرتبطة مع بعضها البعض الآخر.

فقد حذر عليه السلام في القسم الأول من الخطبة من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبّهها بالدار الآيلة للسقوط فلا ينبغي الاغترار بها، ثم واصل في القسم الثاني كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد في الدنيا من خلال عدم التعلّق بها.

وأخيراً إختتم الخطبة بالإشارة إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإنّ صلاح المجتمع في الحذر منها.

---

١. سند الخطبة:
ذكر البعض هذه الخطبة كل من الزمخشري في أوائل كتاب «ربيع الأبرار» والآمدي في كتاب «غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٢٤٧/٢).

القسم الأول

«وَأُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا. لَمْ يُصْفِهَا ٱللّٰهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ ٱلْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ ٱلزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ ٱنْقِطَاعَ ٱلسَّيْرِ! اِجْعَلُوا مَا ٱفْتَرَضَ ٱللّٰهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَٱسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ ٱلْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ».

الشرح والتفسير

التحذير من الدنيا

إتّجه الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة نحو ذمّ الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقّرها وعدّد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أنّ الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاة وأداة للسعادة.

فقد استهل ﷺ الخطبة بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد في كل العصور من الدنيا قائلاً: «**وَأُحَذِّرُكُمُ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ**».

«**القلعة**» بضم القاف وسكون اللام المشتقة من مادة «قلع» الموضع غير المستوطن الذي يجب أن يرحل عنه الإنسان في أي زمان.

و«**النجعة**» بضم النون عكس سابقتها فهي تعني الموضع الذي عثر فيه الإنسان على الخير

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه ﷺ أنّ الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكي يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل ﷺ الكلام بالإشارة إلى أدلّة المطلب السابق ليقول: «**قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ**[1] **هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا**».

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فانّ عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناة وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخز الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن إبتغيت العسل فما عليك إلّا أن تتوقع لدغ الزنابير. فالواقع هناك أفعى كامنة في كل كنز ومرارة في كل حلاوة، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه الله الولد عاش الهم والغم الذي يثقل كاهله ويكدّر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التي تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التي يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكّد ﷺ ذلك الكلام على أنّه هو السبب الذي لم يجعل الله سبحانه يرضها ثواباً لأوليائه ولم يمنعها عن أعدائه: «**لَمْ يُصْفِهَا**[2] **اَللّهُ تَعالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ**[3] **بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ**».

نعم، لو كان متاع الدنيا ثمين لخصّ بها الحق سبحانه أولياءه وزواها عن أعدائه، لكنّها لما كانت زهيدة لا قيمة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف ﷺ: «**خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ**[4]. **وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ**».

والعجيب ليس هناك من تدريج في هذه التغييرات وزوال النعم وانهيار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شيء خلال ساعة، بل في برهة من الزمان والتاريخ مليىء بمثل هذه الحوادث المرعبة والتي تنطوي على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويثق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

---

١. وردت هذه العبارة في سائر النسخ بهذه الصيغة «دار هانت على ربّها»، بينما يبدو أنّها وردت خطأً في نسخة صبحي الصالح والتي أقتبست منها هذه النسخة بهذه الصيغة «دارها هانت».

٢. «لم يصفها»: من مادة «الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشارة إلى تفاهة نعم الدنيا بحيث منحها الله الجميع.

٣. «لم يضن»: من مادة «الضن» بمعنى البخل.

٤. «عتيد»: من مادة «عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتي بمعنى الإدخار.

ثم واصل الإمام ﷺ الكلام بهذا الخصوص من خلال طرحه على شكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق: «**فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!**».

لقد استعمل الإمام ﷺ قمّة الفصاحة والبلاغة في هذه التشبيهات الثلاث، فقد شبّه بادىء الأمر الدنيا بدار خاوية بالية قد انفطرت جدرانها وأشرفت سقوطها على الانهيار، ثم شبّه عمر الإنسان بالأطعمة التي توضع على المائدة وتأخذ بالتناقص مع مرور الزمان إثر تناولها، وأخيراً شبّه فترة بقاء الإنسان في هذا العالم بالأسفار القصيرة التي لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم ﷺ هذا القسم من الخطبة بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال: «**اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ**».

فقد أوصى الناس في العبارة الأُولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشرعية بقدر طلباتهم الشخصية فيجدوا ويجتهدوا في هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصدارة لحاجاتهم الدنيوية ويهمّشوا الفرائض الإلهيّة والواجبات الشرعية.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعية من حاجاتكم وطلباتكم بين يدي الله تبارك وتعالى، غير أنّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشارة إلى هذا المعنى والتي وردت في العبارة الثانية إذ قال: «**وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ**»، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرار لمفهوم واحد.

وأخيراً أشارت العبارة الثالثة إلى التأهب والاستعداد لمواجهة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبة من الذنوب وتدارك ما فرط، وبخلافه فانّ الموت سيباغت الإنسان ويقذف به في عالم لم يعد العدّة لدخوله.

**

القسم الثاني

«إِنَّ ٱلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ ٱغْتُبِطُوا بِمَا رُزِقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ ٱلْآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ ٱلآمَالِ، فَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ ٱلآخِرَةِ، وَٱلعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ ٱلآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ ٱللّٰهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ ٱلسَّرَائِرِ، وَسُوءُ ٱلضَّمَائِرِ. فَلاَ تَوَازَرُونَ وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ وَلاَ تَوَادُّونَ».

الشرح والتفسير

صفات الزهّاد في الدنيا

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبة وتؤكّده، وهي مقدمة للقسم القادم من الخطبة.

فقد إتّجه أولاً إلى وصف الزهّاد في الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنة أحوال المخاطبين مع أحوال أُولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهّاد قائلاً: **«إِنَّ ٱلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا»**.

صفتهم الثانية تكمن في شدّة حزنهم رغم فرحهم وسرورهم: **«وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا»**.

وأمّا صفتهم الثالثة فهم ناقمون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعاتهم) رغم شكرهم الله سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة: **«وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ ٱغْتُبِطُوا[1] بِمَا رُزِقُوا»**.

---

١. قرأها أغلب شرّاح نهج البلاغة مبنية للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنيّة للمعلوم ففهموا من العبارة

نعم، فعيون قلوبهم باكية لما يرون في أنفسهم من نقائص وعيوب وما يبتدر منهم من زلّات أحياناً، وإن عاشوا حالة من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعية والأخلاقية، إنّهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت في أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فانّ لسانهم يلهج بحمد الله وشكره على ما حباهم به من نعم مادية ومعنوية من جهة، ومن جهة أخرى فهم لا ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير في عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصة القول فهم في مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايبهم المعنوية وهذا هوالسبب في حركتهم التكاملية نحو الله سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاة لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح في النقطة الثانية وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهّاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بيّن لهم ثلاث صفات: «**قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ ٱلآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ ٱلآمَالِ، فَصَارَتِ ٱلدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ ٱلآخِرَةِ، وَٱلعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ ٱلآجِلَةِ**».

نعم، فالدنيا تستولي على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك في هذه الدنيا العابرة واحاطة القلب بالأماني الخيالية الكاذبة.

ثم إختتم ﷺ هذا المقطع من الخطبة ببيان هذه النتيجة: «**وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ ٱللّٰهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلاَّ خُبْثُ ٱلسَّرَائِرِ، وَسُوءُ ٱلضَّمَائِرِ. فَلاَ تَوَازَرُونَ[1] وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ وَلاَ تَوَادُّونَ**».

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحدة بينكم من خلال الإخاء الإسلامي وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التي تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحبّ الدنيا وضيق الأفق، فأدّى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلي والعجز أمام العدو الخارجي وبالنتيجة قطعت عنكم البركات الاجتماعية كالتعاون والموازرة وإسداء الخدمات المتبادلة أواصر المحبّة والصداقة.

☜ شبيه ما ذكر، والحال يتبيّن من الرجوع إلى المتون اللغوية أن للإغتباط معنى آخر هو السرور وحمد الله وشكره على نعمة (انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغوية).

١. «لا توازرون»: من مادة «موازرة» بمعنى التعاون والمساعدة.

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء النيّة والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشري إلى بؤرة للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

ﮧ

القسم الثالث

«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ ٱلدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ ٱلْيَسِيرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ،وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ ٱلآجِلِ وَحُبِّ ٱلْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ».

الشرح والتفسير

العود على ذمّ أصحاب الدنيا

خاطب الإمام عليه السلام ـ في القسم من الخطبة والذي يمثل آخرها ـ أصحاب الدنيا وهو يسعى لإيقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم على أساس الدليل والبرهان فقال: **«مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ ٱلدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ ٱلْكَثِيرُ مِنَ ٱلآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمُ ٱلْيَسِيرُ مِنَ ٱلدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ،وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ[1] مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ».**

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنيا الذين لا يحزنهم فوات الأمور المعنوية بينما تنقلب أحوالهم لأدنىٰ ضرر مادي يحيق بهم، على سبيل المثال ليس هناك ما يقلقهم إذا فاتتهم صلاة الفجر

1. «زوي»: من مادة «زيّ» على وزن حيّ بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها في العبارة الفقدان والإبعاد حيث وردت بصيغة الفعل المجهول مقرونة بالفعل عن.

لعدّة أيّام متتاليات، أو لا يغتمون إن حرموا لسنوات من فيوضات التهجد وقيام الليل، بينما يضجرهم خسران بضعة دارهم، فلا يتمالكون أنفسهم عن الزعيق بمن حـولهم، ولعـل هـذا التفاوت الواضح والمخجل يستند إلى أحد أمرين: إمّا ضعف إيمانهم بالآخرة والوعد والوعيد الإلهي، أو أنّهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعيد غير أنّ الهوى قد أحاط بقلوبهم واستولى على أنفسهم وسيطرت عليهم الغفلة بحيث لم يعودوا يروا سوى الدنـيا وحـطامها ومـتاعها الزائل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن نقطة ضعف أخرى يمتاز بها طلّاب الدنيا والتي تتمثل بعدم قدرة أي أحد منهم على التعرض لعيوب أخيه (بهدف الإصلاح والنهي عن المنكر) ما ذلك إلّا خشية أنّ يجابهه بنفس ذلك العيب: «**وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ**».

فالعبارة تشير إلى حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بكل تـلك العيوب الناشئة من حبّ الدنيا، وذلك لأنّه لا يجرأ أحد منهم أن يتصدى للإصلاح فهو يخشى الردّ من الآخرين الذين ينبرون له ويقولون: إنّ هذا العمل أو ذاك شيئاً فلم نفعله؟ وإن كنت طبيباً فهلّاً عالجت نفسك قبل أن تهم بعلاج الآخرين (طبيب يداوي الناس وهو عـليل)؟ وهل يصح اطلاق الحجر ممن كان بيته من الزجاج؟!

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول كأنّكم قد اتفقتم على نبذ الآخرة والذوبان في الدنيا وقد أصبح الدين لقلقة لسان، وأنّكم لأشبه بمن قام بـعمله وأحـرز رضى سـيده ومـولاه: «**قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً**[١] **عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ**».

قد تحصل أحياناً بعض الأفعال الشائنة بين الناس دون أن يكون هـناك إتـفاق مسـبق عليها، إلّا أنّها على درجة من التناغم والتنسيق والانسجام وكأنّهم حضروا عدّة جـلسات مخططة ومبرمجة، وقد اتفقوا على كل شيء، وما هذا إلّا لتشابه الدوافع في مثل هذه الأُمـور،

---

١. «لعقة»: من مادة «لعق» على وزن فرق بمعنى لحس الشيء وتـطلق اللـعقة عـلى القـليل مـن الطـعام الذي يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقة صغيرة على لسانه ويبتلعه بسرعة، وهي كناية عن الشيء المختصر.

وأحد مصاديقها الواضحة يتمثل بعدم المبالاة بالقضايا المرتبطة بالآخرة والخلود إلى الدنيا المادية.

يمكن أن يكون مثل هؤلاء الأفراد الطلّاب للدنيا من المتدينيين ظاهرياً، غير أن تدينهم لا يتجاوز سلسلة من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحياناً القليل من العبادات، والمفردة «لعقة» تشير إلى هذا المعنى، وقد يعيشون أحياناً حالة من الرضى عن أنفسهم وكأنّهم عملوا بكل تكاليفهم الشرعية ووظائفهم الإنسانية وقد فازوا بمقام القرب الإلهي وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطير أشار الإمام ﷺ إليه في آخر هذه الخطبة.

ﮧﮨ

الخطبة[1] ١١٤

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

وفيها مواعظ للناس

نظرة إلى الخطبة

مزج الإمام عليه السلام القسم الأول من هذه الخطبة حمد الله والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفة الله تعالى وتعلّم الإنسان اسلوب الشهادة بالإخلاص، كما تبيّن أهميّة الشهادة بالوحدانية والنبوة وذلك بعبارات عميقة المعنى، وفي القسم الثاني من الخطبة دعى الجميع إلى التحلي بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتها التي تنعكس على حياة الإنسان.

أمّا القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعة زوال النعم وعدم بلوغ الأماني وقصر الحياة الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذي تضمن مختلف النصائح والمواعظ البالغة حيث دعى الجميع إلى طاعة الله سبحانه وحذّرهم من نسيان الآخرة والانغماس في مخالب الغفلة والغرور بالحياة الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

---

١. سند الخطبة:
ورد قسم مهم من هذه الخطبة في كتاب «تحف العقول» الذي يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغة، وقد نقل الزمخشري مقطعها الأول في أوائل كتابه «ربيع الابرار» والقسم الآخر في أوائل المجلد الثاني من ذلك الكتاب، ويتضح من الفرق بين نقله ونقل السيد الرضي رحمه الله أنه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما نقلها مع اختلاف طفيف القاضي القضاعي (وهو من علماء القرن الخامس ومن مقربي أحد خلفاء الدولة الفاطمية في مصر) في كتابه «دستور معالم الحكم» والمرحوم الشيخ الطوسي في الآمالي (مصادر نهج البلاغة ٢٥٢/٢).

وتبلورها في عرض سلسلة من المواعظ المتسقة.

أمّا فصاحة وبلاغة هذه الخطبة ولطافة وعذوبة عباراتها ليتبيّن ممّا صرّح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدي (من علماء القرن الثامن) في ختام هذه الخطبة إ قال: «**لَو كَانَ كَلامٌ مِنْ كَلامِ البَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هـذا هُوَ الأولُ وَلَو أعْجَزَ شَيءٌ مِنَ الكَلامِ بَعْدَ كَلامِ اللهِ لَكَانَ هـذا هُوَ الثّانِي**»[1].

ᘓᘐ

---

١. مصادر نهج البلاغة ٢/٢٥٢.

القسم الأول

«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَٱلنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلاَئِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، ٱلسِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ، وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ عَايَنَ ٱلْغُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى ٱلْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاَصُهُ ٱلشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ ٱلشَّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ ٱللّٰهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداًﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ ٱلْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ ٱلْعَمَلَ. لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ».

الشرح والتفسير

الثقة القيّمة

أشار الإمام ﷺ في القسم الأول من هذه الخطبة إلى مسائل مهمّة في جانب حمد الله والثناء عليه والاستعانة بذاته المقدّسة والاستغفار من الذنوب والمعاصي، فقال بادىء ذي بدء: **«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَٱلنِّعَمَ بِالشُّكْرِ»**.

قرن الحمد بالنعمة يستند إلى أنّ حمد الله تعالى بنعمه وشكره يجعل الإنسان جديراً بالنعم، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقة النعمة بالشكر إلى أنّ النعمة سبب الشكر، وذلك لأنّ العباد مكلّفون بشكر كل نعمة، فالشكر واجب على كل نعمة (الواقع هو أنّ الحمد يشكل السبب التكويني للنعم والنعم السبب التشريعي للشكر)، والشاهد على ذلك ما ورد في الخطبة ١٥٧ إذ قال: **«اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ»**.

طبعاً يمكن أن تكون هناك عدّة تفاسير أخرى للعبارتين المذكورتين من حيث تفاوت العلّة والمعلول، غير أنّ ما ورد هو أنسبها جميعاً.

ثم قال ﷺ في المسألة الثانية: «**نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلائِهِ**». في إشارة إلى أنّ البلاء الإلهي هو في الواقع نوع من النعم، كما بيّنا ذلك في بحثنا لفلسفة الآفات والبلاء ضمن مباحث التوحيد والعدل، فقد يكون البلاء سبباً لليقظة والعودة إلى الله تعالى وترك المعاصي أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى بلاءاً ظاهراً، لكنّه نعمة باطنياً، غير أننا لا نميز ذلك، فربّما يكون البلاء كفّارة للذنوب كما قد يكون وسيلة لمعرفة قدر النعم وذلك لأنّ الإنسان قد لا يعرف قيمة النعم إلّا أن يفقدها ويتعرض إلى بعض الشدائد، وإلّا فالحكيم تبارك وتعالى لا يعرّض شخصاً للبلاء عبثاً، وعليه فبلاؤه رحمة وداؤه دواء.

ثم قال في المسألة الثالثة: «**وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ ٱلنُّفُوسِ ٱلْبِطَاءِ**[1] **عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ، ٱلسِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ**».

إشارة إلى النفوس البشرية ما لم تبلغ المرحلة المتكاملة للنفس المطمئنة فهي ضعيفة في الإتيان بالوظائف الشرعية وإمتثال الأوامر الإلهيّة ومسارعة في مقارفة الذنوب التي تنسجم والغرائز الحيوانية، ويتعذر تجاوز مرحلة النفس الأمارة وبلوغ مرحلة النفس اللوامة والوصول إلى النفس المطمئنة ما لم تكن هناك نصرة الله ومدده.

ثم قال ﷺ: «**وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ**».

فالعبارة تشير إلى أننا إن لم نستغفر من الذنوب ولم نجل صدأ القلوب فسوف لن يسعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلك المرحلة من الإيمان التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً. والواقع هو أنّ الاستغفار تكميل للبحث السابق ومقدمة للبحث القادم.

أمّا القضية الأخيرة فقد تناولت النتائج النهائية لهذا البحث فقال: «**وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ عَايَنَ ٱلْغُيُوبَ وَوَقَفَ عَلَى ٱلْمَوْعُودِ، إِيمَاناً نَفَى إِخْلاصُهُ ٱلشِّرْكَ، وَيَقِينُهُ ٱلشَّكَّ**».

---

١. «بطاء»: جمع «بطيئة» ضد السريعة.

إشارة إلى خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد الله تعالى والثناء عليه بشكر النعم، وخرج سالماً معافى من ميدان الامتحان وتغلّب على هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصيه آنذاك له أن يبلغ كمال الإيمان، الإيمان الذي يبلغ به درجة الشهود، وكأنّه يرى الله ببصيرته ويشاهد بأُم عينيه الجنّه والنار وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، الإيمان المنزّه عن كافة أشكال الشرك واليقين الذي لا يتطرق إليه الشك.

نعم، فاليقين على مراتب: المرتبة الأُولى وهى مرحلة التي يتّجه إليها الإنسان بواسطة البرهان والاستدلال والتي يصطلح عليها باسم «علم اليقين»، والمرتبة الثانية وهى المرحلة التي يصلها الإنسان عن طريق الشهود وكأنّه يرى من بعيد الأنوار الإلهيّة وعرصة الحشر يوم الحساب، وهى المرحلة المسمّاة «عين اليقين» يلمس جميع الأشياء، فالأنوار الإلهيّة تحيطه من كل جانب ونسيم الجنّة المنعش يداعب ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنّم المحرقة، وهى المرحلة التي تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعبارة عاين ووقف هو تلك المرحلة النهائية للإيمان واليقين والتي تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالمعاينة.

وأخيراً يتّجه الإمام عليه السلام صوب الشهادة بالتوحيد والنبوة ليختتم به هذا المقطع من الخطبة، فقال: **«وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ اَلْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ اَلْعَمَلَ. لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ»**.

في إشارة إلى أنّ الشهادة بالوحدانية والنبوة إن انطلقت من أعماق النفس البشرية وظهرت أثارها على القول والعمل، فانّها على درجة من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان في ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«أوحىٰ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالىٰ إِلىٰ مُوسىٰ بنِ عِمرانَ عليه السلام: يا موسىٰ لَو أنّ السّمواتِ وَعامِريهِنّ عِندِي، والأَرضِينَ السَّبعَ فِي كَفَّةٍ وَلا إِلٰـهَ إِلّا اللهُ فِي كَفَّةٍ، مالَتْ بِهِنَّ لا إِلٰـهَ إِلّا اللهُ»**[1].

---

١. ثواب الأعمال، (حيث نقل شرح نهج البلاغة، للعلّامة الخوئي ٥٧/٨) وهذا هو الحديث الأول الذي ورد في كتاب ثواب الأعمال.

وبالطبع ليس المراد بالزنة هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنة القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنوية.

تأمّل

أسس الموفقية والنجاة

بيّن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة والذي يشكل في الواقع مقدمة للقسم الثاني الذي يتحدث عن أهميّة التقوى وآثارها، حقيقة جذور الورع والتقوى والتي يكمن أهمّها في الإيمان واليقين والمعرفة، والإيمان القوي والراسخ الذي يبلغ بصاحبه درجة تجعله كأنّه يرى الله ويشاهد نعم الجنّة ونيران جهنّم، وممّا لا شك أنّ مثل هذا الإيمان هو مادة التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتي تتمثل بالنفس الطائشة على أنّ الاستعانة باللطف الإلهي، هو سبيل النجاة منها وقد تطرق إلى ما ورد في سورة يوسف وشأنه مع زليخا: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[1].

حيث استعان بعدّة وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد الله والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء، والحديث عن التوبة والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثرة في التوفيق في هذا المسير، وما أن يتمّ الانتهاء من هذا البرنامج الإلهي حتى يشرع بحث التقوى على أنّه من الأبحاث المداعبة للقلب والتي تختزن تعتبر غاية في التأثير ولو استفاد المربّون وأساتذة درس الأخلاق من هذا الطريق الذي علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك في تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.

---

١. سورة يوسف / ٥٣.

القسم الثاني

«أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللّٰهِ بِتَقْوَى ٱللّٰهِ ٱلَّتي هِيَ ٱلزَّادُ وَبِهَا ٱلْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا.

عِبَادَ ٱللّٰهِ، إِنَّ تَقْوَى ٱللّٰهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ ٱللّٰهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ. فَأَخَذُوا ٱلرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَٱلرِّيَّ بِالظَّمَإِ. وَٱسْتَقْرَبُوا ٱلْأَجَلَ فَبَادَرُوا ٱلْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا ٱلْأَمَلَ فَلاحَظُوا ٱلْأَجَلَ».

الشرح والتفسير

أعظم الفضائل

بعد أن فرغ الإمام ﷺ عن تلك المقدمة الرصينة والوثيقة في المقطع الأوّل من هذه الخطبة، إتجه إلى أهمّ فضيلة من الفضائل التي يكتسبها الإنسان وهى التقوى، فقد أشار في البداية إلى آثارها الأُخروية، فقال: «**أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللّٰهِ بِتَقْوَى ٱللّٰهِ ٱلَّتي هِيَ ٱلزَّادُ وَبِهَا ٱلْمَعَاذُ: زَادٌ مُبْلِغٌ، وَمَعَاذٌ مُنْجِحٌ**».

من البديهي أنّ يحتاج الإنسان في أسفاره الطويلة المليئة بالأخطار والمخاوف إلى شيئين: الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التي تحفظه من المخاطر، وهو ما صرّح به القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...**﴾[1].

---

١. سورة البقرة / ١٧٩.

وما اقتصه من خبر يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاة حين وقف على حافة خطر هاوية الذنب: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ...﴾[1].

حقاً إنّ التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاة من نار جهنّم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع في هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهميّة التقوى في أنّ من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشارة الله تبارك وتعالى، أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوة خير واع (إشارة إلى كافة التقاة وأتباع مدارس الأنبياء): «**دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ. فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا وَفَازَ وَاعِيهَا**».

ذهب البعض إلى أنّ المراد بالداع إلى التقوى قد يكون الله سبحانه وتعالى أو شخص النبي صلى الله عليه وآله الذي ينطق عن الله تعالى، والمقصود بواع التقوى هو علي عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاة الحق ووعاته، على أنّ المنبع الأصلي هو الحق تبارك وتعالى والنبي صلى الله عليه وآله وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثم خاض عليه السلام في الآثار القيّمة للتقوى في خاصة عباد الله فقال: «**عِبَادَ اللهِ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ**[2] **أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ**[3]».

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنائيان لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفيقون في جوف الليل، فيقومون للعبادة والتهجد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاة، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم الله على كل حال، فالعبارة تشير إلى أنّ تقوى الله هي مادة الحركة نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأنّ الإنسان حين يشعر بالمسؤولية ينطلق في الحركة نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصي

---

١. سورة يوسف / ٢٣.
٢. «حمت»: من مادة «حماية» بمعنى المنع، ولذلك يقال الحامي للذي يمنع عن الآخرين الخصوم والأعداء.
٣. «هواجر»: جمع «هاجرة» وسط النهار في الجر الحار.

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم إلّا جانب من آثار خشية الله تعالى التي تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بوصف طريقة عبوديتهم لربّهم بأنّهم آثروا المشقة والتعب على الراحة والكسل والعطش على الريّ، وقد شعروا بقصر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعة في الخيرات ومبادرة الأعمال الصالحة، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم: «**فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ**[1]**، وَالرِّيَّ**[2] **بِالظَّمَإِ، وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلاحَظُوا الْأَجَلَ**».

نعم، في الوقت الذي ينغمس فيه أهل الدعة والراحة في مختلف الذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يغضون الطرف عن الراحة بهدف مجانبة الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا في حبائلها وآمالها الكاذبة.

والواقع هو أنّ العبارة «فبادروا» و«فلاحظوا» هي نتيجة ومعلول للعبارة «واستقربوا» و«كذبوا» يعني من يرى قرب الأجل وسرعة العمر يبادر بالعمل، ومن يكذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فانّ تحمل مصاعب وشدائد هذا العالم يؤدّي إلى سكينتهم الخالدة واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام ﷺ في موضع آخر بقوله: «**صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً**»[3].

ﮩﮨ

---

١. «نصب»: بمعنى العناء والتعب.

٢. «الريّ»: بمعنى الارتواء من الماء.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ (همّام).

القسم الثالث

«ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ؛ فَمِنَ ٱلْفَنَاءِ أَنَّ ٱلدَّهْـرَ مُـوتِرٌ قَوْسَهُ، لاَ تُـخْطِيءُ سِـهَامُهُ، وَلاَ تُـؤْسَى جِـرَاحُـهُ. يَـرْمِي ٱلْـحَيَّ بِـالْمَوْتِ وَٱلصَّحِيحَ بِالسَّقْمِ، وَٱلنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ. آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ. وَمِنَ ٱلْعَنَاءِ أَنَّ ٱلْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَالا يَسْكُنُ. ثُـمَّ يَـخْرُجُ إِلَـى ٱللّـهِ تَعَالَى لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ. وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى ٱلْـمَرْحُومَ مَـغْبُوطاً، وَٱلْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ، وَبُؤْساً نَزَلَ. وَمِـنْ عِـبَرِهَا أَنَّ ٱلْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَـلاَ أَمَـلٌ يُـدْرَكُ وَلاَ مُـؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّها وَأَضْحَى فَيْئَهَا، لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ. فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ، مَا أَقْرَبَ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْـعَدَ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْـحَيِّ لاِنْقِطَاعِهِ عَنْهُ!».

ﮘﮗ

الشرح والتفسير

العبر والاعتبار

لما كان الانغماس في الدنيا والتكالب عليها وفقدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعدم التقوى، فقد ورد الحديث هنا عن تفاهة الدنيا وتقلب أحـوالها ومـا تنطوي عليه من شدائد ونوازل بهدف اجـتثاث جـذور التـحلل وعـدم اسـتشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام: «**ثُمَّ إِنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ**».

حيث تشير العبارة إلى أربع خصائص تمتاز بها الدنيا والتي يقود التفكير بها الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقية للدنيا، ثم خاضت العبارات التالية في شرحـها الواحـدة بـعد

الأُخرى مع التطرق إلى بعض التفاصيل الدقيقة لكل واحدة منها، فأشارت في البداية إلى خاصية فناء الدنيا، حيث صورت بعض علامات هذا الفناء في أنّ الدهر يشبه الرامي الماهر الذي يطلق سهامه دون أن تطيش وتخطيء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام: «**فَمِنَ اَلْفَنَاءِ أَنَّ اَلدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ، لاَ تُخْطِيءُ سِهَامُهُ، وَلاَ تُؤْسَى[١] جِرَاحُهُ**».

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام في شرحه لهذه العبارة: «**يَرْمِي اَلْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَاَلصَّحِيحَ بِالسَّقْمِ، وَاَلنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ**». فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض أصح الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعة الحياة الدنيا، وهذا هو القانون الذي لا يعرف لاستثناء، والغريب في الأمر أنّ الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلّقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترّون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلاً: «**آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ[٢]**».

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقة فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التي أوردها في وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنى عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام في شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التي لا يستفيدها جميعاً والمباني التي يشيّدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلى عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور: «**وَمِنَ اَلْعَنَاءِ أَنَّ اَلْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَالا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اَللهِ تَعَالَى لاَ مَالاً حَمَلَ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ**».

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدّخرون أموالاً طائلة، إلّا أنّهم لا يستفيدون إلّا من جزء يسير منها وما أكثر أُولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلّا مدّة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتى ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامة مراسم العزاء على أرواحهم في تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها في خاتمة المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

---

١. «توسي»: من مادة «أسو» بمعنى علاج الجرح.

٢. «ينقع»: من مادة «نقع» على وزن نفع بمعنى إرواء وارتواء.

سوى الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتى ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد في البحار عن العلّامة المجلسي أنّ علي ﷺ قال: «**كَمْ مِنْ غـافِلٍ يَنْسَجُ ثَوباً لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّما هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِي بَيتاً لِيَسكُنَهُ وَإِنَّما هُوَ مَوضِعُ قَبرِهِ**»[1].

ثم خاض الإمام ﷺ في شرح الصفة الثالثة للدنيا فقال: «**وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً؛ لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ**[2]**، وَبُؤْساً نَزَلَ**».

حيث رأينا كراراً ليس في صفحات التاريخ فحسب، بل في حياتنا اليومية عدّة أفراد كانوا من أهل السطوة وقمة القدرة حتى يتمنى الجميع الحصول على شيء من قدرتهم، لكنّهم هووا في مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسى والحزن لصعوبة أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأة سلّم القدرة ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذي استعرض يوماً كل تلك القدرة و الثروة التي خطفت أبصار قصار النظر من بني اسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول على تلك الثروة بدله، ولم تمض مدّة حتى شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه وثرواته، ممّا دفع من تمنى تلك الثروة إلى شكر الله أن لم يجعلهم بدلاً منه ولم يغدق عليهم الثروة والسطوة، أجل لقد تكررت هذه الصورة مراراً في التاريخ ثم قال ﷺ في الصفة الرابعة للدنيا والتي تختص بكونها عبرة: «**وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ**».

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّة مقدمات بغية الحصول على المال والثروة أو الجاه والمنزلة ولا يكاد يقترب من الوصول إلى أهدافه حتى يتخطفه الموت فيقضي على جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتى المال الذي يجنيه والمنصب الذي يشغله.

ثم يعرب الإمام ﷺ في آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئة بالفناء والعناء والموصوفة بالغير والعبر: «**فَسُبْحَانَ اللهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّها**[3] **وَأَضْحَى**

---

١. بحار الانوار ١٣٢/٦.

٢. «زلّ»: من مادة «زل» على وزن حل بمعنى الانزلاق والسقوط.

٣. «ريّ»: بمعنى الارتواء.

فَيْئُهَا، لاَ جَاءٍ يُرَدُّ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ».

نعم، عابرة جدّاً لحـظات الفرح والسرور وهي أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفييء والظل.

يمكن أن تكون العبارة «**لا جاء يرد ولا ماض يرتد**» إشارة إلى الناس حيث تأتي طائفة لا يقدر أحد على صدها، كما تنتقل طائفة من هذا العالم وليس لأحد من قدرة على إعادتها، كما يمكن أن تكون إشارة إلى حوادث الدهر شرّها وخيرها والتي لا يسع أحـد الحـيلولة دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطعية حتمية، كما لا يمكن عودة ما تولى من أمور ودهور، فلا عودة للطفولة في الشباب ولا الشباب في المشيب.

ثمّ إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بهذه العبارة التي تكمل سابقتها من العبـارات قـائلاً: «**فَسُبْحَانَ ٱللّٰهِ، مَا أَقْرَبَ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْـحَيِّ لِانْـقِطَاعِهِ عَنْهُ!**».

نعم، فالفاصلة بين الموت والحياة قصيرة جدّاً حتى صورتها الروايات بأنّها تكاد تكـون كطرفة العين، ومن ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفْتْ عَينَايَ إلّا ظَنَنتُ أَنَّ سَفرِي لا يَلْتَقِيانِ حَتّىٰ يَقْبِضَ اللهُ رُوحِي وَلا رَفَعْتُ طَرفِي وظَنَنْتُ أَنّي خـافِضُهُ حَتّىٰ اُقبَضَ وَلا تَلَقَّنُ لُقْمَةً إلّا ظَنَنْتُ أَنّي لا اُسِيغُها حَتّىٰ اُغَصَّ بِها مِنَ المَوتِ**»[1].

إنّ من له أدنى إلمام ببنية جسم الإنسان ليعلم بمدى قرب هذه الفاصلة، فيكفي تخثر مقدار قليل من الدم ليغلق منافذ شرايين الفاصلة أوالدماغ فيؤدّي بحـياة الإنسان، بل يكفي نـفوذ جزء يسير من الطعام إلى لسان المزمار بدلاً من إتجاهه إلى المعدة ليختنق الإنسان ويموت من فوره، كما تكفي صدمة طبيعية لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلى الأبد.

أمّا بالنسبة للحوادث الخارجية فبمجرّد اهتزاز الأرض للحظة قد تـنقلب مـدينة رأساً على عقب، كما قد تأتي عاصفة أو سيل على كل شيء فتحيله خراباً لا حركة فيه ولا حياة، بل لصاعقة من السماء أن تحيل كل شيء إلى رماد.

---

١. بحار الانوار ١٦٦/٧.

إلى جانب ذلك هنالك الحوادث اليومية في حياتنا المعاصرة من قبيل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التي تنهي حياة الأفراد خلال لحظات، نعم، تكاد تكون معدومة هي الفاصلة بين الحياة والموت، ولكن من جانب آخر فانّ هذه الفاصلة قد تكون في غاية البعد، فلو اجتمع كافة الأطباء وأعدّوا مختلف الوسائل الطبية، فليس لهم أن يهبوا الحياة للأموات، على غرار الوليد الذي لا يسعه الرجوع إلى بطون اُمه و الثمار التي لا تعود ثانية إلى الأشجار بعد سقوطها.

نختتم الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**ثَلاثَةُ أَشياءٍ لا يَنبَغِي لِلعاقِلِ أن يَنساهُنَّ عَلى كُلِّ حالٍ، فَناءُ الدُّنيا وَتصَرُّفُ الأَحوالِ والآفاتُ الَّتي لا أمانَ لَها**»[1].

---

١. بحار الانوار ٢٣٨/٧٥.

القسم الرابع

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ ٱلْخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ ٱلْعِيَانِ ٱلسَّمَاعُ، وَمِنَ ٱلْـغَيْبِ ٱلْـخَبَرُ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَزَادَ فِي ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ ٱلآخِـرَةِ وَزَادَ في ٱلدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ ٱلَّـذِي أُمِـرْتُمْ بِـهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا ٱتَّسَعَ. قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا يَكُـونَنَّ ٱلْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ ٱلْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَٱللَّهِ لَقَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلشَّكُّ وَدَخِلَ ٱلْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ ٱلَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُـرِضَ عَـلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ ٱلَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَبَادِرُوا ٱلْعَمَلَ، وَخَافُوا بَـغْتَةَ ٱلْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ ٱلْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْـعَةِ ٱلرِّزْقِ. مَـا فَـاتَ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلرِّزْقِ رُجِيَ غداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ ٱلْعُمُرِ لَمْ يُـرْجَ ٱلْيَـوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ ٱلْجَائي، وَٱلْيَأْسُ مَعَ ٱلْمَاضِي. فَاتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

الشرح والتفسير

الحرص على الدنيا

بيّن الإمام عليه السلام سلسلة من النصائح والمواعظ في هذا المقطع من الخطبة والذي يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعادة والنجاة فقال:

«**إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلاَّ ثَوَابُهُ**».

فالإنسان بصورة عامّة يهرب من السوء والشر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعي نحو جني منفعة ودفع الضرر، فقد اعتمد الإمام ؑ هذا الأمر الفطري ليدعو الناس إلى طاعة الله تعالى والابتعاد عن المعصية والذنب فقال إنّ الأسوأ من السوء هو عقاب الله تعالى ومؤاخذته على الذنوب والأفضل من الخير هو جزاء الله تعالى وثوابه على الطاعة والاحسان، من الواضح أنّ المراد من الشر والخير (بقرينة الثواب والعقاب) هو المعصية والطاعة، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا في معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكويني (أي جزاء وبركات الأعمال في الدنيا).

وقد أورد الإمام ؑ مثل هذه العبارة في موضع آخر حيث قال: «**فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ**»[1].

فقد إهتم الإمام في النظرة الأُولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقّاً إنّ الذي يضمره فاعل الخير والشر أعظم ممّا يقوم به من عمل، لأنّه لا يرى توفر أرضيته وأسبابه، من جانب آخر فانّ نتائج الأعمال خالدة بينما تزول الأعمال وهذا بحدّ ذاته دليل على أفضلية النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام ؑ نقطة مهمّة أخرى بهذا الخصوص فقال: «**وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ**»، هذه حقيقة في أنّ المتع المادية كالسراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شيئاً يذكر حين يصله الإنسان، فللقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنّه لم يبلغها ويحصل عليها، في حين ورد بشأن النعم الإلهيّة الجمّة في الآخرة: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[2].

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذة التي يعيشها في هذه الدنيا حين مناجاته لله

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار ٣٢.
٢. بحار الانوار ٨/١٩١، ح١٦٨.

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بأنّ الأمر إذاكان كذلك لابدّ أن يغنيكم سماع الحقائق المرتبطة بالآخرة بواسطة الأنبياء وأولياء الله سبحانه وتعالى عن رؤيتها: «**فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ**» من البديهي أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجي مادامه في زنزانة الجسد وفي دار الدنيا الظلماء الضيقة، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخرة وتفاصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتني بها.

ثم تطرق الإمامﷺ إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتناب السيئات فقال: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الآخِرَةِ وَزَادَ في الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!**»، وهذا هو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...**﴾[1].

وكما قال في موضع آخر: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...**﴾[2].

وبناءاً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التي توظف في مسار الآخرة إن قللت في الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن في الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخرة، وبالعكس فانّ الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أخلّ بشيء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنياه لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ...**﴾[3].

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضة الصفقة الأُولى المربحة بالثانية الخاسرة؟!

ثم قال الإمام ﷺ في الأمر الثاني: «**إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ**».

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر في مقابل الحظر، يعني ما أجيز لكم بالنسبة إلى الذنوب

---

١. سورة البقرة / ٢٦١.
٢. سورة التوبة / ١١١.
٣. سورة آل عمران / ٧٧.

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدّي بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصي الذنوب ولا سيّما الكبائر، بينما نواجه دائرة واسعة جدّاً إن أردنا إحصاء ما أجازه الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبه للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أنّ النساء اللاتي يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتي يحرم الزواج منهن[1]، وعليه فطاعة أوامر الله تعالى ورعاية الحلال والحرام لا تجعل الإنسان في حرج، وهذا في والواقع ردّ قاطع على أُولئك الذين يرون دين الله سلسلة من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام ﷺ الجميع على ترك الذنوب والمعاصي والمحرمات، وهكذا والمحدودة والحركة باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكلة في حياتهم المادية ولا المعنوية.

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة لما ورد في القرآن الكريم: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾**[2].

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «**بَعَثَنِي بِالحَنَفِيةِ السَّمحَةِ**»[3].

كما صرّح القرآن الكريم قائلاً: **﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ...﴾**[4].

ولما كان السعي من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمّة للغفلة والكسل عن الإتيان بالفرائض الالهيّة والخوض في تهذيب النفس وتزكيتها، فانّ الإمام ﷺ أشار إلى مسألة دقيقة، وهى ضرورة علمهم بأنّ الله قد ضمن أرزاقهم وأمرهم بالقيام

---

١. الواقع أنّ العبارة «إنّ الذي أمرتم به..» إشارة إلى الأحكام التكليفية الخمسة، والعبارة «ما أحل لكم...» ناظرة إلى الأحكام الوضعية، وعليه فلا داعي لأنّ نعتبر العبارتين مترادفتين للتأكيد كما ذهب إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة.

٢. سورة الحج / ٧٨.

٣. بحار الانوار ٢٢/٢٦٤.

٤. سورة النحل / ١١٤ـ١١٥.

بالواجبات، وعليه فلا ينبغي لهم منح الأولوية لما ضمن والغفلة عمّا يجب عليهم الإتيان بـه فقال: «**قَدْ تَكَفَّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ**»[1].

وبعبارة أخرى فانّ لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثاني القيام بالفرائض الإلهيّة، وقد تكفّل الله تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤولية الأمر الثاني، ومن هنا لابدّ أن نبذل ما في وسعنا بالأمر الثاني، والحال القضية على العكس في أنّ أغلب الناس يركزون جهودهم ويبذلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض الملقاة على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «**مَعَ أَنَّهُ وَاللهِ لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخِلَ**[2] **الْيَقِينُ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ**».

ويبدو أنّ هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال: «**أَيُّها النّاسُ اعلَمُوا أَنَّ كَمالَ الدِّينِ طَلَبُ العِلمِ وَالعَمَلُ بِهِ، ألا وَإِنَّ طَلَبَ العِلمِ أَوجَبُ عَلَيكُم مِنْ طَلَبَ المالِ إِنَّ المالَ مَقسُومٌ مَضمُونٌ لَكُم قَدْ قَسَّمَهُ عادِلٌ بَينَكُم وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُم وَالعِلمُ مَخْزُونٌ عِندَ أَهلِهِ وَقَدْ أُمِرتُم بِطَلَبِهِ مِنْ أَهلِهِ فَاطْلُبُوهُ**»[3].

لا شك أنّ المقصود بالعبارات المذكورة ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصادية الإيجابية ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياة المشرفة، بل الهدف هو الحدّ من الحرص

---

١. يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ «طلبه» في العبارة المذكورة ليست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو «الرزق» التي وردت في العبارات السابقة، وإلّا أدنى تأمل يكشف أنّ هذا المطلب ينقض نسق العبارتين المذكورتين (المضمون لكم... المفروض عليكم) والحال يقتضي الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من «طلب» و«عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخرى للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة «لا ينبغي أن تولون الأهميّة للشيء الذي ضمنه لكم الله وتغفلون عمّا وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فانّ الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب الله تعالى.

٢. «دخل»: يعني الفساد في مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسدة التي تتسلل داخل الإنسان فتؤثر على عقله.

٣. اصول الكافي ٣٠/١.

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذي يصد الإنسان عن العلم والمعرفة والأمور المعنوية.

ثم خلص الإمام ﷺ إلى هذه النتيجة: «**فَبَادِرُوا ٱلْعَمَلَ، وَخَافُوا بَغْتَةَ**[1] **ٱلْأَجَلِ، فَإِنَّهُ لاَ يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ ٱلْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ ٱلرِّزْقِ. مَا فَاتَ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ ٱلْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ ٱلْيَوْمَ رَجْعَتُهُ**»، نعم، «**الرَّجاءُ مَعَ الجَائِي وَاليأسُ مَعَ المَاضِي**».

حقاً إنّه منطق بليغ واضح في عدم إمكانية عودة ساعات العمر بأي شكل من الأشكال، في حين يمكن استعادة متع الدنيا وفي كل الظروف وتداركها، بناءاً على هذا فالذي يقوله العقل لابدّ من الحزم والحساسية تجاه الأمور التي يمكن عودتها، لا الأمور التي إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أنّ أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرّد فقدانهم لشيء من حطام الدنيا، بينما لا يأبهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشة والعجب، وهذا ما دفع بالإمام ﷺ للتأكيد على هذا المطلب وشبهه في هذه الخطبة وسائر الخطب.

ورد في الخبر أنّ شخصاً أتى إلى الإمام السجاد ﷺ وقد شكى إليه وضعه وكأنّه كان يعاني من قلّة الرزق فرد عليه الإمام ﷺ أنّ بني آدم ﷺ مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبة الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدنيار والدرهم بينما ليس للعمر من عودة قط، المصيبة الثانية: هو أنّ الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالاً كان فيه حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبة الثالثة وهي أعظمها جميعاً: «**مَا مِنْ يَومٍ يُمسِي إلاّ وَقَدْ دَنا مِنَ الآخرَةِ مَرحَلَةً لا يَدرِي عَلَى الجَنَّة أم عَلى النَّارِ**»[2].

وفي ختام الخطبة نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنية فقال: ﴿**فاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾.

---

١. «بغتة»: من مادة «بغت» على وزن وقت يعني الشيء الذي يحدث فجأة.
٢. بحار الانوار ١٦/٧٥.

والقول مستوحي من قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

تأمّلات

١ ـ غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنيوية المادية والبهرجة لهذا العالم تبدو خلّابة ساحرة من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غاية في الصغر والضحالة، بل تكون مقلقة ومرعبة أحياناً، مثلاً يرى الإنسان من بعيد حياة الملوك فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطة، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعادة والموفقية، ولكنّه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنّه فقد على الأقل ثلاثة أشياء من ركائز الحياة:

الأول: الأمن فهو يشعر في ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحذر من بطانته دائماً حتى في قصره وغرفة نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيهم.

الثاني: الحرية، على سبيل المثال لا يستطيع ممارسة حياته كالأفراد العاديين من قبيل الخروج في نزهة مع زوجته وأولاده أو الحضور بحرية في المجالس والحفلات التي يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحة البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهوريات الذين صرّحوا علنا بأنّهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيلة ليالي حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التي تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّا بعد أن تمت مدّة حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياة الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنّها مفعمة بالسعادة والرفاه، ولكن إن قدّر له أن يعيش ذلك الثراء فسيشعر أنّ بحاجة إلى جزء يسير من هذه

---

١. سورة آل عمران / ١٠٢.

الثروة في حياته بينما تثقل باقي الثروة كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروة وصيانتها من الأعمال الشاقة، والعداوة والبغض الحسد الذي يعانيه من الآخرين والذي يمثل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعة التي أوردها في هذه الخطبة في أنّ كل شيء في الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبة للآخرة فانّ كل شيء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعاقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخرة.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات المادية وثروات هذا العالم من أجل خدمة خلق الله تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم في إطار خطابه لقارون: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ...**﴾[1].

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد في الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمي وأنفق على عيالي وأعطي وأحج وأعتمر، فقال: «**ليسَ هذا طلَبُ الدُّنيا، هذا طلَبُ الآخرة**».[2]

***

٢ ـ الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياة في هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأم أعينهم مراحل انتقال الطفولة إلى الشباب ومنه إلى الكهولة ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعي في الصحف المسائية كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعزة الذين يثكل بهم الأقرباء والأهل، ولا سيّما في عصرنا الراهن الذي أصبح فيه الموت والحياة قريب جدّاً من الإنسان مقارنة الأزمنة الماضية ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجيء لطائرة فتتناثر أجساد ركابّها في الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الأُخرى التي تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفي مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل النقلية في المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

١. سورة القصص / ٧٧.
٢. وسائل الشيعة ١٢/ ١٩.

النظر عما سبق فانّ هذه الحياة القصيرة مليئة بأنواع المعاناة والألم والمشاق، ويكفي في ذلك أن نلقي نظرة عابرة على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التي يعاني منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات في ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزّيف، والاستقرار الذي يشبه ذلك الذي يشعر به الحيوان الذي يخفي جسده في الرمال مخافة الصيّاد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فانّ الإمام ﷺ يورد وصاياه في أغلب مواضع نهج البلاغة بهدف التنبيه إلى تلك الغفلة والنسيان المميت وايقاظ الضمير البشري الذي يغط في سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل،كما يتطرق إلى قصر المسافة بين الحياة والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة في عدم إمكانية عودة ما يتصرم من ساعات العمر، في حين يمكن تدارك كافة سائر النعم المادية، والحق لو تأمل كل إنسان مرّة واحدة في الاسبوع هذه الخطبة لما عانى من الغفلة قط.

٣ ـ كيف نبحث عن سعادة الآخرة في الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغية وفرة الإمكانات لخدمة الآخرين، أخيراً قد يريدها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامي وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافة أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهي أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأبشع الصفات الرذيلة، والثاني يتّجه نحو الأهداف

المباحة والاستفادة من النعم الإلهيّة، والثالث يمارس أرفع عبادة وأخيراً الرابع يسدي أعظم الخدمات الإنسانية والإسلامية، وكل ما ورد من ذمّ في هذه الخطبة وسائر الأخبار والروايات عن أئمة العصمة عليهم السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير في والواقع إلى الطائفة الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئة ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبة له سوى جهنّم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغي تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضي للمجتمع حالة الفقر والحرمان ويوصي بذلك، قد ورد هذا المضمون في الروايات الإسلامية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَلعُونٌ مَلعُونٌ مَن عَبدَ الدِّينار والدّرهم**»[1].

وقال المرحوم الشيخ الصدوق في تفسير هذا الحديث: «يعني به من يمنع زكاة ماله ويبخل بمواساة إخوانه، فيكون قد آثر عبادة الدينار والدرهم على عبادة خالقه»[2].

وجاء في الخبر أنّ علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفة خلال مدّة حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال: «**ما أصبحَ بِالكُوفَةِ أَحَدٌ إلّا ناعِماً، إنَّ أَدناهُم مَنزِلَةً لَيأكُلُ البُرَّ وَيَجلِسُ فِي الظِّلِّ وَيَشرَبُ مِن ماءِ الفُراتِ**»[3]

---

١. بحار الانوار ١٤٠/٧.
٢. المصدر السابق.
٣. المصدر السابق ٣٢٧/٤٠.

الخطبة[1] ١١٥

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام

في الاستسقاء

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في عنوان الخطبة فانّها دعاء في الاستسقاء، وقد أوردها الإمام في عصر حكومته حين أصاب الناس الجفاف، حيث أشار عليه السلام في البداية إلى الأسباب التي تدعو إلى حبس المطر وشياع الجفاف في أنّ أغلب الحوادث من هذا القبيل معلولة لمعاصي الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء بعبارات رصينة عميقة المعنى سائلاً الحق تبارك وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أنّ عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنويات والشد لله سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامين الواردة في هذ الخطبة من أجل الاستسقاء.

---

١. سند الخطبة:
رواها قبل السيد الرضي المرحوم الشيخ الصدوق في كتابه «من لا يحضره الفقيه» في آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضي في نهج البلاغة هو بعض ما اختاره من تلك الخطبة «من لا يحضره الفقيه ٢٣٥/٢» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسي في «التهذيب ج٢، ص ١٥١» وفي «المصباح المتهجد» في آداب صلاة الاستسقاء مع اختلاف وما ورد في نقل السيد الرضي في نهج البلاغة ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامّة الزمخشري في «ربيع الابرار» وابن الأثير في «النهاية» (مصادر نهج البلاغة ٢٥٦/٢).

القسم الاوّل

«اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الْآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجَوْدِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ، وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ. سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسير

الأمل بالله في القحط والجفاف

بيّن الإمام ﷺ في بداية هذه الخطبة الوضع المأساوي الذي أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعة بعيدة المعنى، حيث استهلها بستة جمل قائلاً: «اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ[1] جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ[2] أَرْضُنَا، وَهَامَتْ[3] دَوَابُّنَا. وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا[4]، وَعَجَّتْ[5] عَجِيجَ

١. «انصاحت»: من مادة «صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال الملازمة لبعضها البعض الآخر.
٢. «اغبرت»: من مادة «غبار» وهي هنا إشارة إلى الجدب الذي يؤدّي إلى جفاف الأرض.
٣. «هامت»: من مادة «هيم» على وزن حيف بمعنى الحيرة وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذي لا يدري أين يذهب من شدّة العطش.
٤. «مرابض»: جمع «مربض» موضع الماشية ومبرك الغنم.
٥. «عجت»: من مادة «عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

الثَّكَالَى[١] **عَلَى أَوْلادِهَا، وَمَلَّتِ ٱلتَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَٱلْحَنِينَ إِلَى مَوَارِدِهَا!».**

فقد رسم الإمام ﷺ صورة واضحة بعبارات فصيحة عن الجفاف الشديد الذي أصاب الناس في ذلك الزمان، وكشف النقاب عن وضع الجبال والأراضي والمراتع والدواب، ثم رفع يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله: «**اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ ٱلْآنَّةِ**[٢]**، وَحَنِينَ ٱلْحَانَّةِ!**[٣]».

كما شكى شدّة عطش الدواب وجوعها وصراخها في أماكنها: «**اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا!**[٤]».

وأردف قائلاً: «**اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ ٱعْتَكَرَتْ**[٥] **عَلَيْنَا حَدَابِيرُ ٱلسِّنِينَ**[٦]**، وَأَخْلَفَتْنَا**[٧] **مَخَايِلُ**[٨] **ٱلْجَوْدِ**[٩]».

إنّ دقّة العبارات التي استخدمها الإمام ﷺ في هذا الدعاء تشير إلى مدى حرقة الإمام ﷺ والناس من جانب، ومن جانب آخر تستبطن تصويراً عميقاً لتلك الحادثة. فحدابير جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذي تبين عظام سنامه وقد حز لحمه بصورة تامة إثر شدّة الضعف (بسبب الجوع أو كثرة المشي).

فقد شبّه الإمام ﷺ الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبيعي أن يدعو منظره إلى الأسى والحزن، كما أنّ ركوبه يبدو متعذراً شاقاً.

أمّا العبارة التي تضمنت «آنّة» و«حانّة» التي تستخدم كله منها بشأ تألم الحيوان حيث تشير الأولى إلى الشاة والثانية إلى الجمل، فانّما تشير إلى حالة الألم التي كانت تعيشها جميع

---

١. «ثكالى»: جمع «ثكلى» المرأة التي مات إبنها.
٢. «آنة»:من مادة «أنين» وعادة ما تطلق على الشاة التي تتألم.
٣. «حانة»: من مادة «حنين» التي تطلق على الجمل حين يتألم.
٤. «موالج»: جمع «مولج» مدخل الشيء.
٥. «اعتكرت»: من مادة «عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.
٦. «سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عادة في العبارات كالعبارة المذكورة بمعنى القحط والجفاف (ورد معنيان لسنين في قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنة والآخر بمعنى الجفاف والقحط).
٧. «أخلفتنا»: من مادة «خلاف» بمعنى المخالفة.
٨. «مخايل»: جمع «مخيلة» على وزن قبيلة بمعنى الغيوم التي يأمل الإنسان بنزول المطر منها لكنّها ليست بماطرة.
٩. «جود»: لفتح الجيم جمع «جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبة.

الحيوانات في ذلك الق الشديد، وبالالتفات إلى أنّ القسم الأعظم من أراضي العراق تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات المروفان بوفرة المياههما مقارنة بأنهار المنطقة يتبيّن أنّ القحط تلك السنوات على درجة من الشدّة بحيث ضيّق على أهل العراق حتى في تلبية الحاجات الأولية للحيوانات (تشير القرائن إلى أنّ الإمام ﷺ ألق هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حين كان في الكوفة).

ثم ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى في أنّك الأمل والرجاء لكل بائس وحلّال مشاكل كل طالب حاجة وقد سيطر اليأس على الناس وقد منعت السماء بركاتها والغيوم مياهها وأشرفت الحيوانات على الهلكة فنسألك ألّا تؤاخذنا بسيئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا: «**فَكُنْتَ ٱلرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ**[1]**، وَٱلْبَلاَغَ**[2] **لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ ٱلْأَنَامُ، وَمُنِعَ ٱلْغَمَامُ، وَهَلَكَ ٱلسَّوَامُ**[3]**، أَنْ لاَ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا**».

تفيد هذه العبارة أنّ أغلب الآفات والبلاء والشدّة معلولة لذنوب الناس، ولا تزال مشاكلهم قائمة مستعصية ما لم يتوبوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفرة، والعبارة تشبه الشكوى التي بثها نبي الله نوح ﷺ إلى ربّه بشأن قومه: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً**﴾[4]

كما ورد في سورة الأعراف قوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[5].

ثم طرح الإمام طلبته الأصلية على الحق تبارك وتعالى قائلاً: «**وَٱنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ**

---

١. «مبتئس»: من مادة «بؤس» على وزن قرص الفقر وشدة الحاجة.
٢. «البلاغ»: بمعنى الكفاية وحل المشكلة.
٣. «سوام»: وسائمة الحيوان الذي يرعى في الصحراء.
٤. سورة نوح / ١٠ ـ ١١.
٥. سورة الأعراف / ٩٦.

بِالسَّحابِ اَلْمُنْبَعِقِ[١]، وَاَلرَّبِيعِ اَلْمُغْدِقِ[٢]، وَالنَّبَاتِ اَلْمُونِقِ[٣]. سَحًّا[٤] وَابِلاً[٥]، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

فما ورد في عبارات الإمام ﷺ إنعكاس تام لما عاناه الناس من قحط شديد ومصائب عضال من جهة، ومن جهة أخرى تضمنت طلباً للغيوم الملبدة بالأمطار، وكذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طرية جميلة وأخيراً تتجه صوب نتيجة نهائية هي الأمطار التي تحيي الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنة سنة عامرة بالبركة فحسب، بل سنة تتلافى سنوات الجفاف السابقة.

٨٠٠٣

١. «منبعق»: من مادة «انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقة وتجري منها الأمطار فقد استخدمت هذه المفردة بشأن نزول المطر.

٢. «مغدق»: من مادة «غدق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمة بالخير والبركة.

٣. «مونق»: من مادة «أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشيء.

٤. «سحّ»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصورة مستمرة.

٥. «وابل»: المطر الشديد الضخم القطر.

القسم الثاني

«اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً، طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً. زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا ٱلْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ! اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكَاتِكَ ٱلْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ ٱلْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ ٱلْمُرْمِلَةِ، وَوَحْشِكَ ٱلْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ ٱلْوَدْقُ مِنْهَا ٱلْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ ٱلْقَطْرُ مِنْهَا ٱلْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلاَجَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلاَ قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا ٱلْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا ٱلْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ».

الشرح والتفسير

اللهم أمطرنا بوابل رحمتك

طرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة طلبه وصحبه الرئيسي والذي يتمثل بنزول المطر المبارك فسأل الله سبحانه وتعالى مطراً ذات عشرين صفة تشير كل واحدة منها إلى قضية رائعة، وما أورع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهى الأوصاف التي تجعل الإنسان يتواضع ويشعر بالخضوع أمام عظمة الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التي تختزنها هذه القطرات من المطر: «**اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ مُحْيِيَةً مُرْوِيَةً، تَامَّةً عَامَّةً،**

طَيِّبَةً مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً مَرِيعَةً[١]**. زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً**[٢] **فَرْعُهَا، نَاضِراً**[٣] **وَرَقُهَا، تُنْعِشُ**[٤] **بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا ٱلْمَيِّتَ مِنْ بِلادِكَ**».

الواقع هو أنّ الإمام ﷺ سأل الله تعالى مطرا تتوفر فيه الشرائط وبعيداً عن كل الموانع، فقد لوحظ في أغلب الأحيان نزول الأمطار على شكل سيول، لكنّها تحطم كل شيء تأتي عليه، أو إنّها تتركز في نقطة معينة ليست لها منفعة عامة، أو أنّها مصحوبة ببرد شديد قارس لا تخفى آثاره السلبية، أو يكون مصحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحارة والعواصف الشديدة والآفات التي تصيب النباتات كالجراد والحشرات المؤذية وأمثال ذلك التي تقضي على أثار الأمطار، فالإمام ﷺ يأخذ جميع هذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل الله تعالى اجتماع كافة الشرائط ودفع جميع الموانع.

ﭬﭫ

ثم واصل الإمام ﷺ الدعاء بذكر سبعة أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفة فقال: «**اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنا**[٥]**، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا**[٦] **وَيُخْصِبُ**[٧] **بِهَا جَنَابُنَا**[٨]**، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينا، وَتَنْدَى**[٩] **بِهَا أَقَاصِينَا**[١٠]**، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا**[١١]**. مِنْ بَرَكاتِكَ ٱلْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ ٱلْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ ٱلْمُرْمِلَةِ**[١٢]**، وَوَحْشِكَ ٱلْمُهْمَلَةِ**».

---

١. «مريع»: من مادة «مرع» على وزن فرح كثيف النبات.
٢. «ثامر»: بمعنى ذو ثمر.
٣. «ناضر»: بمعنى ذو نضرة.
٤. «تنعش»: من مادة «نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة والإقامة.
٥. «نجاد»: من مادة «نجود» على وزن سجود ما ارتفع من الأرض حيث تصطلح العرب بالنجد على الأرض المرتفعة.
٦. «وهاد»: جمع «وهدة» على وزن غفلة ما انخفض من الأرض.
٧. «يخصب»: من مادة «خصب» على وزن فكر كثير النبات.
٨. «جناب»: ناحية الدار أو المدينة.
٩. «تندي»: من مادة «نداوة» الرطوبة وهي هنا كناية عن الجود والسخاء.
١٠. «أقاصي»: جمع «أقصى» النقطة البعيدة.
١١. «ضواحي»: جمع «ضاحية» المنطقة الخارجة عن المدينة.
١٢. «مرملة»: من مادة «إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزاد.

فقد كشف الإمام ﷺ النقاب بهذا الدعاء عن سعة صدره وعمق نظره وعمومية شفقته ورحمته، ذلك لأنّه أخذ بنظر الاعتبار المناطق القاصية والدانية ولم يهمل الدواب حتى حيوانات الصحراء الوحشية، فدعاءه يشمل الجميع وسؤاله يهدف حاجة الجميع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمين ورحمته العامّة.

ﮪﮫ

وأضاف الإمام ﷺ في معرض مواصلة لطلب الماء ونزول المطر الذي يفيض بالخير والبركة قائلاً: «**وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً**[١]**، مِدْرَاراً هَاطِلَةً**[٢]**، يُدَافِعُ ٱلْوَدْقُ مِنْهَا ٱلْوَدْقَ**[٣]**، وَيَحْفِزُ**[٤] **ٱلْقَطْرُ مِنْهَا ٱلْقَطْرَ**».

كما واصل ﷺ وصف الأمطار: «**غَيْرَ خُلَّبٍ**[٥] **بَرْقُهَا، وَلاَ جَهَامٍ**[٦] **عَارِضُهَا، وَلاَ قَزَعٍ**[٧] **رَبَابُهَا**[٨]**، وَلاَ شَفَّانٍ**[٩] **ذِهَابُهَا**[١٠]».

ثم واصل الإمام ﷺ الدعاء قائلاً: «**حَتَّى يُخْصِبَ لإِمْرَاعِهَا**[١١] **ٱلْمُجْدِبُونَ**[١٢]**، وَيَحْيَا**

---

١. «مخضلة»: من مادة «خضل» على وزن عمل البلل والرطوبة وتستخدم كناية للسنوات المليئة بالأمطار ونزول البركة.

٢. «هاطلة»: من مادة «هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمة.

٣. «الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيرة التي تتعلق كغبار في الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا أنسب.

٤. «يحفز»: من مادة «حفز» على وزن نبض الدفع بشدّة.

٥. «خلّب»: بمعنى خارع من مادة «الخلابة» وهي هنا إشارة إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخالية من المطر.

٦. «جهام»: بالفتح السحاب الذي لا مطر فيه.

٧. «قزع»: القطع الصغيرة المتفرقة من السحب.

٨. «رباب»: السحاب الأبيض (الذي لا مطر فيه).

٩. «شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبة (لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظرة باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديدة لأنّها تسبب انزعاج الطرف المقابل.

١٠. «ذهاب»: جمع «ذهبة» بالكسر الأمطار القليلة.

١١. «امراع»: بمعنى كثير البركة.

١٢. «مجدب»: من مادة الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن أصيب بالجفاف والقحط.

بِبَرَكَتِهَا ٱلْمُسْنِتُونَ[١]، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ[٢]».

فقد بيّن الإمام في هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفيدة النافعة ذات الخير والبركة، حيث يبلغ عدد الصفات مع ذكر سابقاً ٢٩ صفة، حقّاً إنّه لمن دواعي العجب والدهشة أن يستسقي الإمام ﷺ ويوصف المطر بتسع وعشرين صفة بينما يصف ذلك الطالبون عادة بصفة، أو صفتين فيبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن أسقنا الغيث المبارك، ومن هنا لا يشعر الإنسان سوى بالحيرة والذهول حين يتأمل عبارات أمير المؤمنين علي ﷺ، لقد استفرغ الإمام أقصى فصاحته وبلاغته في هذه الخطبة وشرح طلبه إلى الله تعالى بما يعرّف الناس بلطف الله تعالى وفضله ورحمته ويفهمهم أنّ مسار النعمة مليىء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعاية الله ورحمته، والحق يتعذر مثل هذا المنطق على من لم يكن مؤيداً من عند الله ويؤيد بروح القدس.

تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب

نقرأ في ختام هذه الخطبة:

«قَالَ السَّيدُ الشَّرِيفُ رِضيَ اللهُ عَنْهُ قَولِهِ: (انصَاحَتْ جِبالنَا) أي تَشَقَّقَتْ مَنَ المحولِ يُقَالُ: انصاحَ الثَّوبُ إِذا انْشَقَّ وَيُقَالُ أَيضاً: انصَاحَ النَّبتُ وَصَاحَ وَصَوّحَ إذا جَفَّ وَيَبِسَ كُلُّهُ وَقَولُهُ (وَزهَامَتْ دَوَابّنا) أي عَطِشَتْ وَالهُيَامُ: العَطَشُ، وَقَولُهُ (حَدَابِيرُ السّنِينَ) جمع حِدبار، وهيَ النّاقَةُ الّتِي أنضاهَا السّيرُ، فَشَبَّهُ بِهَا السنّة الّتي فَشا فِيها الجَدبُ، قَالَ ذو الرّمّةِ:

حَدابيرُ مَا تَنْفَكُّ إلّا مُناخَةً عَلَى الخَسفِ أو نَرمِي بِهَا بَلَداً قَفْراً

---

١. «المسنت»: هو المقحط.

٢. إقتباس من الآية الشريفة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (سورة الشورى / ٤٨).

وَقَولُهُ: (وِلاَ فَزَعٍ رَبابَها) القَزَع: القَطعُ الصّغارُ المُتَفَرّقَة مِنَ السّحاب.
وَقَولُهُ: (وَلاَ شَفَّانٍ ذِهَابُها) فانٌ تَقديرَهِ: ولاَ ذَاتَ شَفّانٍ ذَهابُها، والشَفّان: الرّيحُ البارِدَةُ، والذِّهابُ: الأَمطارُ اللّيّنة، فَحَذَفَ (ذاتَ) لِعلمِ السامِعِ بِهِ».

ﻜﻮﻜ

تأمّلان

١ ـ صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحدة من التعاليم الإسلامية القيمة والتي ذكرها عامّة فقهاء المسلمين من الفريقين في كتبهم الفقهية، ومن جملة الآداب التي أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاة أن يصوم الناس ثلاثة أيّام ويتجهون في اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينة، ويأتون بركعتين على غرار ركعتي عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعة الأولى على خمس قنوتات والثانية على أربع قنوتات، ولكن يقنتون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمة والمغفرة بدلاً من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبي وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاة قلّب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبلة وكبر بأعلى صوته مئة مرّة (ويكبر الناس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتّجه يميناً ويسبّح الله سبحانه بصوت عال مئة مرّة ثم يلتفت شمالاً ويهلل بصوت عال مئة مرّة، ثم يستقبل الناس ويحمد الله مئة مرّة ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى الله سبحانه وتعالى يسأله الرحمة ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ و النساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعة العطشى وأن يفرّق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتّجهون إلى الله في الدعاء[1].

فانّ تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى الله واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

---

١. ذكرت آداب صلاة الاستسقاء في أغلب المصادر الفقهية وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ١٢٧/١٢ وتحرير الوسيلة للإمام الخميني، ج ١ و ج ٥، ص ١٦٢ من وسائل الشيعة.

بالدعاء جمعة سائلين الله سبحانه العفو الرحمة.

حقّاً إنّها لمراسم ذات آثار عجيبة أدناها حالة التضرع والخشوع التي يعيشها الداعي إلى الله تعالى، فهي تربط الفرد بالذات الإلهيّة المقدّسة لله سبحانه الرحمن الرحيم وتؤدّي إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فانّ لهذه الصلاة أثارها الكبيرة في تربية النفوس والتوبة من الذنوب والعودة إلى الطهر والعفاف، والذي يستتبع أحياناً نزول المطر الذي يعود على الجميع بالخير والبركة ويستفاد من الروايات أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجدب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها[1].

وتفيد القرائن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حيث جاء في بعض الروايات التي نقلت هذه الخطبة بصورة تامة العبارة: «**اللّهُمّ إنّا خَرجنا إلَيك**» التي تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاة الاستسقاء، وورد في بعض الروايات أنّ علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبة وقد سأل الله سبحانه وتعالى بعبارات تفيض لوعة وحرقة.

وسيأتي تفاصيل ذلك حين شرحنا للخطبة ١٤٣ من نهج البلاغة الواردة بشأن صلاة الاستسقاء.

❊❊❊

٢ ـ الذنب وزوال البركة

وردت عدّة أبحاث في الكتب الفلسفية والكلامية والتفسيرية بشأن فلسفة الآفات والبلاء، فالذي يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد البلاء على الأُمم حين ظهور الأنبياء بغية إيقاظهم، حيث صرّح القرآن الكريم قائلاً: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**﴾[2].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٧٢/٧؛ بحار الانوار ٣٢٩/٨٨.

٢. سورة الاعراف / ٩٤.

فالآية تشير إلى أنّ هذا القانون عام ودائمي يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوة الأنبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمة من جانب الله طيلة تاريخ الأُمم وحين بروز الغفلة وذلك بهدف القضاء على تلك الغفلة وايقاظ تلك الأُمم. وربّما تكون هذه الحوادث الأليمة والمفجعة نتيجة لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابة والعودة إلى الله، فقد جاء في الآية القرآنية: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[1].

وهكذا يتضح أنّ أحد طرق التربية الإلهيّة هو هذه الحوادث الأليمة الطبيعية أو الاجتماعية، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام ﷺ إلى ذلك في الخطبة المذكورة، حيث قال في هذه الخطبة: «**نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لاَ تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلاَ تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا**».

وقد ورد هذا المطلب بصورة أوضح في الخطبة ١٤٣، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالنزوع عن المعاصي والاحتراز من الذنوب والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، واستشهد ﷺ بآيات من سورة نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء الله في محلّه.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: «**إذا فَشَتْ أَربَعَةٌ ظَهَرَتْ أَبَعَةٌ فَشَتْ لزِّنا ظَهَرَتْ الزَّلازِلُ وَإِذا أَمسَكَتْ الزَّكاةُ هَلَكَتْ الماشِيَةُ وإذا جَارِ الحُكَّامُ فِي القَضاءِ أَمسَكَ القَطرُ مِنَ السَّماءِ وإذا خَفَرتْ الذِّمَّةُ نَصرَ المُشرِكُونَ عَلَى المُسلِمِينَ**»[2].

وورد في الحديث المعتبر والمعروف عن أبي ولّاد أنّ الإمام الصادق ﷺ لما سمع الفتاوى غير الصحيحة لأبي حنيفة في بعض المسائل الفقهية قال: «**فِي مِثلِ هذا القَضاءِ وَشِبهِهِ تَحبِسُ السَّماءُ ماءَها وَتَمنَعُ الأَرضُ بَركاتَها**»[3].

۞

١. سورة الروم / ٤١.
٢. بحار الانوار ٢١/٧٦، ح ١٣.
٣. وسائل الشيعة ٢٥٦/١٣.

الخطبة ١١٦ [١]

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ ﷺ

وفيها ينصح أصحابه

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذ الخطبة في الواقع من عدّة أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبي الأكرم ﷺ وجهاده العظيم في إبلاغ الرسالة ودعوة الناس إلى الإسلام.

القسم الثاني: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحة، المواعظ المؤثرة والبالغة.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء الله في مفارقتهم وإلحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذي يختص بالإخبار عن فتنة طاغ واستعراض جانب من جناياته وجرائمه أملاً في ايقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبة إلى اللّه سبحانه والعودة إلى وحدة ونبذ الخلافات والفرقة.

---

١. سند الخطبة:
تتضمن الخطبة إشارة إلى موضوع خلافة الحجاج للكرفة وما إرتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدّثين هذا الجانب من الخطبة ومنهم ابن عبد ربه في العقد الفريد، والمسعودي في مروج الذهب، والأزهري في تهذيب اللغة، وابن الفقيه في كتاب البلدان، وابن أثير في النهاية، والديلمي في الإرشاد (مصادر نهج البلاغة ٢٥٩/٢).

القسم الأوّل

«أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ. فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلاَ مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي ٱللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلاَ مُعَذِّرٍ. إِمَامُ مَنِ ٱتَّقَى. وَبَصَرُ مَنِ ٱهْتَدَى».

الشرح والتفسير

عدم التواني في الجهاد

كما صرّح البعض من شرّاح نهج البلاغة يبدو أنّ هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاة الشام وبين الأخطار التي تتهددهم في حالة الضعف وترك الجهاد ومقاتلة العدو فأتم الحجّة عليهم.

في القسم الأول من هذه الخطبة أشار إلى الجهود الجبارة التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الوحي ونشر الرسالة من أجل ترقيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميّة هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا في الدفاع عنه والتصدي لهجمات خصوم الدعوة، فقال عليه السلام: «**أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى ٱلْحَقِّ وَشَاهِداً عَلَى ٱلْخَلْقِ**».

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرسالة الإسلامية التي نهض بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعية من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أمّا شهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد قيل المراد بها الشهادة على أعمال الناس أو الشهادة على الأنبياء في يوم القيامة حيث ورد في القرآن الكريم: **﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾**[1].

---

١. سورة النساء / ٤١.

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ المراد بالشهادة إطلاع النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهيّة في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فانّ وظيفة النبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر على إبلاغ الدعوة إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوة وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية. ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين في أنّه شاهد على الأعمال في هذا العالم وكذلك شاهد عليها في العالم الآخر.

ثم خاض في بيان أوصاف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ليذكر ست صفات آخر فقال: ﴿**فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ**[1] **وَلاَ مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اَللّٰهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلاَ مُعَذِّرٍ**[2]. **إِمَامُ مَنِ اَتَّقَى، وَبَصَرُ مَنِ اهْتَدَى**».

فقد تضمنت هذه العبارة القصيرة جميع الخصائص التي ينبغي توفرها في القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهدة العدو وعدم الاعتذار والتذرع، ومن جانب آخر فانّه عدّ النبي صلى الله عليه وآله إمام المتقين ووسيلة هداية المبصرين، حيث يذود عنه الأفراد من المفسدين ويقصي المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهية بهدف التغطية على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتّجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكورة تشير في الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفة ووهنهم وتركهم للجهاد وتشبثهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات. فالإمام عليه السلام يذكرهم بأنّ نبيّكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

---

١. «وانٍ»: من مادة «ونى» على وزن وحي بمعنى الضعف والتثاقل، ويقال الواني لمن يتباطىء في الأعمال.
٢. «معذر»: من مادة «عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

القسم الثاني

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱلصُّعُدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا وَلاَ خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا. وَلَكِنَّكُمْ نَسِيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ ٱللّٰهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَٱللّٰهِ مَيَامِينُ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ ٱلْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى ٱلدَّائِمَةِ، وَٱلْكَرَامَةِ ٱلْبَارِدَةِ».

ﮓ

الشرح والتفسير

الآفات المظلمة من ورائكم

يحذر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة كافة الأفراد الذين يبدون الضعف في مجاهدة العدو الغادر والغاشم، ويتهربون من المسؤولية من خلال اللجوء إلى بعض الحجج والأعذار، في أنّ الآفاق المعتمة إنّما تكمن أمامكم، والمستقبل المظلم الذي يتسلط فيه العدو عليكم ويهيمن على مقدراتكم وسيصبون عليكم جام غضبهم بما يجعلكم تفقدون صوابكم وعقلكم: **«لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ[1] عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱلصُّعُدَاتِ[2] تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ[3] عَلَى أَنْفُسِكُمْ».**

---

١. «طوى»: من مادة «طي» بمعنى الكتمان والاخفاء وأُريد بها هنا الكتمان.

٢. «صعدات»: جمع «صعيد» بمعنى بقعة الأرض والتراب والمواضع المرتفعة من الأرض، وهي هنا إشارة إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرّح البعض بأنّ صعدات جمع صعد على وزن دهل وصعدات جمع الجموع.

٣. «تلتدمون»: من مادة «لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب والإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحة.

بل قد لا تكتفون بذلك: «**وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لاَ حَارِسَ لَهَا وَلاَ خَالِفَ[١] عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلَّ امْرِىءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا**».

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذي يبتلى بمصائب عظمية بحيث ينسى كل شيء سوى إنقاذ نفسه، فقد إتّجه صوب الصحراء ويتابع لطم وجهه ورأسه يسكب دموعه ويتعالى صراخه، كما يسعى إلى التخلي عن أموال رغم ماها من أهمّية لديه ومدى الجهود التي بذلها من أجل الحفاظ عليها، إلى جانب ذلك فهو لا يعير أهمّية لمن خلفه حتى أنّه لينسى أعزّته وبطانته.

ويرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات ترتبط بأهوال يوم القيامة والتي وردت في مختلف الآيات القرآنية، لكن بالنظر إلى ذيل الخطبة الذي يتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبة الذي يفيد ضعف أهل الكوفة في جهاد العدو، فانّ المعنى المذكور يبدو بعيداً، والظاهر أنّها ناظرة إلى سلطة بني أُمية والجرائم المروعة التي إرتكبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى المصدر الرئيسي الذي انبثقت منه هذه الحوادث: «**وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ[٢] عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ**».

لا ينبغي لكم أن تتصوروا أبداً بأنّ الحوادث الأليمة التي تنتظركم إنّما تأتيكم بغتة،كلا ليس الأمر كذلك، فقد حذرتكم مراراً، وأدّيت لكم حق الوعظ والنصح، وكشفت لكم المستور، ثم أنذرتكم، لكن للأسف لم تعيروا وعظي ونصحي آذانا صاغية، فقد نسيتم كل ما ذكرته لكم وتجاهلتم كل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ينبغي عليكم في موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمة للوقوف بوجه الأعداء فلم تكن نتيجة ذلك الذي لا مثيل له في التاريخ.

ثم قال الإمام عليه السلام: «**وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ**».

إشارة إلى أنّه طالما تعذر إصلاحكم فيا ليتني فارقتكم، وليت القدر الالهي أذن بالتحاقي

---

١. «خالف»: من مادة «خلوف» من يخلف في الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردت بمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّا أنّ المراد هنا هو المعنى الأول.

٢. «تاه»: من مادة «تيه» الحيرة والقلق.

بمن ينسجم معي في الأفكار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام في شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته: «**قَوْمٌ وَٱللّٰهِ مَيَامِينُ**[١] **الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ**[٢] **ٱلْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ**[٣] **لِلْبَغْيِ، مَضَوْا قُدُماً**[٤] **عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَفُوا عَلَى ٱلْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى ٱلدَّائِمَةِ، وَٱلْكَرَامَةِ ٱلْبَارِدَةِ**».

فهذه العبارات إشارة واضحة إلى النبي صلى الله عليه وآله وطائفة من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكورة الست، صفتان في برامج الحياة (نصرة الحق ومصارعة الظلم) وصفتان في العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعة من أجل بلوغ الهدف) وصفتان في الفكر (التحلي بالفكر الناضج والعقل التام)، فبيّن أيضاً نتيجة هذه الصفات والتي تتمثل بالسعادة المطلقة والحياة الحرّة الكريمة.

❧☙

مظلومية أمير المؤمنين علي عليه السلام

لا تقتصر المظلومية على أن يقتل الإنسان من قبل فئة ظالمة جبارة ناقضة للعهود وغادرة في معركة ليست متكافئة فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلومية أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والآمر المقتدر والخبير الماهر والسياسي اليقظ والواعي نفسه وسط طائفة لا تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهي تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرها وأنذرها، فهي فرقة مشتتة وجاهلة وضعيفة وهنة مسلوبة الإرادة، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدّي إلى ضياع القيم وتناسي الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهّال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم القدرة على إدارة الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلومية والذي عاشه أمير المؤمنين عليه السلام في عصره، وقد أشار إلى ذلك

---

١. «ميامين»: جمع «ميمون» بمعنى مبارك.

٢. «مراجيح»: جمع «مرجاح» على وزن مثقال ذو حلم.

٣. «متاريك»: جمع «متراك» على وزن مسواك من يترك الشيء تماماً.

٤. «قدم»: من «مادة» قدوم بمعنى السبق، وهي هنا إمّا ظرف بمعنى في مسار السبق وإمّا معنى جمعي بمعنى السابقون.

الإمام نفسه ﷺ في أكثر من خطبة من خطب نهج البلاغة، فتارة يقول ﷺ: «**لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلاً مِنْهُمْ**»[١].

وأخرى يقول: «**مَلَكَتْنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسولَ اللهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوَدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبْدَلَنِي اللهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدَلَهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي**»[٢].

ويقول في الثالثة: «**يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ**»[٣].

والحق لعلنا لا نعثر طيلة التاريخ على زعيم وولي من أولياء الله قد واجه في مدّة قصيرة من حكومته بكل هذه العداوة والبغضاء والقسوة والجلادة والعنف والطغوى، وهذا أبشع أنواع المظلومية، ومن هنا قيل: «علي ﷺ أول مظلوم في العالم».

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.
٢. المصدر السابق، الخطبة ٧٠.
٣. المصدر السابق، الخطبة ٢٧.

القسم الثالث

«أَمَا وَٱللّٰهِ لَيُسَلِّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ ٱلذَّيَّالُ ٱلْمَيَّالُ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ!».

ℵ

الشرح والتفسير

الانتقام الإلهي

إختتم الإمام ﷺ الخطبة باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذي ينتظر أهل الكوفة فقال: «**أَمَا وَٱللّٰهِ لَيُسَلِّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ ٱلذَّيَّالُ**[1] **ٱلْمَيَّالُ**[2]. **يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ**».

ثم أردفها بالقول: «**إِيهٍ أَبا وَذَحَةَ!**[3]».

أجمع شرّاح نهج البلاغة على أنّ المراد بغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ينسب إلى قبيلة بني ثقيف والذي ولّي الكوفة على عهد عبدالملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبدالملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفة وإخماد الثورة ضد حكومة بني أُمية، وكما أخبر الإمام ﷺ في هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الأُمة وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله: «**يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ**».

---

١. «الذيال»: من ماده «ذيل» آخر كل شيء وتصطلح العرب بالذيال على الشخص الذي تخط ذيال ثوبه على الأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنانيه.

٢. «الميّال»: من مادة «ميل» الفرد الطائش.

٣. «وذحة»: كما سيرد في المتن بعرة الشاة أو بولها والذي يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلا أنّ ابن أبي الحديد صرّح بأنّ المعنى الثاني لم يرد في أي من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغة لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغة ذكروا هذا المعنى لمفردة الوذحة.

لابدّ من الالتفات إلى أنّ «**خضرة**» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضي الزارعية، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التي نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذي يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنّه لم يبق لهم سوى الجلد والعظم، وهذا هو مصير الأفراد الذين يتمردون على القائد الفذ والشفيق الرؤوف بالأمة العادل معها كعلي ﷺ. والمفردة «أيه» بالكسر والتنوين حسب تصريح أغلب أرباب اللغة تستخدم حين يراد تشجيع الشخص على مواصلة الكلام أو العمل وايها بتنوين الفتح تستعمل حين يراد دعوة شخص للسكوت أوالامتناع عن العمل. بالنظر إلى أنّ «ايه» وردت في نسخ نهج البلاغة بتنوين مكسور فالمفهوم ضاعف يا حجاج من ضغوطك على الأفراد الطلحاء وضعفاء الإيمان جاحدي الحق الطغاة الذين يتمردون على إمامهم العادل! وبعبارة أخرى فانّ هذه المفردة كناية في أنّ أولئك الأفراد يستحقون ما يحل بهم من عذاب إلهي، لا يعني ذلك رضى الإمام ﷺ بأي مقدار من ظلم الحجاج.

فالكلام أشبه بما نقوله لشخص إنّ هذا الدواء وإن كان مرّاً لكنه العلاج الذي يشفيك فلا يصغي لما يقال له، فان اشتدّ ألمه وتعالى صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أكثر! فهذه نتيجة عملك، فمن البديهي أنّ مفهوم ذلك ليس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أنّ تلك هي النتيجة الطبيعية لعدم إمتثاله لأوامر الأطباء والحكماء، وهذا الكلام شبيه ما أورده الإمام ﷺ في الخطبة ٢٨ حيث قال: «**أَلاَ وَإِنَّهُ مَن لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لاَ يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلاَلُ إِلَى الرَّدَى**».

وأمّا وذحة فقد صرحت أغلب المصادر اللغوية من قبيل (لسان العرب، مجمع البحرين، أقرب الموارد)، أنّها تعني الخنفساء، وقال البعض كصاحب القاموس والخليل بن أحمد في كتاب «العين» أنّها تعني بعرة الحيوان بوله الذي يلتصف بصوفه.

وأمّا بشأن انتخاب كنية «أبا وذحة» للحجاج فقد وردت فيها عدّة أراء ذكرتها التواريخ وشروح نهج البلاغة، أنسبها أنّ الحجاج رأى يوماً خنفساء قرب موضع صلاته فدفعها عنه، فأتته ثانية فدفعها، فلما أتته ثالثة أمسكها بيده وعصرها فعضته فورمت يده فأدى به الورم إلى الموت، وكأنّ الله تعالى أراد أن يرى هذا السفّاح مدى قدرته حيث قضى عليه وبواسطة

أحقر مخلوقاته، على غرار النمرود ذلك الطاغية المعروف والذي ولجت أنفه بعوضة قضت عليه.

وقال البعض أنّ الحجاج كان يتنفر من الخنفساء فلم تكد تقع عينيه عليها حتى يأمر غلمانه بدفعها، ومن هنا إصطلحت عليه الناس أبا وذحة، ولا يبدو مناسباً أن نذكر هنا سائر ما ورد في هذا الشأن وخلاصته أنّ الحجاج كان يشكو من مرض جنسي، فكان يعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرّح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه الروايات أنّ الإمام ﷺ إختار هذه الكنية للحجاج لأنّ عادة العرب جرت على ذكر الفرد بكنيته حين الاحترام وذلك للعظمة، وإن أرادوا تحقيره ذكروه بالكنية أيضاً من قبيل كنية عبدالملك بن مروان بأبي الذبّان، حيث كان الذباب يتجمع على فمه لخبث رائحته (أو كان حتى الذباب ينفر منه كما صرّح بذلك البعض)، وكذلك كنية يزيد بن معاوية بأبي زنة[1].

٭٭٭

قال الشريف الرضي آخر هذه الخطبة: «الوذحة الخنفساء» وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضع ذكره.

٭٭٭

من هو الحجاج؟

الحجاج من أبشع الطغاة الذين عرفهم التاريخ البشري، وقد ألفت مختلف القصص التي تعني بجرائمه وجناياته والتي يصعق لها كل من طيلع عليها، كان والي عبدالملك بن مروان على الكوفة، وعبدالملك خامس الخلفاء بني أُمية، وقيل في صفة الحجاج أنّه كان دميم الخلقة كريه المنظر قصير القامة ضعيف أعوج الرجلين أبرص ولعل سفكه للدماء وولعه بها ناشيء من تلك العقدة والشعور بالحقارة، وقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودي في «مروج الذهب»: «بأنّه كان يعترف بأنّ أعظم لذته في سفك الدماء والإتيان بالأفعال التي لا يقوم بها الآخرون»[2].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٧٩/٧.

٢. مروج الذهب ١٢٥/٣.

تولى إمارة الحجاز «مكة والمدينة» من قبل عبدالملك بن مروان لسنتين فارتكب أبشع الفضائع ومنها قصفه الكعبة بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفة من صحابة النبي الأكرم ﷺ المعروفين مثل جابر بن عبدالله الإنصاري، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدي على أنّهم اشتركوا في قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصرة والكوفة، حكم الحجاج مدّة عشرين سنة وبلغ من قتلهم الحجاج مئة الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه في الحروب، كان في سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأة ستة عشر ألف منهم عراة، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدّة الحرارة في الصيف والبرودة في الشتاء.

وقال ابن الجوري: أنّ حرس السجن كانوا يرمون السجين بالحجر إن لاذ بالجدار من شدّة حرارة الشمس، وكان طعامهم قليلاً من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه اُمه حين تأتي لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل في الحجاج ما ذكره الشعبي حين قال: «لو أخرجت كل اُمة خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم».

وكان موته ذا عبرة أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدّة من الألم حيث كانت تسيطر عليه برودة شديدة فيضعون قربه ظروفاً مملوءة بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفي في الرابعة والخمسين من عمره عام ٩٥هـ فإلى جهنّم وبئس المصير.[١]

---

١. مروج الذهب ١٦٦/٣٦؛ وتاريخ ابن الجوزي حسب نقل سفينة البحار، وسيرة الأئمة، ٢٤٤/؛ وشرح نهج البلاغة للمرحوم التستري ١٢/٦.

الخطبة[1] ١١٧

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ ﷺ

يُوبّخ البخلاء بالمال والنفس

نظرة إلى الخطبة

يبدوا أنّ هذه الخطبة القصيرة هى جزء من خطبة طويلة فصلها المرحوم السيد الرضي، ومن هنا لم يتضح سبب ورودها ولا أقسامها الأولى: والآخرة، مع ذلك فهى تشتمل على عبارات مؤثرة ومعبّرة رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر[2] أنّ الإمام ﷺ أورد هذه العبارات ضمن خطبة في نهاية معركة صفين فهى تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فانّ الإمام ﷺ عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحّون في بذل الأموال والأنفس في سبيل الله سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعظوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

---

١. سند الخطبة:
ورد في مصادر نهج البلاغة أنّ أي مصدر غير نهج البلاغة لم يتعرض لنقل هذه الخطبة، ويكتفي بالإشارة إلى كلام ابن أبي الحديد في آخر هذه الخطبة وقال: جاء في بعض الروايات «أصل اخوانكم» بدلاً من «أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالاً من هذا الكلام أنّ هناك مصدراً آخر لابن أبي الحديد في هذه الخطبة.

٢. تمام نهج البلاغة، ص٦٥٩.

«فَلاَ أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلاَ أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا. تَكْرُمُونَ بِاللّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اَللّهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ».

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام ﷺ هذه الخطبة بذمّ طائفة من أصحابه وهو يعتب غليهم ويوبخهم فقال: «فَلاَ أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلاَ أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا».

فالواقع هو أنّ الله تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلي لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانة استودعها الله سبحانه الناس مدّة من الزمان، وإلّا أنّكم أخلدتم إليها وإلتصقتم بها وكأنّكم أنتم المالك الأصلي والخالق لها، وهذا قة الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبة تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئة في جيش الإمام ﷺ لم تكن مستعدة للمخاطرة بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضرة لبذل ما في أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه قائلاً: «تَكْرُمُونَ[1] بِاللّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلا تُكْرِمُونَ اَللّهَ فِي عِبَادِهِ!».

حقاً إنّ هذا الإزدواج لشيء عجيب في أن يتوقع الإنسان أن يعزّه ويكرمه الناس على أنّه عبد من عباد الله، بينما لا يكرم أي من عبيد الله سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحي

---

١. ورد الفعل تكرمون بصيغة الفعل الثلاثي المجرد المعلوم الذي يعني الإكرام والاحترام، وهي هنا بمعنى انتظار الإكرام.

بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصرة المظلوم.

ثم يختتم الإمام ﷺ كلامه بتحذيرهم وضرورة الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجري عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتي قوم آخرين يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإتعاظ بانفصام عرى القرابة حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم: «**فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ**».

فهذا دليل آخر على أنّ كافة الأموال والأنفس ودائع وهي مخلوقة جميعاً لله، وأنّه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.

فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إننا حلقة صغيرة ضمن هذه السلسلة الطويلة الممتدة منذ بداية الخليقة حتى نهاية العالم، فمن الغفلة ألا نرى الحلقات السابقة واللاحقة، فلا نعرف موقعنا في هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالدة دائمة لنا.

وزبدة الكلام فانّ الإمام ﷺ كشف النقاب عن المكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.

الخطبة ١١٨[1]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

في الصالحين من أصحابه

نظرة إلى الخطبة

كما ذكر في سند هذه الخطبة فقد صرّح بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام بعد معركة الجمل، حيث كان أصحاب الإمام عليه السلام وحدة واحدة وصفوف متراصة مطيعة لأوامره وتوجيهاته فحققوا نصراً سريعاً باهراً بعد أن قضوا بكل شجاعة وبسالة على فلول العدو وأخمدوا نار الفتنة.

فقد أثنى الإمام عليه السلام عليهم بهذه العبارات البليغة القصيرة، ثم أوصاهم بمواصلة السير على هذا النهج، وأخيراً إختتم خطبته بإشارة عابرة إلى مقام ولايته

---

١. سند الخطبة:
نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، وابن قتيبة الدينوري في كتاب «الإمام والسياسية»، وابن أبي الحديد الذي قال في شرح هذه الخطبة، قال علي عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائني، والواقدي في كتبهما (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٦١).

«أَنْتُمُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَى ٱلْحَقِّ، وَٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْـجُنَنُ يَـوْمَ ٱلْـبَأْسِ، وَٱلْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ ٱلْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ ٱلْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ ٱلْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ ٱلرَّيْبِ. فَوَٱللّٰهِ إِنِّي لَأَوْلَى ٱلنَّاسِ بِالنَّاسِ!».

الشرح والتفسير

الأصحاب الأوفياء

شحنت أغلب خطب نهج البلاغة بالذم الشديد بالنسبة لطائفة من أصحاب الإمام ﷺ خاصة بعد معركة صفين على ما أبدوه من ضعف وفرقة وغدر في ميدان المعركة، لكن في هذه الخطبة التي وردت بعد معركة الجمل، فانّ الإمام ﷺ يعرض بالمدح والثناء البليغ على أصحابه الأوفياء، ويدل هذا بوضوح على أنّ الإمام ﷺ كان على الدوام يحث المحسنين من أصحابه ويرغبهم في الأعمال الصالحة، كما كان يذم المسيئين منهم، ليخلص الفريق الأول في عمله ويلتصق به، ويرعوي الفريق الثاني ويهم بإصلاح نفسه. فقد خاطب الإمام الصالحين من صحبه بأربع عبارات: «**أَنْتُمُ ٱلْأَنْصَارُ عَلَى ٱلْحَقِّ، وَٱلْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَٱلْجُنَنُ**[1] **يَوْمَ ٱلْبَأْسِ، وَٱلْبِطَانَةُ**[2] **دُونَ النَّاسِ**».

نعم، أنتم إخواني في الدين وقد أثبتم عدم تقصيركم في نصرة الحق، تقفون بكل شموخ في ميادين القتل بوجه الأعداء، إلى جانب ذلك فأنتم ثقة في حفظ الأسرار المتعلقة بالحرب والسلام.

ثم قال ﷺ: «**بِكُمْ أَضْرِبُ ٱلْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ ٱلْمُقْبِلِ**».

---

١. «جنن»: جمع «جنة» على وزن قوة الوقاية.

٢. «بطانة»: من مادة «بطن» صاحب السر وخاصة الرجل.

إشارة إلى أنّ الناس على صنفين: صنف أدار ظهره للحق وهبّ لمقارعته ولا سبيل هناك سوى التصدي له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار في هذا القتال، وصنف آخر أقبل على الحق ولكن لا يتمتع بالمعرفة اللازمة والطاعة الكافية، وسأعمل على تربيتهم بواسطتكم لكي ينقادوا لله ويطيعوه.

والخلاصة: فأنتم أنصاري في مقاتلة العدو وكذلك في المجال الفكري تجاه الصديق، ثم نصح عليه السلام صحبه الأوفياء بعبارتين عميقتين المعنى فقال: «**فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ، سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ**».

ففي العبارة إشارة إلى نقطة مهمّة وهى أنّ بطانة الأمراء ومشاوري الحكّام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصية أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقة بهم، ثم يعرضونها للحكّام على أساس إرادة الخير والخدمة، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التي لا يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدّي بدوره إلى الإحباط والفشل في أغلب الخطط. فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص فيما يطرحونه من أراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد الله.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة: «**فَوَاللهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!**».

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقة، أي إنّي إن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبي فذلك كوني ولي أمر الناس باذن الله، بل إنّي أولى بهم حتى من أنفسهم، وهذا ما ينبغي أن يجعلكم تشعرون بالرضى والسرور على إنّكم تسيرون خلف مثل هذا الإمام وتطيعون أوامره.

الثناء على الأصحاب

أثنى الإمام عليه السلام ثناءاً بليغاً على أصحابه بعد معركة الجمل، حيث استطاعوا بمدّة قياسية ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوّة إيمانهم من القضاء على قدرات العدو وإخماد نار الفتنة في تلك المنطقة الإسلامية الحساسة (البصرة).

بينما توالت الخطب التي تعرض بالذمّ لطائفة أخرى من أصحابه، وذلك بعد معركة صفين التي انتهت بفشلهم بفعل اختلاف كلمتهم وضعفهم في عقيدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم يكن ذيك سوى في اللحظات الأخيرة التي أوشك النصر فيها على التحقق والرسوخ، فذلك الثناء وهذا الذم يفيد أن كل ذلك يتمّ على أساس حساب تخطيط وليس هناك من تناقض في الأمر، كما لم تطلق كلمة في هذا المجال تتعارض والحكمة والمصلحة، الأمر الذي ربّما يلتبس على البعض الذين لا يعلمون بشأن وورد هذه الخطبة.

النقطة الأخرى هى أنّ الإمام عليه السلام عين في هذا الكلام القصير وظيفة الأمة تجاه الحكومة، فيجب عليها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفياء ودفع الحاقدين، ومن جانب آخر التمعن في كافة الأنشطة السياسية والاجتماعية والعسكرية وإبداء المقترحات النافعة والانتقادات البناءة بهذا الخصوص.

ثم يشير في آخر عبارة من هذه الخطبة إلى نقطة مهمّة وهى مسألة الولاية الإلهيّة، وهو الأمر الذي أكدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في خطبة الغدير حيث قال: «**أَلَستُ أَولىٰ بِكُم مِنْ أَنفُسِكُم**»، فردّ المسلمون: بلى يا رسول الله، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «**مَنْ كُنتُ مَولاهُ فَهذا عَلِيٌّ مولاً**». .هكذا قطع رسول الله صلى الله عليه وآله الأعذار على جميع من يتشبث بالحجج الواهية ويختلق الذرائع ليقول الولي هنا بمعنى الصديق.

∞

والطريف في الأمر أنّ العلّامة الأميني صاحب كتاب الغدير قد نقل العبارة: «**أَلَستُ أَولىٰ بِكُم مِنْ أَنفُسِكُم**» من أربعة وستين محدّثاً ومؤرخاً إسلامياً، وهذا ما يؤكد إتفاق الجميع على هذه العبارة[1]، فالإمام عليه السلام ذكر هذه النقطة في الخطبة وأقسم قائلاً: «**فَوَاللّٰهِ إِنّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!**».

من الواضح أنّ المراد من هذ العبارة هو أنّ أوامر الإمام المعصوم كأوامر الله تبارك وتعالى مقدمة على رغبات الناس، وإن كانت هذه الأوامر تصبّ في طريق مصالح المجتمع ومنافعه.

∞

١. الغدير ٣٧١/١.

الخطبة ١١٩[1]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا مليّاً

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في سند الخطبة فانّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة إثر إحدى حملات معاوية وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع في هذه الخطبة لذلك الصمت السلبي وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذية التي تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمّهم وتوبيخهم على أنّ وظيفة الإمام وزعيم الجماعة ليست في أن يدفع بشخصه لإخماد أي تمرّد ومطاردة عدو وترك مركز الحكومة الإسلامية والتخلي عن مختلف وظائفه، فالإمام لابدّ أن يقوم بهذا العمل في الأحداث الغاية في الأهميّة ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الأُصول المسلمة للإدارة والإمرة وللأسف لم يكن أهل الكوفة على علم بذلك أو أنّهم لم يريدوا العلم بذلك.

---

١. سند الخطبة:
نقلت مصادر أخرى هذه الخطبة وكذلك فسّر ابن الأثير في «النهاية» بعض المفردات من هذه الخطبة، كما أشار إلى بعض عباراتها. قال ابن أبي الحديد في شرح لهذه الخطبة أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفين والنهروان بعد غارات أهل الشام على مناطق البلاد الإسلامية، وهذا يفيد وجود مصدر آخر لابن أبي الحديد غير الذي إعتمده السيد الرضي (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٦٣).

القسم الأول

«فَقَالَ ﷺ: مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ ﷺ: مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هٰذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ ٱلْجُنْدَ وَٱلْمِصْرَ وَبَيْتَ ٱلْمَالِ وَجِبَايَةَ ٱلْأَرْضِ، وَٱلْقَضَاءَ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ، وَٱلنَّظَرَ فِي حُقُوقِ ٱلْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ ٱلْقِدْحِ فِي ٱلْجَفِيرِ ٱلْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ ٱلرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ ٱسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَٱضْطَرَبَ ثِفَالُهَا. هٰذَا لَعَمْرُ ٱللّٰهِ ٱلرَّأْيُ ٱلسُّوءُ!».

الشرح والتفسير

المخلّفون الضعفاء والجهّال

حين بلغ الإمام ﷺ هجوم أعوان معاوية على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد في الخطبة المذكورة سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعظ الإمام ﷺ وتأثر شديداً فقال: **فَقَالَ ﷺ: «مَا بَالُكُمْ أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ؟**

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سِرْتَ سِرْنَا مَعَكَ».

فردّ عليهم الإمام بعنف بعدم التوفيق وبلوغ الهدف[1]، فلا ينبغي للإمام الحركة في مثل تلك

---

١. هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن هذه الجملة هل هي جملة خبرية تخبر عن وضع جماعة

الظروف: «**فَقَالَ**ﷺ: **مَا بَالُكُمْ! لاَ سُدِّدْتُمْ**[١] **لِرُشْدٍ! وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَخْرُجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هٰذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ**».

فلم يكم متعارفاً في أي مكان من الدنيا ولا عصر من العصور أن ينهض زعيم فرقة أو رئيس دولة بشخصه للتدخل في حادثة صغيرة وبلبلة معينة، بل عادة ما يوجه لها أحد آمريه برفقة مجموعة من العناصر الشجاعة والوفية من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلك لأنّ التخلي عن مركز الحكومة من شأنه أن يقود إلى عدّة مخاطر جانبية، ومن هنا واصل الإمام كلامه قائلاً: «**وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ ٱلْجُنْدَ وَٱلْمِصْرَ وَبَيْتَ ٱلْمَالِ وَجِبَايَةَ ٱلْأَرْضِ، وَٱلْقَضَاءَ بَيْنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَٱلنَّظَرَ فِي حُقُوقِ ٱلْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ**[٢] **أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ**[٣] **ٱلْقِدْحِ**[٤] **فِي ٱلْجَفِيرِ**[٥] **ٱلْفَارِغِ**[٦]».

فقد أشار الإمام ﷺ بهذه العبارة إلى ستة جوانب تتضمن الوظائف المهمّة لرئيس الدولة يمكنها الإنهيار جميعاً فيما إذا شغر مركز الحكومة من ذلك الرئيس، وهي الاشراف على الجند وأمور العسكر والجيش والحفاظ على مركز الدولة وحفظ بين مال المسلمين وجباية الخراج والضرائب والقضاء بينهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البديهي يمكن لرئيس الدولة أن يشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضخمة ويهب لمواجهة العدو، أمّا في غيرها من الحوادث ذات الطبيعة العادية، فيمكن لغيره التعامل معها، وتشير سيرة الرسول الأكرم ﷺ أنّه كان يشخص بنفسه الشريفة في الغزوات المهمّة المصيرية، فيتزعم الجند، وكان ينصب بعض الأفراد في الغزوات العادية فيسلمه الراية

☜ الكوفة الضعيفة والمسلوبة الإرادة على أنّهم سلكوا سبيلاً لا يدعهم يتوفقون في حياتهم أبداً، أم أنّها جملة إنشائية ونوع من الاشمئزاز، يبدو المعنى الثاني هو الأنسب.

١. «سددتم»: من مادة «سد» المعروف المعنى ولماكان السد هو البناء المحكم فالتسديد يعني الإحكام والترسيخ وسدده وفقه للسداد.

٢. «كتيبة»: طائفة من الجيش قال بعض أرباب اللغة يتراوح عددها من مئة إلى ألف.

٣. «تقلقل»: الحركة من جانب إلى آخر.

٤. «قدح»: بكسر القاف السهم أو القطعة من الخشب وقيل أيضاً هو السهم قبل أن يراش وينصل.

٥. «جفير»: الكنانة التي توضع جانب الفرس وتوضع فيها السهام.

٦. «الفراغ»: بمعنى الخالي.

ويوصيه ببعض التعاليم كما يوصي الجيش بطاعة أوامره، وهكذا كانت تحصل أغلب الغزوات في تاريخ الإسلام والتي يصطلح عليها عادة بالسرية، غاية ما في الأمر أنّ صحابة النبي الأكرم ﷺ كانوا يأتمرون بأوامره بحيث يطيعونه في كل ما يقول ولم يكن يرد عليه أحد بأن سرت سرنا معك.

نعم، صحيح لكل قسم مسؤول على أساس تقسيم وتنظيم شؤون البلاد، لكن لا يخفى الدور الحيوي الذي يلعبه الرئيس المشرف على أولئك المسؤولين في تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البديهيات، لكن أُولئك المتقاعسون المسلوبون الإرادة والضعاف الذين يتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناب مواجهة العدو فيشترطون شرطاً غاية في البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخرى شرطهم هو تعليق على المحال، ويواصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال تشبيه رائع لشخصه بقطب الرحا ومحورها والذي يفيد ضرورة بقائه في موضعه (بحيث تدور كل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مركزه اختلت حركة جميع الأشياء: **«وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ ٱلرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتُهُ ٱسْتَحَارَ[1] مَدَارُهَا، وَٱضْطَرَبَ ثِفَالُهَا»**.

فقد جرت العادة سابقاً على الاستفادة من الرحى اليدوية أو المائية والهوائية من أجل طحن الحنطة والشعير، وكانت بنية هذه الآليات بسيطة وواضحة، فقد كانت هناك حجرة ثابتة في الأسفل وأخرى تتحرك في الأمام بواسطة حركة اليد أو ضغط الماء الذي يعبر من تحتها أو الرياح، وكان وسط الحجرين قطب يدور حول محوره الحجر لو كسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلى جانب ذلك كان هناك جلد كبير أو قطعة من القماش تبسط تحت الرحا لجمع الدقيق بسهولة، حيث إذا خرج الدقيق من وسط الحجرين وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلي لوقفت الرحا عن الحركة ووقع الحجر على تلك القطعة من القماش أو الجلد وإضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله: **«ٱسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَٱضْطَرَبَ ثِفَالُهَا»**، إضافة إلى ذلك فانّ

---

١. «استحار»: من مادة «تحير وحيرة» بمعنى التردد والاضطراب وتطلق على السحب الثقيلة التي لا تدعها الرياح تتحرك في مسارها وكأنّها تبقى مضطربة مترددة.

الشيء الذي يحرك الحجر في الرحا هو ذلك الواقع في وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركة وعامل تنظيم، وهذه هى منزلة الإمام والقائد.

وأخير يخلص الإمام إلى النتيجة صريحة بأنّ ذلك الاقتراح مرفوض تماماً في أنّ يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنة هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومة: «**هٰذَا لَعَمْرُ ٱللّٰهِ ٱلرَّأْيُ السُّوءُ**!».

حقاً أنّه لاقتراح فاشل بشهادة كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور في أنّ القائد لا يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى في الحوادث المهمّة.

القسم الثاني

«وَٱللّٰهِ لَوْلاَ رَجَائِي ٱلشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي ٱلْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاغِينَ. إِنَّهُ لاَغَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ ٱجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ ٱلَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلاَّ هَالِكٌ، مَنِ ٱسْتَقَامَ فَإِلَى ٱلْجَنَّةِ،وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ».

الشرح والتفسير

لولا رجآء الشهادة

شدد الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفة وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله في مستقبلهم وعاقبة أمرهم، فقال: **«وَٱللّٰهِ لَوْ لاَ رَجَائِي ٱلشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي ٱلْعَدُوَّ - وَلَوْ قَدْ حُمَّ[1] لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلا أَطْلُبُكُمْ مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ».**

العبارة «**مَا ٱخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ**»، إشارة إلى مراده أنني لم آتي إليكم أبداً، فالعبارة أشبه بما ورد في إحدى كلماته ﷺ حين أقترح عليه عدم التسوية في العطاء من بيت مال المسلمين، فقال ﷺ: «**أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ ٱلنَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَٱللّٰهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي ٱلسَّمَاءِ نَجْماً!**»[2].

---

١. «حمّ»: من مادة «حم» على وزن غم بمعنى قدّر، وعليه فمفهوم العبارة قد حم لي لو قدر لي مثل هذا الأمر، أو إنّ وفقت لهذا الأمر.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام ﷺ لولا رجائي الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الثاني أنّ الإمام ﷺ قد سمع بشارة رسول الله ﷺ له بالشهادة وكان يعلم أنّه سيقتل على يدى أشق الآخرين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام ﷺ التخلي عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟

وللإجابة على السؤال الأول لابدّ من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدّسة للإمام ﷺ في بقائه وسط تلك الفئة ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين ائر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجة لديه لذكرها هنا[1].

ونقول في الردّ على السؤال الثاني إنّ لقاء العدو يشتمل على مفهوم غاية في السعة وإن بدى في الوهلة الأُولى يجسد مواجهة الخصم في ساحة المعركة والذي يمثل جزءاً من ذلك اللقاء، ونعلم أنّ شهادة الإمام ﷺ كانت أحد مصاديق ذلك.

وامّا السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأنّ ترك فئة فاسدة لا يمكن إصلاحها لا يعني التخلي عن وظائف الإمامة أبداً، بل يمكن للإمام ﷺ أن يتّجه صوب جماعة أعظم إستعداداً، على غرار ما فعله رسول الله ﷺ حين هاجر من مكة إلى المدينة.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بذكر الأدلّة التي تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبيّن لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا باصلاحها فقال: «**طَعَّانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ**[2] **رَوَّاغِينَ**[3]».

---

١. للأسف وحسب علمنا فانّ شرّاح نهج البلاغة لم يطرقوا هذا البحث ويردوا على هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البيهقي الذي أجاب عن السؤال الثالث بأنّ الإمام ﷺ قال: ذلك بغض النظر عن مقام الإمامة، وإلّا فانّ مقام الإمامة يقتضي من الإمام أن يكون بين الناس مهما كانت الشرائط، وبعبارة أخرى فانّ الإمام ﷺ قال لولا مقام الإمامة وكنت حراً في هذا الأمر لتركتكم.

٢. «حيادين»: من مادة «حيد» على وزن حرف بمعنى الانحراف ويقال الحيّاد، لمن ينحرف كثيراً عن جادة الحق.

٣. «رواغين»: من مادة «روغ» على وزن ذوق بمعنى الذهاب إلى هذا الطرف وذاك وهي كناية عن المكر والحيلة، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فيقال (راغ الثعلب).

فهذه الصفات الأربعة على درجة من القبح والبشاعة بحيث يكفي وجود واحدة منها في فرد لتدعو للنفرة منه والابتعاد عنه، فضلاً عن اجتماعها جميعاً فيه، أي أنّ جلّ همّه الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل باليأس، فلا يرى الحق حتى يولي له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئة فضلاً عن الإمام المعصوم ﷺ الزعيم للخلق والذي ليست أمامه من نتيجة لهذا الوضع المأساوي سوى الحزن والمعاناة، ومن هنا يرجو الإمام ﷺ مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام ﷺ بأنّه إلى جانب تلك العيوب الشخصية هناك عيب اجتماعي كبير فيهم والذي يتمثل بعدم جدوى كثرة عددهم مع قلّة اجتماع أفكارهم: «**إِنَّهُ لاَغَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ مَعَ قِلَّةِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ**».

صحيح أنّ عددكم يبدو كثيراً في الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحدة التي ينبغي أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادته وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فانّ اجتماعكم الموتى وتجمعكم تجمع الوحشة.

ثم إختتم الإمام ﷺ الخطبة بقوله أنّي قمت بوظيفتي تجاهكم: «**لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتي لاَيَهْلِكُ عَلَيْهَا إلاَّ هَالِكٌ، مَنِ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ،وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ**».

فالإمام ﷺ أوضح بهذه العبارة حقيقة مفادها أنّي قلت لكم كل ما ينبغي قوله وأتممت عليكم الحجة وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا يعني أنّي قصرت في مقام بوظيفتي تجاهكم، ولكن لأسف إنّكم لستم بالأفراد للائقين الذين يسعكم الاستفادة من البرامج التربوية التي يطرحها مرشد ربّاني شفيق عليكم.

ﮰﮱ

القلوب الواعية

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفي في كتاب «الغارات» في ذيل هذه الخطبة حين خطب الإمام ﷺ هذه الخطبة قام «**جارية بن قدامة السعدي**» فقال: «**يا أميرَ**

المُؤْمِنِينَ لا أَعدَمَنا اللهُ نَفْسَكَ وَلا أَرانا فِراقَكَ أَنَا لِهؤلاء القَومِ فَسَرِّحنِي إلَيهِم».

فسّر الإمام ﷺ لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه **«وهب بن مسعود الخثعمي»** فقال: **«أَنَا لَهُم»**.

فأمر الإمام ﷺ جارية أن يسير بألفين إلى البصرة والخثعمي بألفين إلى الكوفة، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبي ارطاة أينما وجدوه[1].

والذي يستفاد من هذا البحث التاريخي:

أولاً: إنّ شدّة كلمات الإمام ﷺ كان لها في خاتمة المطاف الأثر البالغ في بعض القلوب الواعية فاستعد أصحابها لمواجهة الأعداء.

ثانياً: يتضح أنّ هذه الخطبة قد وردت قبل المرحوم الرضي في كتاب «الغارات».

---

١. الغارات ٢/٦٢٧.

الخطبة[1] ١٢٠

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

يذكر فضله ويعظ الناس

نظرة إلى الخطبة

بداية الكلمات إشارة إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وآله تبليغ الرسالة وتفسير كلمات الله سبحانه وتعالى، ثم خاض الإمام في إسداء مواعظه ونصائحه النافعة وحذر الناس في ضرورة الاعتبار بالآخرين والخوف من نار جهنّم وأن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعة الحسنة أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التي قد لا يعرف الورثة عادة قيمتها ولا يشكرون جامعها.

---

١. سند الخطبة:
جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ سليم بن قيس الذي عاش قبل السيد الرضي نقل القسم الأول من هذه الخطبة في كتابه، كما وردت سائر أجزائها بصورة متفرقة في كتاب «غرر الحكم»، ولما كان هناك تفاوت بين بعض عباراتها، فانّ ذلك يعني أنّها أخذت من كتاب آخر غير نهج البلاغة، كما قال ابن أبي الحديد في شرح بعض عبارات هذه الخطبة نقلها جماعة بشكل آخر وهذا يشير إلى أنّه كان لديه مصدراً آخر (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٦٤).

«تَاللّٰهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ ٱلرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ ٱلْعِدَاتِ، وَتَمَامَ ٱلْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ ٱلْحُكْمِ وَضِيَاءُ ٱلْأَمْرِ. أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ ٱلدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ ٱلسَّرَائِرُ. وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلاَ وَإِنَّ ٱللِّسَانَ ٱلصَّالِحَ يَجْعَلُهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي ٱلنَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التي تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «**تَاللّٰهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ ٱلرِّسَالاتِ، وَإِتْمَامَ ٱلْعِدَاتِ، وَتَمَامَ ٱلْكَلِمَاتِ**».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلامية وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشارة إلى أنّي لم أتعلم الرسالات الإلهيّة فحسب، بل تعلمت من رسول الله صلى الله عليه وآله طرق التبليغ، فكنت لا أنثني في هذا السبيل.

والمراد باتمام العدات «الوفاء بالعهود» تلك وعود الله تبارك وتعالى بصورة عامّة بالنسبة لجميع المؤمنين والوعود بصورة خاصة بالنسبة له عليه السلام، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[1].

---

١. سورة الأحزاب / ٢٣.

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهي هو الوعد بالشهادة في سبيل الله، أو سائر الوعود من قبيل مقاتلة الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشارة إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبي الأكرم ﷺ، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التي وصلت من الكتاب والسنّة.

كما يحتمل أن يكون المراد الإمام ﷺ أنّي أولى من جميع الأفراد بخلافة النبي الأكرم ﷺ، وذلك لأنّي تعلمت طريق تبليغ الرسالة وتحقيق وعوده ﷺ وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإنّي أستطيع النهوض لمسؤولية الخلافة، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي ﵇: «**أَنْتَ وَصِيي وَأَخِي فِي الدُّنيا وَالآخِرةِ وَتَقضِي دَينِي وَتُنجِزُ عِداتِي**»[١].

الاحتمال الآخر الذي يمكن ذكره بالنسبة لهذه العبارة هو أنّ الإمام ﵇ أراد أن يقول أنا أولى بالخلافة، لأنّي أقدر على تبليغ جميع رسالات الله سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التي أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل ﵇ كلامه بالقول: «**وَعِنْدَنَا ـ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ـ أَبْوَابُ ٱلْحُكْمِ وَضِيَاءُ ٱلْأَمْرِ**».

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكومةو القضاء، بناءاً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومة وإقامة العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمة بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أنّ لدى أهل البيت﵈ أبواب الحكمة وكنوز العلم والمعرفة، كما قرنهم رسول الله ﷺ فقال في حديث الثقلين المعروف: «**إِنّي تارِكٌ فيكُم الثَّقَلَينِ كِتابَ اللهِ وَعِترَتِي**»[٢].

ثم أورد الإمام ﵇ خمس نصائح من شأنها نجاة العباد في الدنيا والآخرة، وكأن العبارات الأُولى لهذه الخطبة قد وردت لإعداد القلوب من أجل تقبل هذه النصائح ليقول أنّ كلامي يستند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسلام وتعاليم النبي ﷺ. فكانت النصحية الأُولى مسألة الإتحاد ووحدة الكلمة وذلك لأنّ الاختلاف آفات سعادة الإنسان، فقال: «**أَلَا وَإِنَّ**

---

١. بحار الانوار ٣١١/٣٦.

٢. للوقوف على مصادر هذا الحديث الشريف راجع كتاب نفحات القرآن ٦٢/٩ ـ ٧١.

شَرَائِعَ ٱلدِّينِ وَاحِدَةٌ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَبِها لَحِقَ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ».

المقصود بشرائع الدين كافة التعليمات التي صرّح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأمور الأخلاقية، فجذروها واحدة في جميع الأديان السماوية وإن إقتضت الظروف الزمانية والتطور البشري أن يكون هناك بعض الاختلاف شرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشرائع الدين مختلف الطرق إلى الله سبحانه في الدين الإسلامي والتي تنتهي جميعاً إلى طريق رئيسي واحد وهو القرب إلى الله والسعادة المطلقة للبشر، فالصلاة الصوم والجهاد والحج والزكاة وكافة مثل هذه التعليمات إلى جانب التعاليم العقائدية والأخلاقية تتصل وتنتهي بنقطة واحدة ويؤكد ﷺ على أنّ بلوغ السبيل سهل وواضح وقريب، وعليه فانّ الفرقة والاختلاف إنّها تحصل من مزج الأفكار الباطلة والأهواء ووساوس النفس والشيطان بشرائع الدين، فقال تعالى في كتابه العزيز: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾**[1].

وقال ﷺ في الموعظة الثانية: «**إعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ ٱلسَّرَائِرُ**».

العبارة الأُولى إشارة إلى الآية الشريفة: **﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ...﴾**[2].

والعبارة الثانية إشارة إلى الآية القرآنية: **﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾**[3].

من البديهي أنّ للإنسان قدرة محدودة ينبغي توظيفها في أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تستهلك طاقتك في طريق لا يدوم أكثر من أيّام، لم لا تستهلكها في سبيل يرافقك على الدوام ويخلد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السرائر وكافة أعمال الإنسان الخفية، فهو يوم عصيب وفضيحة بالنسبة للطالحين.

وقال ﷺ: في عظته الثالثة: «**وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ**[4] **عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ**[5]».

---

١. سورة الشورى / ١٣.

٢. سورة النحل / ٩٦.

٣. سورة الطارق / ٩.

٤. «عازب»: من مادة «عزوب» بمعنى الابتعاد وعازب بمعنى بعيد.

٥. «أعوز»: من مادة «عوز» على وزن مرض وعوز الشيء بمعنى لم يوجد ويراد به عدم وجود الشيء عند الحاجة.

فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ أراد بهذه العبارة مزج الأدلة العقلية بالنقلية وتعبئة الجميع من أجل متابعة سبيل الحق، وقد قال الإمام ﷺ هنا ثلاثة أنواع لعقل هى: العقل الحاضر والبعيد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشارة إلى المسائل العقلية الواضحة، والثاني إلى المطالب النظرية التي يبلغها الإنسان من خلال الطرق الاستدلالية الواضحة، و الأخير إشارة إلى المواضع المعقدة التي يتعذر التوصل إليها من خلال الدليل والبرهان، فمن البديهي أن يتعذر إدراك المطالب النظرية والمعقدة والبعيدة عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكرية البسيطة.

ففي المسائل النظرية تتضح تماماً معرفة الله يوم القيامة (بالمبدأ والمعاد)، وذلك لأنّ آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامة التي تمثل محكمته العادلة ثابتة بحكم العقل، وفي المسائل العلمية فانّ حسن العدل وقبح الظلم ومدح الصدق والوفاء والعفة والورع والتقوى مسلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحة، فأنى لمثل هذا الفرد أن يبدي رأيه في المسائل النظرية والمعقدة ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام ﷺ الناس في المواعظة الرابعة بصفته منذر عالم فقال: «**وَاتَّقُوا ناراً حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ**[١]».

والعبارات البليغة التي أوردها الإمام ﷺ بشأن نار جهنم والتي تكفي كل واحدة منها لصد الإنسان عن الذنب إنّما اُقتبست من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد جاء في الآية: ﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً...**﴾[٢].

وجاء في أخرى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ...**﴾[٣].

يعني أنّها على قدر من الكبر والسعة بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء في أية أخرى: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**﴾[٤].

وجاء في آية أخرى: ﴿**مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ**﴾[٥]. قطعاً من يؤمن

١. «صديد»: الماء الساخن، كما ورد بمعنى ماء الجرح الرقيق.
٢. سورة التوبة / ٨١.
٣. سورة ق / ٣٠.
٤. سورة الحاقة / ٣٠ ـ ٣٢.
٥. سورة إبراهيم / ١٦.

بالآخرة ومحكمة العدل الإلهي وشيء من العذاب الأليم، فانّه يتحكم ويسيطر على أهوائه ويجتنب الظلم والجور ولا يقارف الذنب والمعصية، أمّا أُولئك الذين ليس لهم من إيمان بهذه الأمور ولا يعتقدون بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، فليس هناك ما يدعوه إلى السيطرة على أهواءه وكفّ الأذى عن الآخرين وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، يمكن للضمير أن يحد من هوس الأفراد إلى حدود معينة، لكن من اليقين أن ليس لذلك من بعد عمومي وشامل، وتأثيره يبقى متواضعاً، أضف إلى ذلك فانّ نبتة الضمير تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

أمّا الموعظة الأخيرة والخامسة فقد أشار إلى نقطة مهمّة جداً فقال: «**أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانِ الصَّالِحِ يَجعَلُهُ اللهُ تَعلىٰ لِلمرءِ فِي النَّاسِ، خَيرٌ لَهُ مِنَ المَالِ يُرِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ**».

إنّ أغلب الناس وبدافع حبّهم لأولادهم وأزواجهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ويفنون جانب عظمياً من أعمارهم في هذا المجال حتى أنّهم يخلطون أحياناً الحلال بالحرام، لكنّهم يغفلون عن قضية مهمّة دلّت عليها التجربة أنّه قلّما نجد وارثاً يحمد من ورثه على ما خلفه لهم من ميراث، بل غالباً ما تكون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فكل فرد يسعى لأن يحصل لنفسه على السهم الأوفى، حتى قيل موت الغني بداية قتال الفقير.

بل قد يتجاوز الأمر ذلك لنشهد سبّ الوارث والتشنيع عليه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاكل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو على قيد الحياة ذاته وأنفق قسماً من أمواله كصدقة جارية وخدمة إنسانية وثقافية يسديها إلى المجتمع لبقى ذكره الطيب بين النايس فلن ينسوه أبداً. ويثنون عليه دائماً ويسألون الله له المغفرة والرحمة، فهذا هو ثوابه في الدنيا ولثواب الآخرة أعظم.

الخطبة[1] ١٢١

مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ ﷺ

بعد ليلة الهرير

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: ٱلْأَمْرَيْنِ أَرْشَدُ؟ فَصَفَّقَ ﷺ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَىٰ ٱلْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:

نظرة إلى الخطبة

لابدّ من الالتفات إلى مناسبة وورد الخطبة من أجل الوقوف على عمق محتواها ومضمونها، فهذا الكلام يرتبط بمعركة صفين حين نهى الإمام ﷺ الناس عن قبول التسليم للتحكيم، ثم دعاهم إلى قبوله، والمعروف بهذا الشأن أنّ عمرو بن العاص فكر بخدعة حين شارف جيش الشام على الهزيمة، فأمر برفع المصاحف ووضعها على أسنة الرماح، ثم دعى أصحاب علي ﷺ إلى تحكيم القرآن، فانخدع لذلك الكثير من السذج من أصحاب علي ﷺ فكفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصروا على تحكيم القرآن بشأن مصير

---

١. سند الخطبة:
وردت هذه الخطبة في عدّة كتب ألفت قبل المرحوم السيد الرضي مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه و«الاختصاص» للشيخ المفيد، والكتب التي ألفت بعده «الكتب التي تفيد عباراتها أنّها نقلت الخطبة من مصادر أخرى غير نهج البلاغة» مثل «مطالب السؤال» لمحمد بن طلحة الشافعي، و«الاحتجاج» للطبرسي، و«ربيع الابرار» للزمخشري مع اختلاف.

المعركة في أن ينهض حكم من جيش الإمام ﷺ وآخر من جيش معاوية، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلين: «إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان».

الإمام كان يعلم بأنّ تلك مصيدة خطيرة كمنت في طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنّه أُجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع بالبعض للإعتراض على الإمام علي ﷺ، وفحوى اعتراضهم إنّك نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبة ردّ على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام ﷺ إلى عدّة أمور في إطار الجواب فقال أولاً: هذه نتيجة طبيعية لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكلة، ثم بيّن الإمام نقاط ضعفهم التي أدّت إلى هذه المشكلة الكبيرة وفي المرحلة الثالثة ذكر طائفة من أوائل المسلمين في صدر الإسلام كانت تهب مسرعة لتلبية نداء الجهاد ومواجهة العدو بفعل قوّة إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشارة إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه).

وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانية في مراقبة أنفسهم والحذر من مصائد الشيطان.

القسم الأول

«هٰذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ ٱلْعُقْدَةَ! أَمَا وَٱللّٰهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ ٱللّٰهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ ٱسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ ٱلْوُثْقَىٰ، وَلٰكِنْ بِمَنْ وَإِلَىٰ مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ ٱلشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! ٱللّٰهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا [ٱلدَّاءِ] ٱلدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ ٱلنَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ ٱلرَّكِيِّ!».

الشرح والتفسير

الداء، وليس الدواء

ردّ الإمام ﷺ بجواب قاطع على من اعترض عليه في أنّ هذه المصيبة التي عصفت بكم إنّما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترك الرأي السليم: «هٰذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ ٱلْعُقْدَةَ[1]».

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه في هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعة عمرو بن العاص، فأبيتم إلّا التحكيم، كان مكر ابن العاص في رفع المصاحف خدعة ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام ﷺ في الخطبة القادمة.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه وقد أقسم بالله لو أجبرتكم على الجهاد ـ والذي لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير ـ حين أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهّال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرفتم أعدتكم إلى الصواب، ولو

---

١. «عقدة»: ما حصل عليه «التعاقد» والمراد بها هنا الرأي الصحيح والعهد على الطاعة.

تخلفت طائفة منكم لاستبدلتها بأخرى (على كل حال لو أطعتموني في مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذي ليس بعده إلّا الضلال، لكن من المؤسف إنّكم لم تجيبوني، فبمن استظهر على العدو وبمن أثق؟ «أَمَا وَاللّٰهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللّٰهُ فِيهِ خَيْراً، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَىٰ، وَلٰكِنْ بِمَنْ وَإِلَىٰ مَنْ؟».

فالإمام ﷺ قد بيّن بهذا الردّ القاطع حقيقة في أنّ نيّتي مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيّما أننا على أعتاب النصر، وكنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوّة وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا إرادة لكم وطغاة عصاة لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لي من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم الاعتراض عليّ.

ثم أعرب الإمام ﷺ عن دهشته فقال: «أُرِيدُ أَنْ أُداوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا[1] مَعَهَا».

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غاية في الدقة والبلاغة، فعادة ما يخرجون الشوكة التي تغوص في الرجل بإبرة أو منقاش، فان أُريد سلّها بشوكة أخرى احتمل أن تغوص الثانية في الرجل أيضاً، فيزيد الطين بلّة حتى أصبح الأمر بصيغة مثل تعارف عند العرب حيث يقول: «كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا».

فالمثل يضرب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزيادة العداوة والنزاع، فراد الإمام ﷺ إنّي أُريد أن أدفع بكم عصاة الشام بينما أنتم العصاة الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فانّ هذه العبارات التي تفيض معاناة تفيد مدى الوضع العصيب الذي شهده الإمام ﷺ، فانّ أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا: عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضية التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فلكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

---

١. «ضلع»: من مادة «ضلع» على وزن سبب بمعنى الميل نحو الشيء، وتعني هنا الشبه والمثل.

إمام خلف رسول الله ﷺ على أنّه ضعيف في التدبير، وليس ذلك إلّا بسبب وجود فئة سيئة من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأنّ الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى الله سبحانه فقال: «**أَللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا ٱلدَّاءِ**[1] **ٱلدَّوِيِّ، وَكَلَّتِ**[2] **ٱلنَّزَعَةُ**[3] **بِأَشْطَانِ**[4] **ٱلرَّكِيِّ**[5]**!**».

ياله من تعبير بليغ وموجع في نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلّاح الذي يجهد نفسه في استخراج الماء من البئر ليسقي به الأرض المالحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام علي ﷺ حين إبتلى بتلك العصابة من الجهّال المسلوبة الايمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد في الحديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّ عيسى بن مريم ﷺ قال: «**دَاوَيتُ المَرضىٰ فَشَفَيتُهُم بِاذن اللهِ و أبرأتُ الأكمَهَ والأبرصَ بإذنِ اللهِ وعالَجتُ المَوتىٰ فأحييتُهم بإذن اللهُ وَعَالَجتُ الأَحمَقَ فَلَم أَقدَرْ عَلَىٰ إصلاحِهِ**»[6].

ꕥ

---

١. «داء»: من مادة «دوي» بمعنى المرض الشديد.
٢. «كلت»: من مادة «كلول» على وزن ملول بمعنى الضعف.
٣. «نزعة»: من مادة «نزع» على وزن جمع نازع بمعنى السحب.
٤. «أشطان»: جمع «شطن» على وزن وطن الحبل الطويل الذي يسحب به الماء من البئر.
٥. «ركي»: جمع «ركيّة» البئر.
٦. بحار الانوار ١٤/٣٢٣، ح ٣٦.

القسم الثاني

«أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَىٰ ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَىٰ ٱلْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ ٱللِّقَاحِ إِلَىٰ أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا ٱلسُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا. لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ ٱلْمَوْتَىٰ [ٱلقتلى]. مُرْهُ ٱلْعُيُونِ مِنَ ٱلْبُكَاءِ، خُمْصُ ٱلْبُطُونِ مِنَ ٱلصِّيَامِ، ذُبُلُ ٱلشِّفَاهِ مِنَ ٱلدُّعَاءِ، صُفْرُ ٱلْأَلْوَانِ مِنَ ٱلسَّهَرِ. عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ ٱلْخَاشِعِينَ. أُولَٰئِكَ إِخْوَانِي ٱلذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ ٱلْأَيْدِيَ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ».

ꕥ

الشرح والتفسير

إخوتي في الجهاد

ذكر الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثارة قدراتهم وقواهم وحثّهم على الجهاد، كما ذمّهم على ضعفهم وتقصيرهم. أصحابه الذين تألقوا في ساحات الحرب حين قتالهم للأعداء وكذلك في ميدان الطاعة والعبودية حيث كانوا سبّاقين في هذه الميادين فقد قال: **«أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ دُعُوا إِلَىٰ ٱلْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَءُوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا[1] إِلَىٰ ٱلْجِهَادِ فَوَلِهُوا[2] وَلَهَ ٱللِّقَاحِ[3] إِلَىٰ أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا ٱلسُّيُوفَ أَغْمَادَهَا[4]، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً[5]، وَصَفّاً صَفّاً. بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا».**

---

١. «هيجوا»: فعل مجهول من مادة «هيجان» وتعني هنا أنّهم كانوا يندفعون إلى الجهاد.
٢. «ولهوا»: من مادة «وَلَه» على وزن فرح شدّة الشوق أوالحزن.
٣. «لقاح»: من مادة «لقوح» الناقة.
٤. «اغماد»: جمع «غمد» على وزن هند موضع السيف.
٥. «زحف»: تعني في الأصل المشي مع الثقل.

دقيقة هي الأوصاف التي أوردها الإمام ﷺ في هذه العبارة لهم، فقد إبتدأها بالايمان بالإسلام والفهم والإدراك الصحيح للقرآن والعمل به والذي الدافع الرئيسي للحركة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذي يشبه بعشق الأم لولدها وولهها إليه. ويثني على شجاعتهم حيث لم يفكروا قط في إغماد سيوفهم والتراجع عن الجهاد، وأخيراً مدح مدى حركتهم الجماعية ـ والذين كانوا يحضرون في الميدان في أي موضع كانوا ـ والحق من يتحلى بهذه الصفات، فهو منتصر على الدوام.

ثم واصل الكلام بالحديث عن سائر صفاتهم حيث يكشف النقاب عن علوّ معنوياتهم ومدى زهدهم وخضوعهم وخشوعهم لله تبارك وتعالى فقال: «**لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَىٰ**».

وهذه علامة علو روحيتهم حيث لم يكونوا بفكر قيود الحياة المادية، بحيث ينزعجون لفقد الأحبة أو يهنى أحدهم الآخر على البقاء على قيد الحياة، إنّهم يفخرون بالشهادة في سبيل الله سبحانه ويرونها حلمهم في نيل السعادة الأخروية، ومن صفاتهم أيضاً: «**مُرْهُ**[1] **الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ**[2] **الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ**[3] **الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ**[4] **الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ**[5]. **عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ**».

نعم، فهم في ساحات المعارك يزأرون كالأسد، وإن جن عليهم الليل ارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء وجرت دموعهم على خدهم، هكذا هم في الحالين.

ثم خلص الإمام ﷺ بعد ذلك إلى الدرس والعبرة التي ينبغي الاحتذاء بها فقال: «**أُولَٰئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدِيَ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ**».

لقد جرت عادة أرباب التربية على الاستشهاد بالنماذج البارزة القيّمة من أجل تهذيب الأفراد المطلوب تربيتهم ليتمكنوا من مقارنة أنفسهم بتلك النماذج فيحذو حذوهم، يقفون

---

١. «مره»: أمره من مضت عينه أو وجعت.
٢. «خمص»: جمع «أخمص» ضامر البطن.
٣. «ذبل»: جمع «ذابل» الجفاف والتيبس.
٤. «صفر»: جمع «أصفر» شاحب اللون.
٥. «سهر»: البقاء واعياً في الليل.

على أخطائهم فيهمون بتداركها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الأُسلوب الذي إعتمده الإمام ﷺ في إطار تربيته للأفراد، ولكن وللأسف لم يكن أُولئك الأفراد آنذاك مستعدين لتقبل نصائحه ووصاياه وبرامجه التربوية، وبالطبع لا فائدة لأي مربّ ومعلم مهما كان بصيراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم يكن هناك من إستعداد في الطرف المقابل لتقبل أفكاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمة بالحياة والخير والبركة تنزل على كل مكان، ولكن لا تخرج الأرض المالحة إلّا الخبث ولا يسعها الاستفادة من تلك الأمطار، والشمس هي الأخرى تضيىء لكل ذي عينين، ولكن ماذا يسع الأعمى أن يرى منها، والرياح المنعشة تهب في كل مكان ولكن لا تنتفع بها قبور الموتى.

٨٠٠٣

القسم الثالث

«إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ٱلْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ ٱلْفِتْنَةَ. فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَٱقْبَلُوا ٱلنَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَٱعْقِلُوهَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

الحذار من وساوس الشيطان

إختتم الإمام ﷺ خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضرورة مراقبة الشيطان والإلتفات إلى طرق نفوذه، وقد بيّن ذلك على شكل خلاصة بأربع عبارات فقال: «**إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يُسَنِّي**[1] **لَكُمْ طُرُقَهُ**».

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسية شيئاً فشيئاً فانّه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحدة بعد الأخرى: «**وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً**»، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقة بدلاً من الإتحاد: «**وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ٱلْفُرْقَةَ**»، فيثير الفتن بواسطة هذه الفرقة: «**وَبِالْفُرْقَةِ ٱلْفِتْنَةَ**».

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدي الطرق الوعرة والخطيرة معبدة سهلة في نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونة والتساهل وتصوير طريق الطاعة على أنّه معقد خطير وصعب، فانّ سلك سبيله واتّبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

---

١. «يسنيّ»: من مادة «سناء» بمعنى الضياء وإن استعملت في باب التفعيل وردت بمعنى يسهّل.

من عهوده المقدّسة، وهو الأمر الذي أكده القرآن الكريم أربع مرّات محذراً من اتّباع الشيطان: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾[٢].

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهيّة وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح المادية والتعصبات الجاهلية ليدعو الناس إلى الفرقة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾[٣].

ومن الطبيعي إن اشتعلت نيران الفرقة والاختلاف والنفاق في المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، ومما لا شك فيه فانّ دين الأفراد ودنياهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذي أجراه الشيطان في أحدث معركة صفين، فقد لقنهم الشيطان بادىء الأمر أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أميرالمؤمنين علي ﷺ في مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنة عمرو بن العاص وأثرها فتنة الخوارج.

ثم قال الإمام ﷺ بغية عدم سقوط أصحابه في شباك الشيطان: «**فَاصْدِفُوا[٤] عَنْ نَزَغَاتِهِ[٥] وَنَفَثَاتِهِ[٦]، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا[٧] عَلَى أَنْفُسِكُمْ**».

ويصدق هذا الأمر في عصرنا وزماننا، فالشيطان يري طرقه المنحرفة سهلة وبسيطة بادىء الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقة والخلاف، وأخيراً تقود الفرقة إلى اشتعال نيران الفتن السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

١. سورة البقرة / ١٦٨.
٢. سورة البقرة / ٢٠٨؛ سورة الانعام / ١٤٢؛ سورة نور / ٢١.
٣. سورة المائدة / ٩١.
٤. «اصدفوا»: من مادة «صدف» على وزن عطف بمعنى الإعراض.
٥. نزغات»: جمع «نزغة» على وزن ضربة وساوس.
٦. «نفثات»: جمع «نفثة» تعني هنا الوسوسة.
٧. «اعقلوها»: من مادة «عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل الناقة.

الخطبة[1] ١٢٢

وَمِنْ كَلَامٍ لهُ عليه السلام

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم و هم مقيمون
على إنكار الحكومة، فقال عليه السلام:

نظرة إلى الخطبة

كما ورد أعلاه فانّ هذه الخطبة جانب من حديث الإمام عليه السلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجّة عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقد قسمهم الإمام عليه السلام بادىء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صفوفهم، فئة شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، وفي القسم الثاني ذكّر أصحاب الصفين بأنّكم أنتم من فرضتم عليّ مسألة التحكيم، والحال كنت شديد المخالفة لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفي القسم الثالث أشار إلى مسألة وهى إننا كنّا في صدر الإسلام نقاتل قرابتنا حين كانوا في معسكر الكفر من أجل نصر الدين، وأمّا الآن فالذي يقف في المعسكر المقابل إخوتنا من

---

١. سند الخطبة:
نقل المرحوم الطبرسي في كتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد في هذه الخطبة ممّا يدل على أنّه أخذها من مصدر آخر، وقال ابن أبي الحديد إنّ هذا الكلام وإن كان متصلاً لكنّه يتألف في الواقع من ثلاثة أقسام منفصلة، وقد جرت عادة السيد الرضي على انتخاب الأفصح من الكلمات وحذف سائر الكلمات (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٧١).

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف الشرائط، وعليه فانّ علينا أن نـدفع الشبهة عنهم لتحل المشكلة.

القسم الأول

«أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى ٱلنَّاسَ، فَقَالَ:

أَمْسِكُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ ﷺ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ ﷺ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ ٱلْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، ٱسْتَقَالُونَا وَٱسْتَرَاحُوا إِلَىٰ كِتَابِ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ ٱلْقَبُولُ مِنْهُمْ وَٱلتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَىٰ شَأْنِكُمْ، وَٱلْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَىٰ ٱلْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَىٰ نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا. وَٱللّٰهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِيَ ٱللّٰهُ ذَنْبَهَا. وَوَٱللّٰهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ ٱلَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ ٱلْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ».

ﮪ

الشرح والتفسير

كيف وقعتم في فخ العدو

كما ذكرنا سابقاً فانّ المخاطب بهذه الخطبة هم خوارج النهروان الذين كلمهم الإمام ﷺ بهذا الكلام لإتمام الحجّة عليهم وهداية وإرشاد الفئة الضالة المنخدعة. فقال بادىء الأمر من

أجل إعدادهم: «**أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ**».

رغم أنّ المدّة بين معركة صفين ومقاتلة خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئة الثانية التي لم تشهد صفين بالفئة الأولى الباغية، وربّما أثرت عليها وساوس الفئة الأولى سمومها التي بثّتها بين أهل الكوفة فجعلتها تلتحق بها وتقف معها في مواقفها الفاسدة.

ثم قال ﷺ: «**فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ**».

فالعبارة تفيد أنّ المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فانّ الفصاحة والبلاغة تقتضي تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام ﷺ هذا النهج: «**وَنَادَى ٱلنَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ**[1] **شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا**».

فالذي يستفاد من هذه العبارة أنّ الخوارج أو جيش الإمام ﷺ ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنّهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام ﷺ إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود: «**ثُمَّ كَلَّمَهُمْ ﷺ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ ﷺ:**»[2].

فقد أخذ الإمام ﷺ أيديهم إلى الماضي القريب وذكّرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقة التي شهدت صفين: «**أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ ٱلْمَصَاحِفَ حِيلَةً وَغِيلَةً**[3]**، وَمَكْراً وَخَدِيعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، ٱسْتَقَالُونَا**[4] **وَٱسْتَرَاحُوا إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ ٱلْقَبُولُ مِنْهُمْ وَٱلتَّنْفِيسُ**[5] **عَنْهُمْ؟**».

بعد ذلك طرح الإمام ﷺ ردّه على تلك الخدعة: «**فَقُلْتُ لَكُمْ: هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ،**

---

١. «نشد»: من مادة «نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

٢. هل هذه الجملة للسيد الرضي أم كلام رواي الخطبة الذي نقل عنه السيد الرضي، لا يعلم بالضبط، لكن من المسلم به أنّ كلام الإمام ﷺ أكثر ممّا ورد في نهج البلاغة وقد اعتاد السيد الرضي على اقتطاف أفصح وأبلغه.

٣. «غيلة»: بمعنى «غدر».

٤. «استقالوا»: من مادة استقالة بمعنى عودة الشيء.

٥. «تنفيس»: بمعنى الكف والحل.

وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ».

وعليه: «**فَأَقِيمُوا عَلَىٰ شَأْنِكُمْ، وَٱلْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَىٰ ٱلْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَىٰ نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِن تُرِكَ ذَلَّ**».

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيتكم استجبتم لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم في الفتنة: «**وَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا**».

حقّاً، إنّه لمن دواعي العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط في اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتي أشرفت على تحقيق النصر النهائي حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والكفّ عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام ﷺ لم قبلت التحكيم، بدلاً من العودة إلى نفوسهم والاعتذار والهم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء).

الجدير بالذكر في هذا الأمر أنّ الإمام ﷺ ميز الخوارج في بداية الأمر إلى فرقتين، فرقة شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، لتتضح قضية وهى إن تمرّت الفرقة الثانية بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتم الأحداث؟ فما المنطق والأسس التي دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهموني بمسؤولية التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّة عليهم وعلى أُولئك الفريق الثاني الذي خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغي لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبة بما قدمت يداه نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام ﷺ حقيقة الموقف بصورة أخرى ليقسم بأنّه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤولية في الالتزام بلوازمها ولا يحملها الله سبحانه ذنبها ووزرها: «**وَٱللّٰهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَّلَنِيَ ٱللّٰهُ ذَنْبَهَا**».

إشارة إلى مراده: إن خالفت بشدّة مسألة التحكيم في بداية الأمر فذلك لكي لا أكون مسؤولاً تجاه لوازمها ولا يلحقني وزرها؛ لأنّ قضية التحكيم أدّت إلى تقوية حكومة

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدراج الرياح، فذلت دعاة الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال ﷺ إثر ذلك: «**وَوَاللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ**».

إشارة إلى أنّه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق في مسألة التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنازع أحدكم الآخر وشهر السيف في وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحة كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فوضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبي موسى الأشعري، لفشلت تلك المؤامرة وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر فهو جزئي محدود، لكنكم فرضتم عليَّ التحكيم وكذلك أجبرتموني على تحكيم أبي موسى الأشعري، فسقطتم في هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل عليَّ أن أتحمل مسؤولية تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذي نخلص إليه مّا مرّ معنا من كلام:

١ ـ أنّ الإمام ﷺ أقسم مرّتين في هذا المقطع من كلامه، سيّما في القسم الثاني الذي أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

٢ ـ ما بيّنه الإمام ﷺ في القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده في مسألة للتحكيم، بل إشارة إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّة في البداية، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيلة خطيرة، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّا التحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنة وإبعاداً للفرقة والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته في بداية الأمر وموافقته تستند إلى الحكمة، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبي موسى الأشعري لما كانت المشاكل بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفض هو الذي أدّىٰ إلى عقم نتائج معركة صفين والامتياز الذي حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءاً على هذا فانّ هذه الفئة المتعصبة أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنّهم استجيب للتحكيم؟!

لكن وعلى كل حال، فانّ منطق الإمام ﷺ بهذا الخصوص قد أتى أكله فعادت طائفة عظيمة من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرّحت كتب التاريخ بأنّ الأغلبية الساحقة من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلّتها.

نبذة عن شخصية معاوية

إنّ الأعمال التي مارسها معاوية طيلة تاريخ حياته ولا سيما في مدّة حكومته لتكشف حقيقة واضحة لكل فرد منصف في أنّه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهمّ بنشر الإسلام، بل كان جلّ همّه ترسيخ دعائم حكومته المتزلزلة، ومن هنا فقد اعتمد كافة الأساليب التي يلجأ إليها جبابرة الدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشارة إليه في هذا المجال إنّما يتمثل برفعه لقميص عثمان في الشام وذرف دموع التماسيح على الخليفة المقتول ظلماً بهدف إثارة الناس للتمرد على أميرالمؤمنين علي ﷺ وسفك دماء المسلمين، إلى جانب إغداق الرشاوي الضخمة على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام علي ﷺ وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكذلك توجيه الأراذل إلى مختلف نواحي البلاد الإسلامية لنهب الثروات وإشاعة أجواء التوتر القلق. ولعل قضية رفع المصاحف وحملها على أسنة الرماح تعدّ واحدة من تلك الأساليب، فمعاوية لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومة، كما ذكر شرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية قام بوجه أميرالمؤمنين علي ﷺ في البداية تحت شعار الطلب بدم عثمان، إلّا أنّه لم يصطدم قط بقتلة عثمان بعد ظهوره عليهم، فقد كان يقول أحياناً، ألست من قتلة عثمان؟ وأحياناً أخرى كان يسكت، ويغدق عليهم العطاء (هذا ما نقله العقاد في كتاب «معاوية» ونقل عبدالكريم الخطيب عن كتاب «علي بن أبي طالب ﷺ» أنّ عائشة بنت عثمان طالبت معاوية بالقصاص من قتلة أبيها.

فأجابها معاوية: «**لأنْ تَكُونِي إبنَةُ عَمِّ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ خَيرٌ مِنْ أَنْ تَكُونِي امرأَةً مِنْ عَرَضِ النَّاسِ**» مراده أنّ قضية الطلب بَدِمِ عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

حكومة وقد حصل هذا الأمر، ولعل المطالبة بدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلّا الإكتفاء والقناعة بأنّك ابنة عمي، ابنة عم حاكم المسلمين طبعاً. يمكن التعرف على شخصية معاوية من خلال مقربيه، فقد ذكر العقاد، أنّ عمرو بن العاص قال يوماً لمعاوية: «**أتَرىٰ أننا خالَفنا عَلِياً لِفَضلِنا؟ لا وَاللهِ إنْ هِيَ إلّا الدُّنيا نَتَكالَبُ عَلَيها**»، أي ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعة.

وذكر ابن الأثير أن سعد بن أبي وقاص قال لمعاوية: «**السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها المَلِك**».

فقال معاوية: «**لِمَ لَم تُسَلِّم عَلَيَّ بأمير المؤمِنينَ**».

فأجاب سعد قائلاً: «**وَاللهِ إنّي ما أُحِبُّ إنْ وَلَّيتُها بِما وَلَّيتَها**».

ومراده أنّك ولّيتها بالمكر والحيلة[1].

ﮂﮃ

---

١. في ظلال نهج البلاغة، للمرحوم محمد جواد مغنية، ذيل الخطبة التي بحثها ٢٢٢/٢.

القسم الثاني

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ ٱلْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَىٰ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأَبْنَاءِ وَٱلْإِخْوَانِ وَٱلْقَرَابَاتِ [الأقرباء]، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَىٰ ٱلْحَقِّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ ٱلْجِرَاحِ. وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي ٱلْإِسْلَامِ عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ ٱلزَّيْغِ وَٱلِاعْوِجَاجِ، وَٱلشُّبْهَةِ وَٱلتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ ٱللَّهُ بِهَا شَعَثَنَا، وَنَتَدَانَىٰ بِهَا إِلَىٰ ٱلْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا».

٨٠٣

الشرح والتفسير

بذلنا ما في الوسع من أجل الوحدة

يختتم الإمام ﵇ خطبته بالإجابة المنطقية لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام ﵇ إلى التحكيم؟ لِمَ لا نقاتل الأعداء إلى آخر نفس على غرار ما فعله المسلمون من صحابة النبي ﷺ في صدر الإسلام؟ هل أذعن النبي الأكرم ﷺ لمسألة التحكيم؟ فقد أوضح الإمام ﵇ حقيقة في إجابته على أولئك بأنّ زماننا يختلف تماماً عن زمان النبي ﷺ، ومن نقاتلهم الآن طائفة من المسلمين المخدوعين، والحال كان أعداؤنا في صدر الإسلام هم الكفّار والمشركون الذين وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال ﵇: «**فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ ٱلْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَىٰ ٱلْآبَاءِ وَٱلْأَبْنَاءِ وَٱلْإِخْوَانِ وَٱلْقَرَابَاتِ [الأقرباء]، فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا**

إيمَاناً، وَمُضِيّاً عَلَىٰ ٱلحَقّ، وَتَسْلِيماً لِلْأَمْرِ، وَصَبْراً عَلَىٰ مَضَضِ[1] ٱلجِرَاحِ».

نعم، لقد كنّا نهجم بشدّة آنذاك على العدو، وإن كان فيهم إخواننا وقرابتنا، فالمصاب وإن عظم علينا، لكن حيث كان ذلك يأمر فقد كنّا نزداد إيماناً، ولم نجابه كل مصائب المعارك وجراحاتها إلّا بالصبر والشكر: «**وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي ٱلْإِسْلَامِ عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ ٱلزَّيْغِ وَٱلاِعْوِجَاجِ، وَٱلشُّبْهَةِ وَٱلتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ[2] ٱللّٰهُ بِهَا شَعَثَنَا[3]، وَنَتَدَانَىٰ بِهَا إِلَىٰ ٱلْبَقِيَّةِ فِيما بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا**».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أن قياس زمانه بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله هو قياس مع الفارق، وذلك لأنّ القتال ذلك الزمان كان يدور مع العدو الخارجي، بينما أصبح زمان الإمام عليه السلام ضد الأصدقاء المخدوعين والمنحرفين من الداخل. فالواقع يستند موقف الإمام عليه السلام في قبول التحكيم إلى الآية الشريفة: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[4].

صحيح أنّ أصل مسألة التحكيم خدعة ولم يكن أمراء جيش الشام يعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب كان الإمام شديد المخالفة في بادىء الأمر، لكنّه استجاب لذلك الأمر بعد ذلك الضغط الشديد الذي مارسه السواد الأعظم المخدوع من جيشه مع ذلك كان بالإمكان أن تتمخض مسألة التحكيم عن نتائج مرضية لو خضعت لقيادة سليمة. ولكن كما نعلم فانّ ضغوط الجهّال قد دفعوا التحكيم إلى مسار لا يجر عليهم سوى الضرر والخسارة.

---

١. «مضض»: الألم والحرقة.
٢. «يلمّ»: من مادة «لمّ» على وزن غمّ بمعنى جمع، وتأتي أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.
٣. «شعث»: وردت في الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.
٤. سورة الحجرات / ٩.

الخطبة[1] ١٢٣

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ

قاله لأصحابه في ساحة [ساعة] الحرب «بصفّين»

نظرة إلى الخطبة

هذه الخطبة جزء من خطبه طويلة إقتطف المرحوم السيد الرضي بعضها، وقد تضمنت إشارة إلى بعض النقاط المهمّة، وهي:

١ ـ يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقة في القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.

٢ ـ إنّ الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشية الموت هم على خطأ، لأنّه لا يمكن الفرار من الموت الذي يدرك الجميع أينا كانوا.

---

١. سند الخطبة:
يمكن التعرف على هذا الكلام بصورة متفرقة في سائر الكتب، ومنها:
١ ـ الكافي في باب فضل الجهاد.
٢ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه.
٣ ـ الجمل للشيخ المفيد نقلاً عن كتاب الجمل للواقدي.
٤ ـ الإرساد للشيخ المفيد.
٥ ـ تجارب الأمم لابن مسكويه طبق نقل تأسيس الشيعة.
٦ ـ الآمالي للشيخ الطوسي.
(مصادر نهج البلاغة ٢٧٣/٢).

٣ـ لا موت أشرف وأكرم من الشهادة، فألف ضربة بالسيف خير من ميتة على الفراش.

٤ ـ إخبار عن هوان أهل الكوفة وذلّهم في المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم في مواجـهة الظلمة.

القسم اول

«وَأَيُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ ٱلَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ ٱللّٰهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ ٱلْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ ٱلْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ ٱلْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ ٱلْمَوْتِ ٱلْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى ٱلْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ ٱللّٰهِ!».

الشرح والتفسير

شكر القدرة

يشتمل هذا الكلام ـ سواء أورده الإمام ﷺ على أعتاب معركة الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرّح به بعض المحققين على هامش معركة الجمل بعد ضجة معسكر عائشة، أو في المعركتين وذلك لأنّه يتناسب مع كل مهما ـ على نقاط مهمّة وردت ثلاث منها في هذا القسم من الخطبة:

الأولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحدّ من جسامة الخسائر، فقد قال ﷺ: **«وَأَيُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ[1] جَأْشٍ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ[2] ٱلَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ».**

---

١. «رباطة جأش»: جأش على وزن عرش والرباطة الربط بإحكام، فالمراد بالعبارة قوّة القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجأش القلب والصدر.

٢. «نجدة»: من مادة «نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعة.

ثم أضاف ﷺ: «**فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ**».

فان وهبه القوّة والصلابة فقد وجب عليه الشكر، والمراد أنّ أفعال الله وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فن تمتع بنعم كثيرة وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدّي بذلك الشكر العملي للنعمة.

والثانية: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فانّ ذلك يؤدّي إلى إحباط الجميع، وذلك لأنّ العدو إنّما يهجم على الجانب الذي يشعر بضعفه، فانّ اخترقه وقضى عليه، إلتف ليحاصر باقي العسكر، وعليه وإضافة لمسألة الشكر فانّ فنون القتال وسياسة المعركة تتطلب من الأجنحة القوية من العسكر شد ظهور الأجنحة الضعيفة وعدم التواني في الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيّما إذا استطاع العدو أن يشلّ حركة طائفة من الجيش، فانّه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام ﷺ صوب نقطة مهمّة أخرى وهي ضرورة ألا يتصور أحد أنّه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب: «**إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ**».

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمي، وموت معلّق أو مشروط، والذي لا يمكن تغييره هو الموت الحتمي، أمّا الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت في ساحة القتال ليس من الموت الحتمي فكيف إستدل الإمام ﷺ بهذه المسألة وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أنّ الإمام ﷺ ناظر للموت الحتمي فقط سواء في ساحة القتال أو غير ساحة القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثاني: على فرض أنّ الإنسان يستطيع الهروب من مخالب الموت المشروط أو المعلّق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمي بالتالي سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغي للإنسان أن يستسلم للظلمة في مقابل البقاء عدّة أيّام[1].

---

١. مرّ علينا بالتفصيل بحث الموت الحتمي والمعلّق في المجلد الثالث من هذا الكتاب.

ثم أشار الإمام ﷺ إلى نقطة مهمّة وقيّمة فقال: «**إِنَّ أَكْرَمَ ٱلْمَوْتِ ٱلْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ[1] عَلَى ٱلْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ ٱللّٰهِ!**».

فالعبارة تفيد عظمة مقام الشهداء إلى درجة أنّ الإمام ﷺ يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربة بالسيف يؤثرها على ميتة الفراش الطبيعية، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعني العبارة أنّي لا أشعر بألم ضربات السيف ـ كما ذهب إلى لذلك بعض شرّاح نهج البلاغة ـ بل المراد أنّ الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوي أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلاً من الموت الطبيعي على الفراش، لأنّ وسام الشهادة يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناة، ولا ننسى هنا الروايات التي صرّحت بأنّ الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامة من دينه، وهو الأمر الذي أشار إليه الإمام ﷺ في آخر العبارة.

الشهادة عرس الأبطال

الشهادة من القيم السامية التي تضمنتها الثقافة الإسلامية، والشهيد يمثل قمة المرتبة الإنسانية، وأولياء الله كما أورد الإمام ﷺ في هذه الخطبة يفكرون دائماً بالشهادة ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهادة أفضل ألف مرّة من ميتة على فراش، وكانوا مستعدين لتلقي آلاف الضربات والفوز بالشهادة دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هدية إلهيّة، وما أروع أن تبذل هذه الهدية في سبيل الله سبحانه، لا أنّ تذهب هدراً في الموت.

ويكفي في فضل الشهادة ما ورد في حيث النبي الأكرم ﷺ حين شاهد فرداً يدعو الله تعالى قائلاً: «**اللّهمّ إنّي أسألك خير ما تُسألُ فاعطِني أفضل ما تُعطِي**».

---

١. «ميتة»: بكسر الميم بمعنى كيفية الموت، والميتة بفتح الميم الشخص الميت (بدلاً من الالتفات هنا إلى ميت مذكر ومؤنث ميتة).

فقال ﷺ: «إنْ أُستُجِيبَ لَكَ أُهرِيقَ دَمُكَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[١].

كما ورد في حديث آخر عنه ﷺ أنّه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدخُلُ الجَنَّةَ فَيَتَمنَّىٰ أَنْ يَخْرُجَ مَنهَا إلّا الشَّهِيدُ فَإنَّهُ يَتَمنَّىٰ أَنْ يَرجَعَ فَيُقتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ مِمَّا يَرىٰ مِنْ كَرامَةَ اللهِ»[٢].

نعم، مقام الشهداء رفيع جداً في التعاليم الإسلامية، وهم الذين حفظوا الإسلام حين الخطر، ولولا تضحيات الشهداء كشهداء بدر وأُحد وشهداء كربلاء لما بقي من الإسلام اليوم شيئاً سوى اسمه، ويعيش أعداء الإسلام اليوم حالة من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها في الإسلام، وذلك لأنّ الشهيد قد يبدد في لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التي تستوعب تكاليفاً باهضة.

أضف إلى ذلك فهم لا يمتلكون أي سلاح يمكنهم من مواجهة هذا السلاح، سمع أخيراً أنّ الدوائر الصيهوينة وإثر عجزها عن مواجهة انتفاضة الشعب الفلسطيني، قد أكدت على ضرورة إجتثاث جذور ثقافة التفكير بالشهادة، لابدّ من اسقاط مفردة الشهادة من كتاب الدراسة المتوسطة والثانوية، كما لابدّ من إزالة الآيات القرآنية المتعلقة بالشهادة من الكتب الدينية، ومن المؤكد أنّ البلدان الإسلامية العميلة وما أكثرهم قد ساروا على هذا النهج، وقد اصطلحوا على الشهادة بالإنتحار والشهيد بالإرهابي لتشويه هذه المفردة الطيبة، لكن ولحسن الحظ فانّ هذه الثقافة قد إتسعت وترسخت بحيث لا يسع هذه الدعايات الوقوف بوجهها، حتى سارع إليها العديد من الشباب والشابات، وهذا ما يشكل أعظم خطر على أعداء الإسلام، نأمل أن يتعرف المسلمون أكثر فأكثر على هذه القيمة السامية التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

———

١. مستدرك الوسائل ١١/١٣، ح ٢١.

٢. المصدر السابق، ح ٢.

القسم الثاني

و منه: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ ٱلضِّبَابِ: لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً. قَدْ خُلِّيتُمْ وَٱلطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَٱلْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ».

الشرح والتفسير

عاقبة السوء

يرى البعض من شرّاح نهج البلاغة أنّ هذا الكلام مستقل، ومن هنا ذكره بصورة مستقلة، بينما يراه البعض الآخر استمرار للكلام السباق، فمن ذكره بصورة مستقلة استدلّ بعدم وجود إرتباط بين هذا المقطع والمقطع السابق، حيث حث الإمام ﷺ أصحابه في المقطع السابق على الجهاد والقتال ببسالة، بينما جرى الكلام في هذا المقطع عن الهزيمة والفرار، وليس هنالك من إنسجام بين هذين المقطعين، ولكن بالنظر إلى أنّ هذا المقطع يخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذي لا يكون فيه الإمام ﷺ بين ظهرانيهم ويشهدون حالة من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذلّة، وعليه يمكن تصور إرتباط بين هذا المقطع وسابقه.

ولكن على حال سواء كان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو كلام الإمام ﷺ ويخبر عن المصير المرير لأفراد يوثرون العافية والدعة على الجهاد، فقال: «**وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ ٱلضِّبَابِ**[1]».

فالعبارة يمكن أن تكون إشارة إلى الحيوانات المعروفة الضباب جمع ضب بالكسر والتي إن تحركت بصورة جماعية اضطربت وإحتك بعضها بالبعض الآخر فيظهر من هذا الاحتكاك

1. «كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذي لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقة.

صوتاً، والمراد أنّكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إندك بعضكم بالبعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام: «لَا تَأْخُذُونَ حَقّاً، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً[1]».

أي حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجة من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقّه أو عن صحبه وقرابته وإخوته في الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذي يوجه إليه وإلى الآخرين، حقّاً إنّها لحالة مؤلمة مهينة.

ثم إختتم خطبته بالقول: «قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ[2]».

فالعبارة قد خليتم والطريق تشير إلى إتمام الحجة الكاملة، فقد بيّن الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التي تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجة لمن يقصّر في هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعادة، بينما هدد المتباطىء بالهلكة.

---

١. «ضيم»: بمعنى الظلم.

٢. «متلوم»: من مادة «تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

الخطبة[1] ١٢٤

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

في حث أصحابه على القتال

نظرة إلى الخطبة

وردت هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها بشأن حث الإمام عليه السلام لأصحابه على الجهاد، وذلك لأنّه حسب تصريح شرّاح نهج البلاغة أنّها وردت قبل معركة صفين، ومن هنا تضمنت إشارة إلى بعض الأمور المهمّة:

١ـ ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مطالب دقيقة بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السبل في مجابهة العدو، بحيث يمكن التوصل إلى النتائج بأقلّ الخسائر.

٢ـ حذر أصحابه في المقطع الآخر من الخطبة وضمن مدحه لمقاتليه من الفرار الذي يستتبع الفضيحة والعار، كما يتطرق إلى ذكر مقامات الشهداء.

٣ـ يلعن في المقطع الثالث أعدائه ويقوي عن هذا الطريق عزائم أصحابه المجاهدين.

---

١. سند الخطبة:
نقل هذه الخطبة نصر بن مزاحم المتوفى عام ٢٠٢ ق في كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبري في تاريخه عن أبي مخنف في حوادث عام ٣٧ هـ كما وردت في كتاب الجهاد عن الكافي وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (مصادر نهج البلاغة ٢٧٧/٢).

القسم الأول

«فَقَدِّمُوا ٱلدَّارِعَ، وَأَخِّرُوا ٱلْحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَىٰ ٱلْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ لِلسُّيُوفِ عَنِ ٱلْهَامِ؛ وَٱلْتَوُوا فِي أَطْرَافِ ٱلرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ لِلْأَسِنَّةِ؛ وَغُضُّوا ٱلْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا ٱلْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَٱلْمَانِعِينَ ٱلذِّمَارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ ٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ هُمُ ٱلَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأَ ٱمْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَىٰ أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَىٰ أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ».

الشرح والتفسير

سبع وصايا في فنون القتال

يرى بعض كبار المحدثين أنّ هذه الخطبة تبتدأ كالآتي: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ دَلَّكُم عَلَى تِجارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ وَتُشفِي بِكُم عَلَى الخَيرِ الإِيمانُ بِاللهِ وَالجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَجَعَلَ ثَوابَهُ مَغفِرَةً لِلذَّنْبِ وَمَساكِنَ طَيِّبَةٍ فِي جَنّاتِ عَدْنٍ وَقالَ عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[1] فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ...»[2].

ثم أشار في مواصلته لهذا الكلام إلى سبع وصايا هامّة في فنون تحقيق النصر، فقال في

1. سورة الصف / ٤.
2. الكافي ٣٩/٥، ح ٤.

وصيّته الأُولى بهذا الشأن: «**فَقَدِّمُوا اَلدَّارِعَ**[١]**، وَأَخِّرُوا اَلْحَاسِرَ**[٢]».

فمن الطبيعي أن يكون قليلاً هو الضرر الذي يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذي يستفاد من هذه العبارة وجود فئة في ميدان القتال لم ترتدي الدرع، وذلك إمّا يعود إلى الأزمات والمشاكل التي يعيشها المجتمع الإسلامي، أو أنّ إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته في ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال ﷺ في وصيّة الثانية: «**وَعَضُّوا عَلَىٰ اَلْأَضْرَاسِ**[٣]**، فَإِنَّهُ أَنْبَىٰ**[٤] **لِلسُّيُوفِ عَنِ اَلْهَامِ**[٥]».

وكما ذكرنا في شرح الخطبة الحادية عشرة أنّ لهذه الخطبة فائدتان، الأُولى إزالة الخوف والرعب، أو الحدّ من هذا الخوف إلى أقلّ درجة، ومن هنا فانّ الإنسان يعمد إلى إطباق أسنانه على بعضها حين الخوف بهدف إزالته، والأخرى تبقي على صلابة عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال في الوصيّة الثالثة: «**وَاَلْتَوُوا**[٦] **فِي أَطْرَافِ اَلرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ**[٧] **لِلْأَسِنَّةِ**».

والوصيّة أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرميك تحرك يميناً وشمالاً، أي عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة أشار أنّ المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربة على العدو، فانّ ذلك يضاعف من دقّة الحربة لمواجهة ضد جسد العدو، لكن

---

١. «الداع»: بمعنى لابس الدرع من مادة درع على وزن فعل.

٢. «الحاسر»: من لا درع له من مادة حسر على وزن عصر بمعنى العري.

٣. «أضراس»: جمع «ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

٤. «أنبي»: من مادة «نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

٥. «الهام»: جمع «هامة» على وزن قامة رأس الإنسان أو رأس أي موجود حي.

٦. «التووا»: من مادة «النواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

٧. «أمور»: من مادة «مور» على وزن غور بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

بالإلتفات إلى الوصايا السابقة واللاحقة هـذه الوصية والتي تبيّن فنون الدفاع، فـانّ المـعنى الأول يبدو هو الأنسب، لا سيّما التعبير بالحرف في لا يتناسب والمعنى الثاني، بينما يتناسب ما إخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من مادة مور والذي يعني الاضطراب.

وقال في الوصيّة الرابعة بعض النظر (وعدم النظر إلى كثرة العدو وآخره) فذلك أسكـن للقلب: «**وَغُضُّوا اَلْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ**[١]**، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ**».

تختلف هذه الوصيّة عن سابقاتها لاشتمالها على بعد نفسي ونعلم جميعاً أنّ روحية الجنود كلما كانت مرتفعة كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكّد الإمام ﷺ هذا المعنى مراراً وقد مرّ علينا نموذج ذلك في الخطبة ١١ و ٦٦.

وقال في الوصية الخامسة: «**وَأَمِيتُوا اَلْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ**».

من الطبيعي أنّ الإنسان حين ينشغل بالحديث فانّه يستهلك جانباً مـن قـواه الفكـرية وكذلك جانباً من طاقته البدنية ويحد من تـركيزه الفكـري والالتـفات إلى حمـلات العـدو المبرمجة. ومن هنا فانّ العدو الصامت البعيد عن الضوضاء والضجيج يبدو أخطر من غيره. ولذلك ورد بشأن معركة بدر أنّ قريش تعجبت من قلّة عدد جيش الإسلام وتـصورت أنّ عدد المسلمين أكثر ممّـا ترى ولعلهم إختفوا خلف التلة حيث يردون ميدان القتال في الوقت المناسب، فبعثوا بعمير بن وهب لينظر أطراف الميدان، فركب فرسه وجعل ينظر حول الصحرا ولم ير شيئاً، فعاد وقال: عدد المسلمين يقارب الثلاثمائة، إلّا أنّي رأيتهم مستعدين للقتال ولا يقوى أحد على مواجهتهم، أمّا ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمذون تلمذ الأفاعي مـا لهـم ملجأ إلّا سيوفهم وما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم[٢].

وقال في الوصيّة السادسة: «**وَرَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا وَلاَ تُخِلُّوهَا**[٣] **وَلاَ تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَاَلْمَانِعِينَ اَلذِّمَارَ**[٤] **مِنْكُمْ**».

---

١. فسرّت هذه المفردة سابقاً.
٢. منتهى الآمال، ج ١، وقائع العام الهجري الثاني.
٣. «تخلّوا»: من مادة «تخلية» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء، لأنّها من باب التفعيل.
٤. «ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

ثم أتمّ كلامه باستدلال منطق قائلاً: «**فَإِنَّ ٱلصَّابِرِينَ عَلَىٰ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ**[١] **هُمُ ٱلَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا: حِفَافَيْهَا**[٢]**، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا**».

كان للراية أهميّة خاصة في ميدان القتال في الأزمنة الماضية، وذلك لدورها في إرتباط الصفوف والتحامها، وحين كان ينهمك المقاتلون وسط الميدان وجوانبه بالقتال، كانوا يلتفون حين الضرورة حول الراية لإعادة تنظيم صفوفهم وشن الحملات من جديد، وإن سقطت الراية اضطرب العسكر وأحياناً كان ينهار، ولذلك ترى العدو يسعى جاهداً للإحاطة بالراية، بينما يحاول الطرف الآخر الابقاء على الراية مرفوعة وهو يدافع عنها بكلّ ما أُوتي من قوّة، فقد كان سقوطها يعني الهزيمة، وزبدة الكلام فانّ انتصاب الراية دليل على القدرة وسبب قوّة وعزيمة المقاتلين وحلقة اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفك الإمام عليه السلام عن التأكيد وصاياه بحفظ الراية، حيث أكد من جهة ضرورة ثبوت موضع الراية وأنّ حماتها من أشجع الأفراد، ومن جهة أُخرى يوصي حملة الراية بعدم التخلي عنها ومراقبتها من جميع الجهات، لا أنّ يتخلفوا عنها ولا يتقدمواعليها، ويضحوا بالغالي والنفيس من أجل حفظها بفضلها علامة الاقتدار والشموخ وورد في شأن غزوة خيبر التي.لف الفريقان بخصوصها عشرات الروايات أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعطى الراية في اليوم الأول إلى أبي بكر فلم يتمكن من فتح قلاعها، وفي اليوم الثاني أعطاها عمر بن الخطاب، فلم يفلح، فقال صلى الله عليه وآله: «**لَأُعطِيَنَ الرايةَ غداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ كَرّارٌ غيرُ فَرّارٍ يَفتَحِ اللهُ عَلَيهِ**»[٣].

فامتدت الأعناق في اليوم التالي ليروا من هو ذلك الرجل، وقد تمنى كل فرد (شجاع) أن يكون هو المعني فيعطيه رسول الله صلى الله عليه وآله الراية، نادى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وسلّمه الراية فلم

١. «الحقائق»: جمع «حاقة» على وزن جادة النازلة الشديدة.

٢. «حفافي»: مثنى «حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشيء وحفافيها هنا إشارة إلى جانبي الراية يمينها وشمالها.

٣. الكامل لابن الأثير ٢١٩/٢، وتفسير الثعلبي (طبق نقل غاية المرام، ٤٦٧/) وصحيح مسلم، ج ٤ كتاب الفضائل الصحبة الحديث ٣٢؛ صحيح البخاري ١٧١/٥ باب غزوة خيبر (طبعاً ذكرت الجملة الأخيرة فقط بشأن علي عليه السلام في صحيح البخاري مسلم).

يرجع إلّا بعد أن فتح خيبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة على الأهميّة الفائقة للراية وحاملها في ذلك الزمان، وقد تكرر نفس هذا المعنى في عصر علي عليه السلام مالك الأشتر النخعي وقال له علمت بوقوفك في القتال وشجاعتك ولولا ذلك لدفعت الراية إلى غيرك، فردّ عليه بالقول: «**لأسرنّك اليوم يا مالك أو أُقتل شهيداً**»[1].

ثم أشار الإمام عليه السلام في وصيّته السابعة والأخيرة إلى قضية أخرى من تكتيكات الحرب أنذاك فقال: «**أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ[2]، وَآسَىٰ[3] أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَىٰ أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ**».

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصورة صحيحة على وضع الحروب في ذلك الزمان، فقد كانت للمعركة في ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث في نفس المعركة):

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانية: أن يتقدم الميدان عدّة أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثة: أن تدور المعركة بين المعسكرين بأكملها طبعاً هناك صورة رابعة تكون المعركة فيها غادرة كأن تنهال طائفة على فرد فتنزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصورة الثانية التي يبرز فيها عدّة أفراد إلى أمثالهم، وفي هذه الحالة لا ينبغي لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعي المساواة والمواساة وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبرة الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

---

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري ٥٥٨/١٣.

٢. «قرن»: الكفؤ وعدل الإنسان في الشجاعة في ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق في الأصل من قرن بفتح القاف والاقتران الذي يعني الاقتراب بين شيئين أو عدة أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفة من الأجيال مع بعضها.

٣. «آسى»: من مادة «وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساة تعني المعاضدة ومساعدة كل واحد الآخر.

القسم الثاني

«وَايْمُ اللّٰهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللّٰهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ [محجوب] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. [مَن] الرَّائِحُ إِلَى اللّٰهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ! وَاللّٰهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

الجنّة تحت ظلال السيوف

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب في ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخرى يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابية يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم على الثواب والأجر الأُخروي، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبة في ثلاثه محاور هي: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال على مستوى المحور الأول: «**وَايْمُ اللّٰهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ، لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ**».

فالعبارة سيف الآخرة إشارة إلى عذاب الله الذي يشمل الفارّين من ميدان الجهاد، ولا شك أنّ الفرار من الزحف من الكبائر، وذلك لأنّ فرار عدّة أفراد يؤدّي إلى هزيمة عسكر جرّار ويقود حضارة عريقة إلى السقوط والإنهيار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجعة إلى

الإسلام، ثم قال على مستوى المحور الثاني، أي المدح والثناء: «وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ[١] الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ[٢] الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرارِ مَوْجِدَةَ[٣] اللهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ[٤] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ».

فهو يعدهم من جانب بصفتهم مبرزي شخصيات العرب التي تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساوىء عار الفرار وهي الغضب الإلهي والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، على صعيد آخر ذكرّهم بهذه النقطة وهي إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فانّ هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنّه لا محيص من المهات واليوم الذي قدرّ فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنّه يحصل على عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أنّ الأمر كذلك فما قيمة هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثلة بغضب الله والذل والهوان الأبدي، وقد خاطب القرآن الكريم أُولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم في جبهات القتال قائلاً: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...﴾.[٥]

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بعبارة قصيرة عميقة المعنى تهدف حثهم على جهاد العدو فقال: «مَنِ الرَّائِحُ[٦] إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي[٧]!».

وأخيراً قال عليه السلام بأنّ اليوم تبلى أخبار وأعمال كلّ فرد ويتميز فيها الغث من السمين: «الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ!».

العبارة من الرائح إلى الله سبحانه إشارة إلى الأفراد الذين يقبلون بكلّ شوق ورغبة وعشق الشهادة، كعشق العطشان إلى الماء الزلال.

---

١. «لهاميم»: جمع «لهموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيل.

٢. «سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شيء بارز.

٣. «موجدة»: من مادة «وجد» علت وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.

٤. «محجوز»: من مادة «حجز» بمعنى المنع.

٥. سورة آل عمران / ١٥٤.

٦. «رائح»: من مادة «رواح» الاندفاع بسرعة خلف شيء.

٧. «العوالي»: جمع «العالية» تعني أسنة الرماح، كما تعني الرمح.

وقد أورد الإمام عليه السلام شبيه هذا المعنى في وصيّته قبل الشهادة وبعد ضربته حيث قال: «**وَمَا كُنْتُ إلّاكَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ...**»[1]. والعبارة اليوم تبلى الأخبار هى في الواقع إقتباس من الآية ٣١ من سورة محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾.

والفردة أخبار إمّا تعني الأعمال أوالكلام والزعم والتي تبلى جميعاً في ميدان الجهاد، والعبارة: «**اَلْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي!**». تشبه العبارة التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وآله في ميدان معركة أحد، حيث قال: «**الجَنَّةُ تَحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**».

الجدير بالذكر أنّ أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده تميرات يلوكها، فقال: بخ بخ! ليس بيني وبين الجنّة إلّا هذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل[2].

ثم قال في العبارة الأخيرة من أجل حث صحبه على الجهاد: «**وَاللّٰهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَىٰ لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ**». بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرصون على العودة إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعدالة، فالمراد هلموا لكل رغبة لميدان الجهاد واعلموا أنّ النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٢٣.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/٨ الحديث (الجنّة تحت ظلال السيوف)، كما ورد الحديث في بحار الانوار ١٣/٩٧.

القسم الثالث

«اَللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا اَلْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ، يَخْرُجُ مِنْهُمُ [مِنْهُ] اَلنَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ اَلْهَامَ، وَيُطِيحُ اَلْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ اَلسَّوَاعِدَ وَاَلْأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا اَلْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا اَلْحَلَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ اَلْخَمِيسُ يَتْلُوهُ اَلْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ اَلْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ».

الشرح والتفسير

القضاء على آخر معاقل العدو

خاض الإمام علي ﷺ في هذا المقطع ـ الذي يمثل المقطع الأخير من الخطبة ـ في أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهو الدعاء الذي يجر عليهم الهزيمة والعذاب الإلهي ويشدّ من عزيمة صحبه ويضاعف إرادتهم فقال: **«اَللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا اَلْحَقَّ فَافْضُضْ[1] جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ[2] بِخَطَايَاهُمْ»**.

جدير ذكره أنّ الإمام ﷺ اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأنّ الهدف النهائي من هذا القتال لا يكمن في الاستيلاء على العدو والسلطة، بل ليس للإمام ﷺ من هدف سوى قبول الحق، فانّ قبله انتفت الحرب، وهذه هي فلسفة قتال دعاة الحق وأهل الإيمان طيلة التاريخ.

---

١. «افضض»: من مادة «فضّ» على وزن خط بمعنى الهزيمة.

٢. «أبسل»: من مادة «بسل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشيء أو القهر والغلبة والإبسال بمعنى التسليم للهلكة والعبارة إشارة إلى هذا المعنى.

والأمر الآخر: هو أنّ الإمام ﷺ ذكر اختلاف الكلمة ضمن دعائه كوسيلة لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفي القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبة أشار إلى وصيّة قتالية مهمّة أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجعة إلى العدو وأن تقوم كل فرقة من العسكر بمهمتها الخاصة ومتابعة العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلاً: «**إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ**[1]**، يَخْرُجُ مِنْهُمُ ٱلنَّسِيمُ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ ٱلْهَامَ، وَيُطِيحُ**[2] **ٱلْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ**[3] **ٱلسَّوَاعِدَ وَٱلْأَقْدَامَ**».

ثم واصل ﷺ حديثه مؤكداً على ضرورة شن الهجمات عليهم تلو الهجمات وأن تتبنى فرقة مطاردتهم ورميهم بالسهام، وأن تعاضد كل فئة الأُخرى وتحمل على العدو، كما يقوم الفرسان بمطاردتهم حتى المدن حتى تتدوس حوافر خيلكم آخر نقطة في أرضهم والاستيلاء على مسار الذهاب والأياب والطرق المراي من كل جانب: «**وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ**[4] **تَتْبَعُهَا ٱلْمَنَاسِرُ؛ وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ**[5]**، تَقْفُوهَا ٱلْحَلَائِبُ**[6]**؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلَادِهِمُ الْخَمِيسُ**[7] **يَتْلُوهُ ٱلْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ**[8] **ٱلْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ**[9] **أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ**[10] **مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ**[11]».

---

١. «دراك»: من مادة «درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فانّ طعن الدراك بمعنى السهام التي تطلق تبعاً على العدو.

٢. «يطيح»: من مادة «إطاحة» بمعنى الاسقاط.

٣. «يندر»: من مادة «اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.

٤. «مناسر»: جمع «منسر» على وزن محفل القطعة من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليها الطليعة، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.

٥. «كتائب»: جمع «كتيبة» طائفة من الجيش من مئة إلى ألف.

٦. «الحلائب»: جمع «حليبة أو حلوبة» بمعنى الجماعة التي تجتمع على صوب، كما تطلق على الخيّالة.

٧. «الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذي يتألف من خمسة أقسام، المقدّمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة.

٨ سيأتي تفسير كلمة «تدعق» في كلام السيد الرضي.

٩. سيأتي تفسير كلمة «نواحر» في كلام السيد الرضي.

١٠. «أعنان»: قال صاحب لسان العرب جمع «عنن» على وزن كفن بمعنى نواحي الشيء وأطرافه.

١١. «مسارب»: جمع «مسربة» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعي، إلّا أن بعض شرّاح نهج البلاغة

فقد علم الإمام ﷺ في هذه الخطبة جنوده الآداب الفردية للقتال، وفي القسم الأخير الآداب الجماعية في كيفية عمل الكتائب والفرق والخيّالة والمشاة وتنسيقها فيما بينهما تجاه العدو والاعتماد على الأساليب العلمية في القضاء على العدو، ومن النقاط المهمّة التي تطرق إليها الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة هى عدم التواني في إتمام النصر على العدو، وربّما كانت للإنسحابات أبعاد المباغتة، والهدف تشديد الحملات. فلا يدمي تعقيب العدو إلى أقصى نقاط مناطقة والاستيلاء على كل مكان ليزول بالمرة أي احتمال لأنّ يشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جيش الإمام ﷺ بهذه الوصيّة في صفين والتي أوردها الإمام ﷺ قبل المعركة لخمدت فتنة بني أمية إلى الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حكمهم عن المسلمين، ولكن واللأسف فقد سمعوا كل هذه الوصايا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مرارة تمردهم.

80C3

خاض المرحوم السيد الرضي ﷺ في نهاية هذه الخطبة بشرح بعض مفرداتها الصعبة فقال:

الدعق: الدق، أي تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ويقال: منازل بني فلان تتناحر أي تتقابل، انتهى كلام السيد الرضي.

80C3

ولكن فسّر أغلب أرباب اللغة النواحر بمعنى المناطق البعيدة وهذا ما يناسب الخطبة.

80C3

☜ ذهب إلى أنّ المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أنّ السروح إنّما يكون في أول النهار وليس ذلك بشرط في السروب. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩/٨).

الخطبة ١٢٥ [1]

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عليه السلام

في التحكيم وذلك بعد سماعه لأمر الحكمين

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في السابق انّ هذه الخطبة وردت بصورة عامّة بشأن التحكيم بعد معركة صفين، وهى تتألف من عدّة أقسام، فقد بيّن الإمام عليه السلام قبول التحكيم من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية.

وفي القسم الثاني يتكفّل بالردّ على الاعتراضات

والقسم الثالث والأخير ينصح الإمام عليه السلام بالكفّ عن الخلاف وإعداد أنفسهم من أجل الوقوف بوجه ظلمة الشام كما ذمّهم على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

---

١. سند الخطبة:
تطرق المؤرخ المعروف الطبري في حوادث عام ٣٧هـ إلى هذه الخطبة وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام في الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال لهم:
«من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتموني، قالوا: لقبولك التحكيم في صفين، فقال: ناشدتكم الله ألم تطالبوني بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسنة الرماح، فقلت: لكم إني أعلم بهم منكم، فلا دين لهم ولا قرآن، فلم تسمعوا قولي وأبيتم إلّا التحكيم فقبلت، لكنّي اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟
قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد في دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إننا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن.
ثم أورد الطبري جانباً من الخطبة، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزي في تذكرة الخواص، والمرحوم المفيد في الإرشاد، والطبرسي في الاحتجاج.

القسم الأول

«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ ٱلرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا ٱلْقُرْآنَ. هٰذَا ٱلْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ ٱلدَّفَّتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ ٱلرِّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَىٰ أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ ٱلْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَقَدْ قَالَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللّٰهِ وَٱلرَّسُولِ). فَرَدُّهُ إِلَى ٱللّٰهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَىٰ ٱلرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللّٰهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا».

الشرح والتفسير

الردّ على الخوارج

كما ورد سابقاً فانّ الخطبة ردّ على اعتراض قبول الإمام ﷺ للتحكيم، ومضمون كلام المعترضين: لم قبلت تحكيم فردين في هذا الأمر الديني المهم؟ والحال لا حكم إلّا لله وليس لعامة الأفراد من حق في الحكم في الوظائف الدينية، أمّا الإمام ﷺ فقد أشار في ردّه إلى نقطة مهمّة فقال: **«إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ ٱلرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا ٱلْقُرْآنَ. هٰذَا ٱلْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ**[1] **بَيْنَ ٱلدَّفَّتَيْنِ**[2]**، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَابُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ ٱلرِّجَالُ».**

---

١. «مستور»: الشيء الخفي، إلّا أن هذه المفردة وردت مسطورة في بعض النسخ من مادة سطر وردت صفة للخط في العبارة وهي أنسب.

٢. «دفتين»: مثنى «دفة» بمعنى جانب كل شيء ويقال دفتين لجانبي الكتاب أو القرآن.

إشارة إلى أنّ القرآن الكريم بيّن طائفة من الأحكام الكلية وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئية وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبارة أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: **﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[1].

لا شك أنّ معركة صفين أحد مصاديق هذه الآية، ووظيفة الحكمين ـ إن كانا على الصواب وعالمين بالأمور ـ أن يقولا: لمّا بايع الناس علياً عليه السلام إضافة إلى نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه فانّ عامة الأمة والصحابة قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغي والظالم وعليه العودة إلى الأمة و التوبة، فان أبى وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوي عن غيه.

ومسألة التحكيم لا تشذ عن هذا الأمر، فهي ليست سوى ما يقوم به قضاة الإسلام، أي أنهم يطبقون أحكام الكتاب والسنّة على مصاديقها ويصدرون الأحكام بهذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هذا الكلام؟ للأسف لم يدرك الخوارج الجهال هذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلي من الحكومة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في توضيح هذا المعنى قائلاً: «**وَلَمَّا دَعَانَا ٱلْقَوْمُ إِلَىٰ أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا ٱلْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ ٱلْفَرِيقَ ٱلْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ ٱللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَقَدْ قَالَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللّٰهِ وَٱلرَّسُولِ﴾**[2]».

فوضح الإمام عليه السلام الآية بالقول: «**فَرَدُّهُ إِلَى ٱللّٰهِ أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ، وَرَدُّهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ ٱللّٰهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللّٰهِ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ ٱلنَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا**».

ومن هنا فقد أثبت الإمام عليه السلام بوضوح أنّ تحكيم الكتاب والسنّة لا تعني سوى الرجوع إليهما، ولما كنّا مأمورين بهذا الأمر، فليس لأحد أن يعترض علينا لم قبلنا التحكيم، فخطأ

١. سورة الحجرات / ٩.
٢. سورة النساء / ٥٩.

المعترض في تصوره أننا قبلنا تحكيم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوى تحكيم كتاب الله.

وهنا سؤال يطرح نفسه: يفهم من كلام الإمام ﷺ هذا أنّه قبل التحكيم على ضوء رغبته ورضاه ووظيفته الشرعية، والحال يفهم من عدّة خطب وردت في نهج البلاغة أنّ التحكيم فرض على الإمام ﷺ وكان ممتعظاً من هذا الأمر، فكيف يمكن حلّ هذا التناقض؟

لابدّ من القول في الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام ﷺ لم يكن مخالفاً للتحكيم قط، بل كان الإمام ﷺ يؤكد على أمرين: **الأول:** هو أنّ رفع المصاحف على أسنة الرماح كان خديعة ومؤامرة تهدف الحيلولة دون انتصار جيش الإمام ﷺ في اللحظات الأخيرة من المعركة، وإيجاد الفرقة والاختلاف بين صفوف عسكر الإمام ﷺ، وإلّا فأهل الشام لم يكونوا مستعدين لقبول تحكيم القرآن الكريم، فلم يكونوا من أهل الدين ولا القرآن حسب تعبير الإمام ﷺ [١].

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام ﷺ كان معترضاً على أبي موسى الأشعري كممثل له في تحكيم القرآن، وعليه فليس هنالك من تناقض بين هذه الخطبة وسائر الخطب نهج البلاغة، والشاهد على ذلك ما فعله الإمام الحسين ﷺ يوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف على رأسه وخاطب أهل الكوفة: «**يـا قَومِ إنّ بَيني وَبَينَكُم كِتابُ اللهِ وَسُنَّةُ جَدّي رَسُولُ اللهِ**» [٢].

قضية التحكيم

نعلم أنّ جيش معاوية حين أشرف على الهزيمة المنكرة في صفين، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمكره إلى توصية أهل الشام برفع المصاحف على أسنة الرماح والقول بالتسليم لحكم القرآن، من جانبه قال الإمام ﷺ بأنّ هؤلاء لا يسلمون لحكم القرآن وليس ذلك سوى خدعة بهدف منع تلك الهزيمة الحتميه، إلّا أنّ فئة من جهّال عسكر الإمام ﷺ إلى جانب

---

١. كما ورد في سند هذه الخطبة.

٢. مسند الإمام الشهيد ٤٣/٢، وقد نقل هذا الأمر في الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكرة الخواص لابن الجوزي (مقتل الحسين /٢٣٣).

المنافقين لم يسمعوا كلام الإمام عليه السلام وأصروا على إيقاف المعركة، حتى هددوا الإمام عليه السلام بالقتل، فلم يكن من الإمام عليه السلام وبهدف الحيلولة دون ذلك الاختلاف والشقاق وبحكم الإجبار إلّا أنّ أصدر أوامره بايقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردين من العسكرين لتحكيم القرآن، والعجيب أن طائفة منهم بعد ذلك وقفوا بوجه الإمام وهبّوا لمخالفته والاعتراض عليه في قبوله للتحكيم. الخطأ الآخر الذي بدر من الجهّال والمنافقين هو اختيارهم لأبي موسى الأشعري الجاهل كحَكم وفرضوه على الإمام عليه السلام وهو الأمر الذي أدّى إلى تلك الانتكاسة المريرة والعجيب في الأمر فئة بعد هذه الحادثة رفعت راية التمرد على الإمام عليه السلام معترضة على قبوله للتحكيم، في حين هذا القرآن يصرّح قائلاً: ﴿إنِ الحُكْمُ إلّا للهِ﴾[1]. فكان من نتائج ذلك وقوع معركة أخرى عرفت بمعركة النهروان، وقد رجعت طائفة منهم إلى نفسها بعد أن سمعت كلام الإمام عليه السلام فتابت إلى الله سبحانه، ولم تبق إلّا فئة قليلة لم يكتب لها الدوام، وقد كان عمل الإمام عليه السلام واضحاً في هذا الأمر للأسباب التالية:

١ ـ تحكيم القرآن في حلّ الخلافات العالقة بين المسلمين ليس بخفي على أحد، وقد أمر القرآن المسلمين صراحة بالرجوع إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله في حالة حدوث اختلاف بينهم (الآية ٥٩ من سورة النساء التي استشهد بها الإمام عليه السلام في كلامه). وبناءاً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيدة كافة المسلمين الذين للقرآن الكلمة الفصل في حل المنازعات ليست بالأمر الذي يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من أُولئك الجهّال إلا أن يصوروا الأمر على أنّه نقطة ضعف في الإمام عليه السلام.

٢ ـ لا شك أنّ الذين أثاروا فتنة رفع المصاحف على أسنة الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسة الكفر عديمي الإيمان من همّ سوى التسلط على الأمة والهيمنة على إمكاناتها المادية، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البداية عن كنه هذه المؤامرة، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهّال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

---

١. سورة يوسف / ٦٧.

٣ ـ قطعاً ليس للقرآن من دور في التحكيم من خلال نفسه، وإنّما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالِمين بالقرآن فيجتهدون في استنباط أحكامه في كل مسألة وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر في حادثة صفين لتبيّن أنّ عسكر معاوية مشمولون بالآية التاسعة من سورة الحجرات القائلة: **﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى...﴾** فينبغي إدانتهم بصفتهم بغاة طغاة هبّوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومة الإسلامية.

والمؤسف أنّ الحكمين هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فانّ ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملاً بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمة في أية مرحلة، وكانت النتيجة مريرة على تلك الفئة الجاهلة، فعمدت إلى لوم الإمام ﷺ بدلاً من ذمّها لنفسها، فلم تعمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرآة، طبعاً لا ينبغي تصور قضية التحكيم على أنّها ترتبط بحادثة تاريخي عابرة، بل هي قضية تكرر في مختلف العصور والأزمنة وحتى في عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدسات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئة عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشروعة.

فلعمروا بن العاص وأبو موسى الأشعري ـ هذان الجاهلان ـ أشباههما في كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعة صفين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التي تتخذ لنفسها صوراً مختلفة، فلا تتمخض سوى عن النتائج التي تؤدّي إلى مظلومية من يسير على النهج العلوي.

ﮀﮁ

القسم الثاني

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي ٱلتَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ ٱلْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ ٱلْعَالِمُ؛ وَلَعَلَّ ٱللّٰهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ ٱلْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ ٱلْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ ٱلْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ ٱلنَّاسِ عِنْدَ ٱللّٰهِ مَنْ كَانَ ٱلْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ -وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ- مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ! ٱسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَىٰ قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ ٱلْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ ٱلْكِتَابِ، نُكُبٍ عَنِ ٱلطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ ٱلْحَرْبِ أَنْتُمْ! أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ ٱلنِّدَاءِ [ٱلْقَاءِ]، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ ٱلنَّجَاءِ!».

ﮓﮔ

الشرح والتفسير

لستم من أهل الجهاد

يتألف كلام الإمام ﷺ في الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمة الشام، فكلام الإمام ﷺ في القسم الأول إشارة إلى ميثاق التحكيم الذي وقع بين الإمام ﷺ ومعاوية (وسيأتي شرح ذلك في موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدّة سنة لحلّ اختلاف الأمة دون التسرع في ذلك، والمعترضون الجهّال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذي أجاب عليه الإمام ﷺ في القسم السابق من الخطبة، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أي مسألة المدّة، ومن هنا ردّ الإمام ﷺ على الإشكال

الأخير بالقول: «**وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي ٱلتَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ ٱلْجَاهِلُ، وَيَتَثَبَّتَ**[١] **ٱلْعَالِمُ**».

ثم أضاف: «**وَلَعَلَّ ٱللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ ٱلْهُدْنَةِ**[٢] **أَمْرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ؛ وَلاَتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا**[٣]، **فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ ٱلْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ ٱلْغَيِّ**».

فقد بيّن الإمام ﷺ عدّة فوائد للأجل الوارد في مسألة التحكيم، **الأولى**: أن يتريث الجهّال ويكفّوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا في المسألة المصيرية، **والأخرى**: أنّ يقوم القوم علماء الأُمّة من أصحاب علي ﷺ بدراسة جوانب المسألة ويختاروا ما ينطوي على الحدّ الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، **والثالثة**: التفكير خلال هذه المدّة في الطرق التي تتكفّل بإصلاح أمر الأمة بصورة كلية واجتناب الأفعال المتسرعة التي تقود إلى الضلال، والغريب في الأمر التسرع والطيش الذي مارسه الخوارج الجهّال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامة للخطر دون أدنى دراسة وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهّال من الأفراد في كل عصر ومصر.

أمّا العبارة: «**لَاتُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا**» فهي كناية عن الحرية من أجل المطالعة واتخاذ القرار والانتخاب، وهي كناية فصيحة وبليغة.. والعبارة: «**تَنْقَادَ لِأَوَّلِ ٱلْغَيِّ**» إشارة إلى أنّ التسرع في القرار ضلالة عادة.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ المراد بأول الغي رفع المصاحف على أسنة الرماح التي تعدّ أول خطوة في الضلال[٤]، ويبدو التفسير الأول بقرينة الجملة التي سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام ﷺ في نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابهته بالتعصب واللجاجة وملاحظة المنافع الشخصية، فقال: «**إِنَّ أَفْضَلَ ٱلنَّاسِ عِنْدَ ٱللّٰهِ مَنْ كَانَ ٱلْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ ـ وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ**[٥] **ـ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ**».

---

١. «يتثبت»: من مادة «ثبت» بمعنى التحقيق.
٢. «هدنة»: من مادة «هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عادة بمعنى المصالحة بعد القتال أو وقف اطلاق النار.
٣. «أكظام»: جمع «كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النَفَس.
٤. منهاج البراعة، للعلاّمة الخوئي ١٨٠/٨.
٥. «كرث»: من مادة «كرث» بمعنى شدّة الغم.

الواقع إنّ علامة المؤمن الحقيقي هى هذه، يعني ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق في جانب والمنافع الشخصية في جانب آخر، ولى ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلّا فلا فخر في تعصب الإنسان للحق الذي ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذمّ القرآن الكريم طائفة من اليهود التي عملت على هذا الضوء فقالوا: ﴿**نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**...﴾[1]، كانت تلك الطائفة تذعن للقوانين الموافقة لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التي تتعارض ورغباتها، والحق إنّ مثل هذا التفكيك لا يعني عبادة الله سبحانه، بل عبادة الهوى، ويصدق هذا الكلام على الأفراد الذين يهبّون لنصرة الباطل بدافع التعصب واللجاجة ودعم الأصدقاء والقرابة، وقد ورد مثل هذا الكلام عن علي ﷺ في خطابه لعمرو بن العاص حيث أقسم أنّه يعرف الحق، إلّا أنّه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصفوف أعداء الله سبحانه سوى منافعه[2].

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه قائلاً: «**فَأَيْنَ يُتَاهُ[3] بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ[4]!**».

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبية تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم و الجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب الله وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «**اَسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ اَلْحَقِّ لَا يُبْصِرُونَهُ، وَمُوزَعِينَ[5] بِالْجَوْرِ لَا يَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاةٍ عَنِ اَلْكِتَابِ، نُكُبٍ[6] عَنِ اَلطَّرِيقِ**».

وهكذا أشار الإمام ﷺ إلى إننا نمتلك خمسة أدلّة قاطعة إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدلة يكفي سبباً لقتالهم!

---

١. سورة النساء / ١٥٠.
٢. شرح نهج البلاغة، للمرحوم التستري ٢٦٣/١٠؛ تاريخ الطبري ٥٠/٤ طبعة الأعلمي بيروت.
٣. «يتاه»: من مادة «تيه» على وزن قيد بمعنى الحيرة والاضطراب، ويقال التيه للصحراء التي يحتار فيها الإنسان.
٤. «اتيتم»: من مادة «إتيان» لها معاني مختلفة وتعني هنا الانخداع والتسليم للباطل.
٥. «موزعين»: من مادة «ايزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبة في شيء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو المراد بها في هذه العبارة.
٦. «نكب»: جمع «ناكب» من مادة نكب على وزن نفي الانحراف عن الشيء.

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكترثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤية الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام ﷺ بالشكوى في عباراته الأخيرة وعرضّهم لأشدّ الذمّ واللوم، لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر في أعمالهم فقال: «**مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ**[١] **عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشُ**[٢] **نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!**».

ثم شدد ﷺ في تقريعهم فقال: «**أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً**[٣]**، يَوْماً أُنَادِيكُمْ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ [اللِّقَاءِ]، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ**[٤]**!**».

فقد تطرق الإمام ﷺ إلى حقيقة في هذه العبارات وهي إن كانت هنالك من مشكلة قد ظهرت في أمر الجهاد وحكومته ﷺ فانّما مرد ذلك إلى عدم كفاءة جمع من صحبه، وذلك لأنّهم كانوا يبدون الضعف والوهن في كل ميدان يطرقه الإمام ﷺ، ومن الطبيعي أنّ هناك ضرورة للصولة المقتدرة في بداية المعركة والتي ينبغي أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهذا الدور في معسكر الإمام ﷺ، من جانب آخر فان القائد حين ينادي أن أحملوا! فلابدّ من حركة الجميع بشكل منسجم، إلّا أنّهم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناك من خطط حربية يطلعون عليها بصورة سرية، لابدّ أن يجدوا ويجتهدوا في حفظها، إلّا أنّهم لم يكونوا من حفظة الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف في ظلّ وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب في الأمر فانّ مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام ﷺ مسؤولية زلاتهم دون أن يهموا ويفتشوا عن أسباب ذلك في أنفسهم، وهذه مشكلة كبرى.

٭٭٭

---

١. «زوافر»: جمع «زافرة» من مادة على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهم المواسين في الألم والأنين فقد اطلقت مفردة الزافرة على النصير وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٢. «حشاش»: جمع «حاش» من مادة حش على وزن شك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسددون أولى الضربات للعدو.

٣. «برح»: بفتح الباء الشدّة والغضب.

٤. «نجاء»: ونجوى الهمس في الاذن والشيء الذي يقال للآخرين سراً.

تأمّلان

١ـ عهد صفين

حين استغل ظلمة الشام قضية رفع المصاحف على أسنة الرماح وخدعوا بها أهل العراق، ففرض الصلح على أميرالمؤمنين علي عليه السلام كتب هذا العهد بين الفريقين:

«هذا مَا تَقَاضَىٰ عَلَيهِ عَلَيٌ بن أَبِي طَالب[1] وَمُعاوِيةُ بنْ وأَبِي سُفيانِ، قَاضِي عَلَيٌ بن أَبِي طَالبٍ عَلَىٰ أَهْلِ العِراقِ وَمنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ شِيعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِينَ وَالمسلِمِينَ وَقَاضِي مُعاوِيةُ بِنْ وأَبِي سُفيانِ عَلَىٰ أَهْلِ الشَّامِ وَمنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ شِيعَتِهِ مَنَ المُؤمِنِينَ وَالمسلِمِينَ أَنّا نَنْزِلَ عِنْدَ حُكمِ اللهِ وَكِتابِهِ وَلا يَجْمَعُ بَينَنا إلّا إيّاهُ وإنَّ كِتابَ اللهِ سُبحانَهُ بَينَنا مِنْ فَاتِحَتِهِ إلى خَاتِمَتِهِ نُحيي مَا أَحيا القُرآنُ ونُمِيتُ مَا أَماتَ القُرآنُ فإنْ وَجَدَ الحَكَمانِ أَنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابَ اللهِ إتَّبَعناهُ وَإن لَمْ يَجِداه أَخَذا بِسُنَّةِ العَادِلَةِ غَيرِ المُفَرِّقَةِ وَالحَكَمانِ عِبْدَاللهِ بِن قَيْسٍ وَعَمرو بِنْ العَاصِ»[2].

وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سميته) في مختلف الكتب مع اختلاف طفيف، وكلها تشير إلى أنّ المسألة كانت مسألة تحكيم القرآن الكريم لا تحكيم الأشخاص، وبعبارة أخرى فانّ الأشخاص كانوا مكلّفين باستنباط ما في القرآن بهذا الشأن وتطبيقه على مصاديقه، بينما اعتبرها الخوارج تحكيم للأفراد في دين الله فأثاروا مختلف الويلات والمآسي التي أفرزتها الجهل والحماقة.

٢ـ حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج

روي أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام أرسل عبدالله[1] بن عباس إلى الخوارج وكان بمرآى منهم

---

١. ورد في أغلب التواريخ أنّ كتّاب الإمام عليه السلام كتبوا أميرالمؤمنين إلى جانب إسمه، فاعترض عمرو بن العاص وقال: لو علمناك أميراً للمؤمنين فلابد أن يكون من يعاديك أميراً للفاسقين، لابدّ من محو هذه الكلمة، فأطرق علي عليه السلام وذكر صلح الحديبية فقال: «الله أكبر لقد كتبت محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فاعترض الكفّار وطالبوا بمحو رسول الله، فلم أفعل، فأشار عليّ النبي أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنة، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفّار فلن أبق في هذا المجلس ـ فقال عليه السلام: أسأل الله أن يطهر مجلسي من مثلك، ثم استمر الكلام حول كتابة لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلك الكلمة آخر الأمر (انظر تاريخ الطبري ٣٧/٤ والتواريخ الأخرى).

٢. بحار الانوار ٥٤٢/٣٢؛ وقد ورد هذا العهد في تاريخ الطبري ٣٨/٤ مع بعض الاختلاف.

ومسمع ليسألهم ما الذي نقموا عليه؟ فقالوا في الجواب: نقمنا يابن عباس على صاحبك خصالاً كلها موبقة مكفرة تدعو إلى النار:

أمّا أولها: فانّه محى اسمه من إمرة المؤمنين، ثم كتب بينه وبين معاوية فإذا لم يكن أمير المؤمنين فنحن المؤمنون فلسنا نرضى أن يكون أميرنا.

وأمّا الثانية: فانّه شك في نفسه حين قال للحكمين: انظر فانّ كان معاويه أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتاني، فاذا هو شك في نفسه، فنحن فيه أشدّ شكاً.

والثالثة: أنّه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

الرابعة: أنّه حكّم الرجال في دين الله ولم يكن ذلك إليه.

الخامسة: أنّه قسم بيننا الكراع والسلاح يوم البصرة ومنعنا النساء والذرية.

السادسة: أنّه كان وصيّاً فضيّع الوصيّة.

قال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقالة القوم فأنت أحق بجوابهم. فقال ﷺ: نعم، ثم قال له: قل لهم يابن عباس أترضون حكم الله ورسوله؟ فقالوا: بلى، ثم قال: أمّا الأُولى فقد كتبت عهد الصلح يوم الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اصطلح عليه رسول الله وأبوسفيان وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: إنا لا نعرف الرحمن الرحيم أولاً، وثانياً ولا نقرّ أنّك رسول الله، وثالثاً ولكنّا نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدّم اسمك قبل أسمائنا، .إن كنّا أسن منك، فأمرني رسول الله ﷺ أن أكتب بدلاً من «بسم الله الرحمن الرحيم» «بسمك اللهم» وبدلاً من «رسول الله» «محمد بن عبدالله»، ثم قال لي: إنّك تدعي إلى مثلها فتجيب وأنت مكره، وهكذا كتبت بيني وبين معاوية وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لك خرجت منها.

وأمّا الثانية إنّي شككت في نفسي حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاوية أحق بها مني فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا منّي فقد قال القرآن: **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[1].

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أنّ نبيّه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأمّا قولكم أنّي جعلت الحكم إلى غيري وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول الله ﷺ قد جعل الحكم إلى سعد

---

١. سورة سبأ / ٢٤.

يوم بني قريظة وقد كان أحكم الناس، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾[1]، قالوا: وهذه لك بحجتنا، قال وأمّا قولكم إنّي حكمت في دين الله الرجال، فما حكّمت الرجال ولكن حكّمت كلام ربّي فقال في الصيد عند الاحرام: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[2]، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لك، قال وأمّا قولكم: إنّي قسمت يوم البصرة الكراع والسلاح ومنعتكم النساء والذرية، فاني مننت على أهل البصرة كما منّ رسول الله ﷺ على أهل مكة، وبعد فأيّكم كان يأخذ عائشة في سهمه، قالوا: وهذه لك بحجتنا قال وأمّا قولكم إنّي كنت وصيّاً فضيّعت الوصيّة، فأنتم كفرتم وقدّمتم عليَّ وأزلتم الأمر عنّي... قالوا: وهذا لك وإثر ذلك رجع بعضهم وبقي منه أربعة آلاف فقاتلهم فقتلهم.[3]

٭٭٭

١. سورة الأحزاب / ٢١.
٢. سورة المائدة / ٩٠.
٣. الاحتجاج للطبري ٤٤٢/١، (يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت في مناقب ابن المغازلي ٤٠٦ مع اضافة، وبحار الانوار ٣٧٧/٣٣ مع اختلاف.

الخطبة[1] ١٢٦

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

لمَّا عُوتِب على ٱلتَّسوِيَةِ فِي ٱلْعَطاء

نظرة إلى الخطبة

يبدو الهدف من هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام ﷺ لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومة، فيعطيهم سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعطاء، وذلك من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابة الإمام ﷺ الإشارة إلى أمرين:

الأول: ليس لي قط ترسيخ دعائم حكومتي من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعطاء حق أحد لآخر، فلا يسعني بلوغ الحق والعدل بواسطة المعصية.

الثاني: أنّ من يمارس هذا الفعل فانّ عاقبته جحود أُولئك الأفراد الذين أغدق عليهم.

١. سند الخطبة:
هذه الخطبة جزء من خطبة طويلة للإمام ﷺ في تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنّها مرتبطة بالخطبة ١٤٢، والجزءان من خطبة واحدة، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضي وبعده ومنهم: ابن قتيبة في الإمامة السياسة، وابن شعبة في تحف العقول، والكليني في فروع الدين، والشيخ المفيد في كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ الطوسي في كتاب الآمالي (مصادر نهج البلاغة ٢٨٢/٢).

«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ ٱلنَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَٱللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي ٱلسَّمَاءِ نَجْماً! لَوْ كَانَ ٱلْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا ٱلْمَالُ مَالُ ٱللهِ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ ٱلْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي ٱلْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي ٱلنَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ ٱللهِ. وَلَمْ يَضَعِ ٱمْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ ٱللهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ ٱلنَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ!».

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكليني في بداية نقله لهذه الخطبة عن أبي مخنف أنّ جماعة من شيعة أميرالمؤمنين عليه السلام اقترحوا علي تقسيم أموال بيت مال المسلمين على الزعماء والأشراف (في أن يعطيهم من سهمهم) لتستقر الحكومة ومن ثمّ يعود إلى التسوية في العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبة ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدّس من خلال وسيلة ليست مقدّسة، فهذ الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال: «**أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ ٱلنَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!**».

أو ليس الهدف من الحكومة هو بسط العدل والقسط؟ كيف تقترحون عليّ تثبيت هذه الحكومة بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

ثم أضاف ﷺ قائلاً: «**وَٱللّٰهِ لَا أَطُورُ[1] بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ[2]، وَمَا أَمَّ[3] نَجْمٌ فِي ٱلسَّمَاءِ نَجْماً!**».

فقد بيّن الإمام ﷺ رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صريحة وقوية، فهو يقسم من جانب، ويستعمل العبارة لا أطور من جانب آخر. والمراد ليس فقط لا أفعل هذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركة المتواصلة والأبدية للنجوم في السماء والليل والنهار في الأرض، كناية عن مراده لو كان عمري خالداً فلست مستعداً للممارسة مثل هذا الظلم والتمييز، ثم أكّد ذلك بقوله: «**لَوْ كَانَ ٱلْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا ٱلْمَالُ مَالُ ٱللّٰهِ!**».

فالعبارة وإن بدت صعبة على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر وأُولئك الذين يضحون بالحق والحقيقة من أجل المصلحة، إلّا أنّ الحق هو أنّ هذه العبارة إنّما تتفق وسنّة رسول الله ﷺ وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلامية العليا، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم.

ثم أشار الإمام علي ﷺ إلى مفاسد الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال: «**أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ ٱلْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي ٱلْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي ٱلنَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ ٱللّٰهِ**».

قد يكون التبذير والاسراف بمعنى واحد ويرادف كلّ منهما الآخر تارة، وتارة أخرى بمعنيين، لأنّ التبذير بالمعنى الواقعي يختلف عن الاسراف، فالتبذير من مادة بذر بمعنى نثر البذور وتستعمل حين يضيع الإنسان نعمة الله ويطرحها جانباً، وبعبارة أخرى ينفق الأموال في غير موضعها، أمّا الاسراف فهو المبالغة في إستهلاك النعم بحيث يخرج من حالة الإعتدال دون أن يضيع شيئاً ظاهرياً، كأن يعد طعاماً كثيراً للغاية وفاخراً لبضعة أفراد، بينما يمكن

---

١. «أطور»: من مادة «طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشيء، والمفردة طور وجمعها أطوار وردت بمعنى نوع وحالة وصيغة.

٢. «سمير»: من مادة «سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو الاختلاط بالنور والظلمة، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً في ظلّ النور، فقد ستخدمت هذه المفردة بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلك لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

٣. «أمّ»: من مادة «أمّ» على ورن غم بمعنى القصد، والعبارة (ما أمّ نجم في السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعة، وكأنّ كل نجم يقصد متابعة الآخر.

إطعام عشرات الأفراد بتلك القيمة، فقد أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من خطبته إلى الآثار المعنوية السيئة لصرف الأموال في غير مواضعها، حيث يمكن أن يحظى الإنسان في ظلها بمكانة معينة إلى أجل بين الناس، بينما يسقط بالمرة أمام الله ويعرض نفسه لأشد العقاب في يوم الجزاء، وأمّا نعته مثل هذا العطاء بالتبذير والاسراف، فذلك لأنّه يؤدّي إلى اشاعة التبذير والإسراف في وسط المجتمع، فأولئك الذين يأخذون أكثر من الحدّ اللازم، لا يسعهم غالباً إفاضة جزء منه على الآخرين، كما لا يستطيعون احتماله بأنفسهم، فلا مناص من بروز حالة التبذير والإسراف.

ثم إختتم الإمام ﷺ خطبته بالإشارة إلى الآثار الدنيوية السيئة لذلك العمل فقال: «وَلَمْ يَضَعِ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللّٰهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَىٰ مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَأَلْأَمُ خَدِينٍ[1]».

والعبارة ألأم خدين إشارة إلى أنّ أولئك الأفراد الذين أحسن إليهم ليس فقط لا يقدمون المساعدة لمن أحسن إليهم في يوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعة واللؤم أن يتحولوا إلى ذامّين، أمّا ما فهمه بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ العبارة تعني اللوم والتوبيخ، فلعل ذلك كون الصديق هو المصداق الواضح للوضاعة حين الحاجة، وقد دلّ التاريخ والتجارب الشخصية كراراً ومراراً على أن أغلب الظلمة والأثرياء الذين يغدقون الأموال على أصدقائهم، لم يمهد أحد لهم يد العون حين ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقاؤهم القدماء، ولعل بيت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشيرازي والذي تتناقله الألسن ومضمونه «أني لم أتأثر قط بما يفعله الأجانب، بقدر ما أتأثر مما يفعله الصديق) إشارة إلى هذا المعنى.

ﮩﮨ

بحث في اسلوب تقسيم العطاء

يستفاد من هذه الخطبة الشريفة أنّ الإمام ﷺ كان شديد الحرص على تقسيم أموال بيت

١. «خدين»: من مادة «خدن» بمعنى الصداقة وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلك أخدان.

مال المسلمين بينهم بالسوية دون أن يكون هناك أدنى امتياز لشريف على وضيع وشخصية سياسية واجتماعية وحتى السابقين في الإسلام، بل حتى أهل الحاجة على أحد من الناس، وهذا ما كانت عليه الحال على عهد رسول الله ﷺ ويبدو أنّه كان النهج الذي اعتمده الخليفة الأول أيضاً، حتى خلافة عمر حيث إتّبع التميز والاخذ بنظر الاعتبار الأُمور السياسية والاجتماعية في تقسيم بين المال.

قال ابن أبي الحديد: أمّا عمر فانّه لما ولّىٰ الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضّل السابقين على غيرهم، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضلّ العرب على العجم، وفضّل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبي بكر في أيّام خلافته بذلك، فلم يقبل وقال هذا خلاف كتاب الله، ولما ولّىٰ عثمان الخلافة بلغ التميز قمته، فقد فضّل آنذاك كافة قرابته وبطانته، فقسم بينهم أغلب أموال بيت المال[١]، وقد ذكر العلّامة الأميني ﵀ في المجلد الثامن من كتابه الغدير الصفحة (٤٨٦) عنواناً أسماه (الفوضى في مال الله) جمع فيه الأرقام الدقيقة التي روتها مختلف مصادر العامّة بشأن هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهى الأرقام التي تذهل كلّ إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التي دعت الناس للقيام عليه، كما أنّ رفع هذه الامتياز من قبل الإمام ﵇ كان أحد العوامل التي جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة)[٢].

والطريف في الأمر أنّ أصحاب الإمتيازات في ذلك الزمان لم يخفوا هذا الأمر، كما نقل ذلك الطبري في تاريخه، حيث قال رجل لأبي عبدالرحمن السلمي (الذي كان معروفاً آنذاك)[٣]: ناشدتك الله متى عاديت علياً ﵇ أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟ قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك.[٤]

---

١. مرّت تفاصيل ذلك في شرحنا للخطبة الشقشقية.

٢. انظر الخطبة ٢٣٢.

٣. ابو عبدالرحمن السلمي من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابة وقال البعض كان بادىء الأمر من خواص أميرالمؤمنين ﵇ (الكني والالقاب).

٤. كتاب منتخب ذيل المذيل، ص١٤٧ نقلاً عن العلّامة التستري في شرحه لنهج البلاغة ٤٩١/٦.

على كلّ حال لابدّ من بحث جذور مسألة المساواة التي تأكدت على عهد رسول الله ﷺ وعلي ﷺ، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهية الأموال التي كانت ترد بيت المال. وتوضيح ذلك أنّ الأموال التي كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحي:

الأولى: غنائم الحرب وتعلم أنّ ليس هناك أي تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربية، سوى أنّ الفارس كان يأخذ ضعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانون يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل في المعركة).

الثانية: أموال الخراج وهى الأموال المتعلقة بالأراضي الإسلامية والتي كانت تشكل أغلب بين المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسلمين ولابدّ من تقسيمها بالسوية عليهم، وذلك لأنّ أراضي الخراج ملك لعامّة المسلمين وينبغي توزيعها عليهم بالسوية، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوي على جميع المالكين، لأنّ سهم ملكية الجميع متساوي.

الثالثة: الجزية والأموال التي تجبى من غير المسلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحماية من جانب الحكومة الإسلامية إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أنّ مصاريف الجزية هى مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعة: الزكاة التي تفرض على بعض الأجناس بمقدار معين وقد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانية، وقد قسمت بصورة عامّة إلى الفقراء، والمساكين، حسب حاجتهم وفي موارد مصاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار في تقسيمها الحاجة لا المساواة.

الخامسة: الخمس وهى الأموال المفروضة على كافة الإيرادات بعد طرح التكاليف ومخارج السنة، وعلى وضوء ما أورده القرآن الكريم والروايات فانّ الخمس نصفان، نصف يتعلق بأهل الحاجة من بني هاشم، والنصف الآخر بإمام المسلمين والذي ينفقه في حاجيات الحكومة الإسلامية.

السادسة: الأنفال التي تشمل جميع الأموال التي ليس لها ملكية خاصة كالأراضي الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأرضي البوار التي غادرها أصحابها وانصرفوا عنها، فهي الأخرى جزء من أموال الدولة وتتعلق بجميع المسلمين، ولكل مصدر من المصادر

الست الماضية بحث مفصّل ورد في الكتب الفقهية مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاة وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أي من هذه الأموال الست التي ينبغي توزيعها بصورة مساوية بين المسلمين وقد عمل بذلك رسول الله ﷺ واستمر العمل بها حتى في زمان الخليفة الأول، وواصلها الإمام علي ؑ إحياءً للسنّة بعدما إندرست على عهد الخليفة الثاني والثالث؟

يبدو أنّ تلك الأموال هي أموال الخراج (ويحتمل إلحاق الجزية بها) والتي كانت تشكل في ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقد كانت إلى درجة من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميّة لسائر موارد بيت المال في مقابلها، ولذلك فانّ أحد البرامج الرئيسية للولاة الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جباية الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الواردة في نهج البلاغة، ومن ذلك عهد الإمام ؑ إلى مالك الأشتر ؓ ورسالته ؑ إلى مصقلة بن هبيرة (الرسالة ٥٣ و ٤٣).

وبناءاً على ما تقدم فانّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساوية على أساس مصالح المسلمين والحكومة الإسلامية على ضوء المدارك الفقهية، فليس هناك من منافاة مع ما ورد في هذه الخطبة وأمثالها.

أضف إلى ذلك فانّ هناك تقسيماً لأموال بين المال على أساس مصالح المسلمين والخدمات التي يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالح الشخصية كما كان يفعل ذلك معاوية، حيث كان يشتري زعماء القبائل بما يغدق عليهم من أموال، حتى كان يغرر ببعض الأفراد ضعاف الايمان من جيش الإمام ؑ فيغريهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيرة[1]، وهذا بحدّ ذاته يمثل جناية عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام ؑ كما ورد في هذه الخطبة يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشدّة على من اقترح عليه استمالة الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبالطبع فانّ هذه مدرسة الأحرار والأتقياء الأوفياء التي كانت وما زالت تتضاد ومدرسة سماسرة السياسة وعبدة المناصب وأسرى الأهواء.

١. ورد عن معاوية أنّه قال: «واللهِ لأستَمِيلنّ بالأموالِ أهلَ ثُقاتِ عليٍّ ولأقسِمَنَّ فيهِم المالَ حتى تَغلِبَ دُنياي عَلى آخِرَتِه» شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري ٤٩١/٦.

الخطبة[1] ١٢٧

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

وفيه يبيّن بعض أحكام الدين
ويكشف للخوارج الشبهة وينقض حكم الحكمين

نظرة إلى الخطبة

خاطب الأمام عليه السلام الخوارج بهذه الخطبة، رغم عمومية نفع الخطبة، تتألف الخطبة من عدّة أقسام، فندّ الإمام عليه السلام في القسم الأول عقيدة الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة وحكمهم بقتل عامّة أُمّة النبي صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال الأدلة المحكمة، وأشار عليه السلام في القسم الثاني إلى غفلة الخوارج وجهلهم وسلوكهم المفرط في عدوانهم، بينما أفرط البعض الآخر منهم في موالاتهم، فكلاهما على ظلالة، والقسم الثالث تضمن التأكيد على متابعة جميع المسلمين وعدم الإنفراد عنهم والتحذير من الفرقة، وأنّ شعار الخوارج هو شعار مضل وخطير، وأخيراً القسم الرابع وهو إشارة إلى خطأ الحكمين، كما يوضح أن وظيفة الحكمين العمل بأحكام القرآن، ولكنّهم ضلوا الطريق، وعليه فليست هنالك أية قيمة لحكمهم.

---

١. سند الخطبة:
نقل هذه الخطبة المؤرخ المعروف الطبري في حوادث سنة ٣٧ هـ عن أبي مخنف باختلاف طفيف، وابن الأثير في كتاب النهاية وأشار إلى المفردة (بجر). (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٨٥).

القسم الأول

«فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سُيُوفُكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ».

الشرح والتفسير

العنف الهمجي للخوارج

هذا المقطع من الخطبة ناظر إلى الردّ على شبهات الخوارج التي لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقليدهم الأعمى، فهم يعتقدون بكفر من إرتكب الكبيرة، والكافر يجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغرى وكبرى وعلى أساسها أجازوا لنفسهم قتل أي فرد من أصحاب علي عليه السلام أينما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبرياء سيوفهم على عواتقهم ليسفكوا دماء من شاءوا من الأبرياء في مختلف مناطق البلاد الإسلامية، فأتوا بالأفعال الشنيعة التي يندى لها جبين التاريخ، نعم لقد ابتكروا لأنفسهم صغرى وكبرى وقالوا: إن علياً عليه السلام قبل تحكيم الأفراد في مقابل القرآن، وعليه فقد إرتكب الذنب، وكل من إرتكب الذنب فهو كافر، واتباع علي عليه السلام كذلك فهم كفرة، والكافر يجب قتله وقد رد الإمام علي عليه السلام

بالعبارة المذكورة على خطأهم ليتم الحجة عليهم، فلو فرض (وفرض المحال ليس بمحال) أنه ضل فما الذي يدعو إلى الحكم بضلالة كافة أُمّة محمد ﷺ بضلاله: «**فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُظَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي، وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي!**».

ثم واصل كلامه بالقول: «**سُيُوفُكُمْ عَلَىٰ عَوَاتِقِكُمْ[1] تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ ٱلْبُرْءِ وَٱلسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ**».

فهذا العبارات تتضمن إشارة إلى عدّة أجوبة: الأول بطلان التصور القائم على أني أخطأت وضللت، فأولاً: أنّي قبلت التحكيم بفعل ضغوطكم، وثانياً: لو تمّ التحكيم بصورة صحيحة لكان مطابقاً للقرآن، فالواقع أنّ الحكم هو القرآن، ومن ينهض بالتحكيم إنّما يرجع إلى القرآن ويستنبط منه حكم الله سبحانه، فيطبق الكليات على مصاديقها، كما مرّ ذلك في الخطب السابقة، وعليه فليس هنالك من عمل مخالف حكم الله حتى يؤدّي إلى الخطأ والضلالة. ثالثاً: على فرض أني إرتكبت خلافاً فما معنى حمل ذلك على سائر المسلمين؟ لم تكفرونهم وتريقون دماء الأبرياء؟ أي قانون هذا الذي تتمسكون به؟ وبأي شرع تؤمنون؟

ثم إتّجه الإمام عليه السلام صوب خطأهم الأصلي المتمثل بقولهم كل مذنب كافر، فردّ عليهم ردّاً قاطعاً فقال: «**وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ رَجَمَ ٱلزَّانِيَ ٱلْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ ٱلْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ ٱلسَّارِقَ وَجَلَدَ ٱلزَّانِيَ غَيْرَ ٱلْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ ٱلْفَيْءِ، وَنَكَحَا ٱلْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ ٱللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ**».

فقد أراد الإمام عليه السلام عدّة شواهد من سنّة النبي الأكرم ﷺ تؤكد وضوح خطأ الخوارج، الأول أنّ النبي ﷺ كان يعدم الزاني والقاتل، ثم يصلّي عليهما ويورّث أهلهما، لو كفر هؤلاء بارتكابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توريث أهلهم هم حسب عقيدتكم، لأنّ المسلم لا يرث الكفّار، (هذه عقيدة أغلب فقهاء العامّة)، كما حدّ رسول الله ﷺ سائر المذنبين كالسارق

---

١. «عواتق»: جمع «عاتق» قسم من الجسم يقع بين الرقبة والكتف.

والزاني غير المحصن، فقطع يد الأول وجلد الثاني، لكنّهم بقوا في صفوف المسلمين فأجازهم جميع الأحكام الإسلامية كالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بيت المال، والحال لا تجرى عليه أي من هذه الأحكام إن كفر بارتكاب الكبيرة.

ﮦ

تأمّلات

١ ـ الخوارج وتكفير أهل الذنوب

يستفاد من هذه الخطبة أنّ الخوارج يعتقدون بأنّ إرتكاب الكبيرة يوجب الخروج من دين الإسلام، بناءاً على هذا فمن إرتكب الكبيرة وكان قبل ذلك مسلماً فهو مرتد يجب إعدامه، وقد استدلّ هؤلاء الجهّال بظاهر بعض آيات القرآن التي لم يدركوا مفهومها، ومن ذلك الآية الشريفة ٩٧ من سورة آل عمران بشأن تارك الحج والتي تقول: **﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾**، والآية ٤٤ من المائدة: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾**، والآيه ٢٣ من سورة الجن التي تحدثت عن المذنبين جمعاء: **﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدا﴾**.

فقد أطلقت هذه الآيات على بعض المذنبين كلمة الكفر أحياناً، وأحياناً أخرى الخلود في جهنم الذي يختص بالكفّار، وقد غفلوا عن أنّ مفردة الكفر في اللغة واصطلاح الشرع لا تعني على الدوام الخروج من الإسلام، بل الكفر درجات ومراحل: فقد يكون بمعنى إرتكاب الذنب، ويكون أحياناً أخرى بمعنى إنكار الله والعقائد الدينية، وبعبارة أخرى الكفر بمعنى مجانبة الحق أو ستره وهو على مراحل ودرجات، ولكل أحكامه الخاصة، كما للإيمان درجات، لكل منها أحكامه الخاصة. فقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المعروفة في اصول الكافي خمسة معاني للكفر الوارد في القرآن، أحدهما: أنّ الكفر بمعنى ترك أوامر الله والعصيان، ثم يورد الإمام شواهد من القرآن الكريم على هذه المعاني الخمسة[1].

---

١. أصول الكافي ٣٨٩/٢، باب وجوه الكفر، ح ١.

وأوضح دليل على بطلان هذه العقيدة ما أورده أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه الخطبة من كثرة عدد المذنبين في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذين كان يقيم عليهم الحد، مع ذلك كان يجري عليهم كافة أحكام الإسلام، حتى وإن لم يتوبوا من قبيل إقامة صلاة الميت والدفن في مقابر المسلمين وأحكام الارث، ومن كان حياً بعد إقامة الحد؛ أجرى عليه سائر الأحكام كأخذه لسهمه من بيت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلك، هذه هي سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تواصلت في العهود اللاحقة حتى عصرنا الحاضر بين جميع مسلمي العالم والتي تدل على أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر بمعنى خروجه من الإسلام قط، وليس فقط لا يراق دمه فحسب، بل هناك ديّة على أدنى جرح يعرّض له.

٢ ـ جانب من جنايات الخوارج

إنّ أدنى مطالعة لجانب من التاريخ المظلم للخوارج تكفي لأن نقف على مدى فضاعة الفئة التي وقفت بوجه أمير المؤمنين علي عليه السلام، والأسباب التي عاقت برامجه عليه السلام في النهوض بالأمّة، فليست هنالك فئة تشبه الخوارج شهدها التاريخ، فهي فئة متعصبة عاشت جميع التناقضات ويسفكون الدماء بكل بساطة ولا يرحمون كبيراً ولا صغيراً حتى الجنين في بطن أمّه، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبة حيث وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيريقون دم من يريدون، ولم يأمن أحد في منطق حكومتهم التي لم تدم طولاً لحسن الحظ، وكأنّهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد.

قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: حين مضى الخوارج إلى النهروان أصابوا في طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم لأنّه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، قالوا: احفظوا ذمّة نبيّكم، ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل في رفقة فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإيّاهم، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستجيرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، قالوا:

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغونا مأمننا لأنّ الله تعالى يقول: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[1].

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساوروا معهم بجمعهم حتى أبلغهم المأمن[2].

ومعروفة هي قصة قتلهم صحابي النبي ﷺ المعروف: عبدالله بن خباب وقتلهم لإمرأته وهي حامل، وقد عرضنا لشرح ذلك سابقاً، وهذا غيض من فيض جرائم الخوارج، هذا في الوقت الذي إذا قتل أحدهم خنزيراً، واعترضوا عليه على وأن ذلك فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير[3]، يبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هي العوامل الأصلية لظهور هذه الفئة السفّاكة التي لا تتورع عن إرتكاب أية جريمة وجناية، أو ليس جزاء هؤلاء تلك الحملات المتتالية التي شنها عليهم جيش الإمام علي عليه السلام بعد إتمام الحجّة وتوبة المخدوعين منهم، لكي لا تبقى لهم من باقية، كما حدث في النهروان؟!

ﮨ

٣ ـ الردّ على سؤال

تصدى الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة للردّ على الخوارج الذين يقولون بكفر من إرتكب الكبيرة، في أنّ ذلك خلاف سيرة رسول الله ﷺ في إقامته للحدود على مرتكبي الكبائر، وفي الموارد التي تتطلب إعدام صاحبها من قبيل قصاص القاتل، فقد كان يحكم بقتلهم ويورثهم أهلهم من المسلمين.

هذا في الوقت الذي نعتقد فيه على ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا يرث الكفّار وعليه فان إيصال إرثهم إلى وارثهم المسلمين ليس دليلاً على نفي كفرهم، وللإجابة على هذا السؤال لابدّ

---

١. سورة التوبة /٦.
٢. شرح ابن أبي الحديد ٢/٢٧٩ ـ ٢٨١.
٣. انظر نفحات الولاية ٢/٣٧٧.

من القول بأنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام طبق مذهب أغلب العامّة والخوارج الذين يعتقدون بعدم إرث الكافر للمسلم ولا المسلم من الكافر، وبناءً على هذا فقد استدلّ على ضوء مسلمات مذهبهم، أمّا مذهب أهل البيت عليهم السلام الكافر لا يرث المسلم بينما يرث المسلم الكافر، للرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: «**إنَّ الإسلامَ لَم يَزِد المسُلِمَ إلّا عِزّاً فِي حَقِّهِ**»[1].

ﷻ

١. وسائل الشيعة ٣٧٧/١٧.

القسم الثاني

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ ٱلنَّاسِ، وَمَنْ رَمَىٰ بِهِ ٱلشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ ٱلْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ ٱلْبُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ ٱلْحَقِّ، وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ فِيَّ حَالاً ٱلنَّمَطُ ٱلْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَٱلْزَمُوا ٱلسَّوَادَ ٱلْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ ٱللّٰهِ مَعَ ٱلْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَٱلْفُرْقَةَ!

فَإِنَّ ٱلشَّاذَّ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ ٱلشَّاذَّ مِنَ ٱلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَىٰ هٰذَا ٱلشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ».

الشرح والتفسير

شر الناس

أوضح الإمام ﷺ جهراً في ما مضى من كلام الخطبة بطلان عقيدة الخوارج في تكفير المسلمين، وقد حدّثهم بمنتهى المرونة حسبما يقتضيه البحث المنطقي، أمّا في هذا القسم (القسم الثاني) فقد عنّفهم في الكلام ليحدّ من غرورهم ويعرضهم بمكانتهم بين المسلمين على أنّهم شر الناس وأغراض الشيطان الذي أضلهم وأوردهم الحيرة، وأفضل شاهد على ذلك أفكارهم الشيطانية وأعمالهم العدوانية ضد البشرية: **«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ ٱلنَّاسِ، وَمَنْ رَمَىٰ بِهِ ٱلشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!»**.

حقّاً ليس هناك من فئة في أوساط المسلمين شر من الخوارج، فهم مصداق الآية الشريفة: **﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[1].

---

1. سورة المجادلة /١٩.

وهم مصداق واضح للآية: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾[1].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى وهى أنّ الأفراط والتفريط شيمة الأفراد الجهال، فمنهم من ألّهني ومنهم من كفّرني، فقال عليه السلام: «**وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ**».

فإن دفعكم جهلكم وجنايتكم لأن تعتبرونني كافراً، فانّ هناك من ذهب إلى عكس ذلك ـ وبدافع الجهل أيضاً ـ ليقولوا بالوهيتي، والفئتان ضالتان، والطريف في الأمر إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر الإمام عليه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفريط تجاهه، فقد روى ابن عبدالمالكي في كتاب «الاستيعاب» أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خاطب علياً عليه السلام بالقول: «**لا يُحِبُّك إلّا مُؤمن ولا يُبغِضُك إلّا مُنافِق... وَيَهْلَكُ فِيكَ رَجُلانِ مُحِبٌّ مُفرِطٌ وَكَذَّابٌ مُفْتَرٍ.. وَتَفْتَرِقُ فِيكَ أُمَّتِي كَمَا افتَرَقَتْ بَنو إسرائيلَ فِي عِيسىٰ**»[2]. (الحديث إشارة إلى أنّ طائفة من بني اسرائيل آمنت واعتقدت بالوهيته وطائفة لم تؤمن ورأته ابن الله والعياذ بالله).

وروى المرحوم السيد محسن الأمين في «أعيان الشيعة» عن «مسند أحمد» و«صحيح الترمذي» و«الاستيعاب» لابن عبدالبر و«مستدرك الحاكم» أنّ المعروف بين الصحابة بغض علي عليه السلام علامة النفاق والذي يميزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاريخياً أنّ معاوية كان يسب علياً عليه السلام ويدعو الناس إلى سبّه (وعليه فمعاوية كان من المنافقين)[3].

على كل حال فالجهّال دائماً على الإفراط والتفريط، الغلو أو العداوة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وبالتأكيد على حفظ الاعتدال فقال: «**وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ**».

---

١. سورة الكهف / ١٠٣ ـ ١٠٤.
٢. الاستيعاب ٣٦/٣.
٣. شرح نهج البلاغة لمغنية ٢٤٧/٢، كما وردت في كتاب الغدير عدّة روايات من المصادر المعتبرة للعامة بخصوص معرفة المؤمن بحبّ علي عليه السلام والمنافق ببغضه (الغدير ١٨٣/٣).

فقد ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**أَلا إنّ خَيرَ شِيعَتِي النَّمطُ[1] الأَوسطُ إِلَيهِم يَرجَعُ الغَالِي وَبِهِم يَلحَقُ التَّالِي**»[2].

ثم أصدر أمراً مهما كانت مخالفته السبب في سقوط الخوارج في وادي الضلال فقال: «**وَٱلْزَمُوا ٱلسَّوَادَ[3] ٱلْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ ٱللّٰهِ مَعَ ٱلْجَمَاعَةِ**». كما بالغ في هذا التأكيد ليقول: «**وَإِيَّاكُمْ وَٱلْفُرْقَةَ! فَإِنَّ ٱلشَّاذَّ[4] مِنَ ٱلنَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ ٱلشَّاذَّ مِنَ ٱلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ**».

فالجماعة المؤمنة غالباً من تنطلق في مسار الحق، فان ضلت طائفة منهم ذكّرتها طائفة أخرى وانقذتها من وادي الضلال، أمّا الأفراد الشاذّون والفئات الصغيرة والمعزولة عن المجتمع الإسلامي فهي عرضة لأنواع الأخطاء والانحرافات والشيطان غالباً من ما يشدد من وساوسه بينهم فهم لقمة سائغة للشيطان على غرار الشاذة من الغنم، فتكون لقمة سائغة للذئب، ثم أورد في وصيّته في الخصوص تقضي بقتل كل من رفع شعار لا حكم إلّا لله ودعى إليه الناس وإن لاذ بالإمام ﷺ واختفى تحت عمامته: «**أَلَا مَنْ دَعَا إِلَىٰ هٰذَا ٱلشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ**».

وهكذا أصدر حكمه النهائي بشأن هذه الفئة الفاسدة والمفسدة والقاسية المتعطشة للدماء والذي لا يشكلون سوى الخطر الجدّي على الإسلام والمسلمين، أمّا ما هو مراد الإمام ﷺ من مفردة «الشعار» التي وردت في العبارة المذكورة فقد اختلفت فيه أقوال شرّاح نهج البلاغة فقيل: المراد بالشعار التفرقة، قيل يعني شعار الخوارج، وكان شعارهم أنّهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل[5]، وقيل هو الشعار الذي يعدّ شعار الخوارج أينما حلّوا وقد إرتكبوا بواسطته ما لا يحصى من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنيران المجتمع الإسلامي، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقة، والقتال وسفك الدماء والفساد في

١. «النمط»: هو الطائفة من الناس التي لها هدف واحد، كما تستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى الأسلوب والطريق.
٢. بحار الانوار ١٧٨/٦.
٣. «السواد»: تعني في الأصل اللون الأسود، ولما كانت الجماعة الكثيرة والأشجار المتشابكة والكثيرة تبدو سواء من بعيد فقد وردت هذه المفردة بهذين المعنيين، وقد جاءت في هذه الخطبة بمعنى الجماعة.
٤. «شاذ»: من مادة «شذوذ» بمعنى القلّة والندرة ويطلق الشاذ على من يتخلف عن الجماعة وينفرد لوحده.
٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٣/٨.

الأرض، ومن هنا فقد حكم بالإعدام على حملة هذا الشعار.

كما وردت عدّة تفاسير للعبارة: «**لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ**»، أنسبها ما ذكرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدين بي ولاذوا بداري وكانوا تحت ثيابي.

ﮋﮊ

تأمّلات

١ـ الحذر من الإفراط والتفريط

من بين المسائل التي أكد عليها الإمام ﷺ في هذه الخطبة ضلالة وهلاك الفئة المفرطة والمفرطة، وقد ظهرت هاتان الفئتان بصورة جلية بشأن الإمام ﷺ في أوساط المجتمع الإسلامي، الفئة التي تصوّرت الإمام ﷺ هو الله والتي عاشت على عهده ﷺ وقد تلقّت أشد العقاب من الإمام ﷺ، والفئة الأخرى التي تراه ـ نعوذ بالله ـ كافراً، وقد عوقبت هذه الفئة أشدّ العقاب أيضاً. فالإفراط والتفريط مذموم في كل شيء ومصدر البؤس والشقاء، ولا يقتصر ذلك على القضايا العقائدية، بل يتجاوزه ليشمل الحياة المتواضعة، وعادة ما يستند هذا الإفراط والتفريط إلى الجهل والعصبية. فهناك طائفة انحرفت عن الإسلام وشذت عن إتباع منهج أهل البيت ﷺ، فهبطت بالله إلى منزلة متسافلة لتراه كالجسمانيات فصوّرته كفتىً أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعته فئة أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحالة معرفة ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفة الله. فئة سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر. أمّا أئمّة الهدى ﷺ فقد وصفوا أنفسهم بأنّهم «النمرقة الوسطى» أي الفئة المعتدلة البعيدة عن الإفراط والتفريط، والتي ينبغي أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون: «**نَحنُ النُّمْرَقَةُ الوُسطىٰ بِها يَلْحَقُ التّالِي وَإلَيها يَرْجَعُ الغالِي**»[١].

ﮋﮊ

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٠٩.

٢ ـ يد الله مع الجماعة

ورد التأكيد في الخطبة المذكورة على مرافقة ومسايرة السواد الأعظم، أي جماعة المسلمين والابتعاد عن كافة أشكال العزلة والتفرد، فقال ﷺ صراحة: «**يَدَ ٱللّٰهِ مَعَ ٱلْجَمَاعَةِ**»، فالجماعة الإسلامية كانت قوية ومقتدرة ذات شوكة كما كانت متحدة ومتفقة، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعة الجماعة الإسلامية وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعي يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائدية، والأفراد الانعزاليون عادة كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظنون أنّهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك في الناس تشتعل في قلوبهم نيران العداوة والبغضاء وسوء الظنّ، الأمر الذي يجعلهم يهمون أحياناً بالثأر وقتل الأبرياء والإساءة إلى المثل الاجتماعية، وأحياناً أخرى يدّعي النبوة أو الإمام أو نيابة الإمام لمهدي ﷺ فيصبح مصدراً لكل شقاق وفرقة ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارة الإمام في قوله: «**فَإِنَّ ٱلشَّاذَّ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ ٱلشَّاذَّ مِنَ ٱلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ**». طبعاً المراد من مسايرة الجماعة بمعنى الأكثرية الموصوفة بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية، وإلّا فالإسلام لا يوصي بمسايرة الأكثرية الفاسدة، قال ﷺ في موضوع آخر: «**لا تَسْتَوحِشُوا فِي طرِيقِ الهُدىٰ لِقلَّةِ أهلِهِ**»[١]. واما الذمّ الذي أورده القرآن الكريم على لسان عدّة آيات بشأن الأكثرية إلّا كان المراد بها الأكثرية الفاسدة والمفسدة: ﴿**قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٢].

☙❧

٣ ـ شرار الخلق

وصف الإمام ﷺ في هذه الخطبة الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغة، فالحق أنّ الخوارج شرّ فئة ظهرت في أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

٢. سورة المائدة/ ١٠٨.

بعد رسول الله ﷺ أي علي ﷺ الذي سق شجرة الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنّهم أسسوا لأنفسهم بالتدريج مدرسة منحرفة من حيث العقائد، كما ابتعدت عن أحكام الإسلام والقرآن السنّة، ففي جانب عقائدهم وردت عدّة أبحاث في كتب الملل والنحل تصوّر مدى اختلافها وتضاربها، ولعل ذلك بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلك فقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودي اشتراك الخوارج في ما يلي:

١ ـ تكفير عثمان وعلي ﷺ (والعياذ وبالله»

٢ ـ وجوب القيام ضد الإمام الجائر.

٣ ـ كفر من إرتكب الكبيرة (وجوب قتله).

٤ ـ أنّهم بريئون من الحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص).

٥ ـ كفر معاوية وأبتاعه وأتباعه.

لكنّهم يختلفون في بعض المسائل كالتوحيد والوعد والوعيد في القيامة والإمامة [1].

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشتركة وجوب انتخاب الأُمّة للخليفة سواء كان من قريش أم من غيرها، والأخرى قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلي ﷺ)، وكذلك شدّة مخالفتهم لكافة خلفاء بني الأمية وبني العباس، خاصّة أنّهم يسبون بني أُمية [2].

وأمّا الأباضية الذين ينتشرون اليوم في عمان ومراكش وليبيا والجزائر وتونس ومصر والذين يعدّون أحياناً من الخوارج، فهناك فارق كبير لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشتركوا معهم في مخالفة التحكيم في صفين وعدم اشتراط وصف القريشي في إمام المسلمين.

ولعل عقائد الأباضية تشبه كثيراً عقائد الشيعة مثل:

١ ـ صفات الله ليست زائدة على ذاته.

٢ ـ استحالة رؤية الله في الآخرة.

٣ ـ القرآن حادث لا قديم.

---

١. مروج الذهب، طبق نقل سفينة البحار مفردة الخوارج.

٢. قاموس دهخدا، ذيل مفردة الخوارج.

٤ ـ مرتكب الكبيرة كافر بالنعمة لا كافر ملي (يعني مثل هذا الفرد مسلم وليس خارجاً عن الإسلام).

٥ ـ وجوب موالاة أولياء الله والبراءة من أعدائه.

وروى بعض أنّهم يقولون بوجوب حبّ الخليفة الأول والثاني وبغض عثمان وعلي ﷺ إلّا أنّ الأباضية في هذا الزمان ينكرون ذلك[1].

ﮰﮱ

١. الملل والنحل لآية الله السبحاني ٢٤٢/٥ و ٢٤٩.

القسم الثالث

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ ٱلْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا ٱلْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ ٱلْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ ٱلِاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ،وَإِمَاتَتُهُ ٱلِافْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّنَا ٱلْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لَا أَبَالَكُمْ - بُجْراً، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا ٱلْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا ٱلْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ ٱلْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي ٱلْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَٱلصَّمْدِ لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

الشرح والتفسير

انحراف الحكمين

عاد الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة والذي يمثل آخرها إلى الأدلة المنطقية ليكشف بالبراهين القاطعة خطأ الخوارج.

توضيح ذلك أنّ الخوارج حين رأوا النتيجة المريرة لقضية التحكيم التي خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبي موسى الأشعري الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاوية، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل علي ﷺ التحكيم، رغم أنّهم يعلمون:

أولاً: أنّ التحكيم فرض على علي ﷺ.

ثانياً: أنّ الإمام ﷺ لم يكن راضياً بأبي موسى الأشعري ممثلاً عنه في التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر أُولئك الجهال وفرضوا عليه أبي موسى الأشعري، وقد خاض الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة في جواب

آخر على أن تحكيم الحكمين كان مشروطاً بأن يتمّ على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعملا بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام ﷺ فقال: «**فَإِنَّمَا حُكِّمَ ٱلْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا ٱلْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ ٱلْقُرْآنُ**».

جدير بالذكر إنّه ورد نفس هذا المطلب الذي أشار إليه الإمام ﷺ في متن العهد الذي أشرنا إليه سابقاً: «**وإنَّ كِتابَ اللهِ سُبحانَهُ بَينَنا مِنْ فاتِحَتِهِ إلى خاتِمَتِهِ نُحيي مَا أحيا القُرآنُ ونُميتُ مَا أماتَ**».

ثم أضاف قائلاً: «**وَإِحْيَاؤُهُ ٱلاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ،وَإِمَاتَتُهُ ٱلافْتِرَاقُ عَنْهُ**»، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول: «**فَإِنْ جَرَّنَا ٱلْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا**».

فهذا الكلام منطقي يدركه من كان له أدنى فكر وشعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهذه النعمة الإلهيّة، ثم بيّن الإمام ﷺ هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنّه اشتاط غضباً من جهلهم وكلامهم الذي يفتقر إلى المنطق فقال: «**فَلَمْ آتِ ـ لا أَبَالَكُمْ ـ بُجْراً**[1]**، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ**[2] **عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا ٱجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا ٱلْقُرْآنَ**»، لكنّهم فقدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بأُم أعينهم، كما كان الظلم والجور ديدنهما وهواهما فاتخذوا سبيلاً وقد كنّا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملا الحق: «**فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا ٱلْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ ٱلْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ ٱسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا ـ فِي ٱلْحُكُومَةِ بِٱلْعَدْلِ، وَٱلصَّمْدِ**[3] **لِلْحَقِّ ـ سُوءَ**[4] **رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا**».

فالواقع أنّ زبدة الكلام الإمام ﷺ هي:

---

١. «بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظيم، كما ورد بمعنى اتساع البطن وملأها.

٢. «ختلت»: من مادة «ختل» على وزن قتل بمعنى المكر والخداع.

٣. «الصمد»: بمعنى المكان المرتفع، كما يرد بمعنى القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٤. «سوء»: مفتوح مفعول سبق الذي ورد في أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن يبدي هؤلاء الرأي الظالم والفاسد قد اشترطنا عليهم إننا سوف لن نقبل رأيهم إن حاد عن الحق.

أولاً: إنّ انتخاب الحكمين كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان خلافاً فهو خلاف منكم لا منّي.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنية، لكنّهم آثروا هوى أنفسهم وانحرفوا عن السبيل البيّن الذي هديناهم إليه، وعليه فان كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا منّي[1].

ولكن طبيعة الأفراد الجهّال والمتعصبين حين يرتكبون مخالفة ويبتلون بسوء عواقبها شرعان ما يغرونها إلى الآخرين ويحملونها مسؤولية أخطأهم وهذا أخس الأساليب، والحال يقتضي العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالذنب في مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير في تداركها.

تأمّل

دروس التحكيم

كثير هو الكلام بشأن قضية التحكيم وهي تنطوي على الدورس والعبر التي نقلتها التواريخ والسير ومنها: أنّ عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصر في معركته أن يسلمه حكومة مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدّم أكثر رشوة لعمرو بن العاص، ولم تمض مدّة حتى كتب معاوية لعمرو بن العاص أن إعطني خراج مصر لهذا العام فبيت المال لا يسدّ حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر ـ أمّا كتابه الذي ضمنه فهو:

مُعاوِي حَظّي لا تَغْفَلِ ... وَعَنْ سُنَنَ الحَقِّ لا تَعدِلِ

أَتَنسَىٰ مُخادَعَتِي الأشعَرِي ... وَمَا كَانَ فِي دَومَةَ الجَندَلِ![2]

وَأَعلَيتُهُ المِنبَرَ المُشمَخِرَ ... كَرَجْعِ الحِسامِ إِلَى المَفصِلِ

---

١. ورد شبه هذا المعنى مع إختلاف طفيف في الخطبة ١٧٧.

٢. دومة الجندل منطقة قرب تبوك انتخبت كموضع للتحكيم.

فَأَضحىٰ لِصاحِبِهِ خالِعاً ... كَخَلْعِ النِّعالِ مِنَ الأَرجُلِ
وَأَثبَتُّها فِيكَ مَورُوثَةً ... ثُبُوتَ الخَواتِمِ فِي الأَنمُلِ
وَهَبتَ لِغَيرِي وَزنَ الجِبالِ ... وَأَعطَيتَنِي زِنَةَ الخَردَلِ
وَإِنَّ عَلِيّاً غَداً خَصمُنا ... سَيَحْتَجُّ بِاللهِ وَالمُرسَلِ
وَمَا دَمُ عُثمانَ مُنْجٍ لَنا ... فَلَيسَ عَنِ الحَقِّ مِنْ مَزْحَلِ[1]

✽✽✽

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥٦/١٠ بتصرف.

الخطبة[1] ١٢٨

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

فِيمَا يُخْبِرُ به عن المَلاحم بالبصرة

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام ﷺ في هذه الخطبة إلى عدّة أُمور:

١ ـ فتنة صاحب الزنج وهم جماعة من العبيد بزعامة فرد أسمى نفسه علي بن محمد العلوي وقد قاموا في زمان خلافة المهتدي العباسي، وقد سفكوا الكثير من الدماء.

٢ ـ إشارة إلى فتنة أخرى فسّرها شرّاح نهج البلاغة بفتنة المغول والعجيب أنّه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفي القسم السابق.

٣ ـ بيان الإمام ﷺ بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنّك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين العلم الذاتي والعلم الإكتسابي، وهو في الحقيقة تفسير للآيات القرآنية التي تنفي بعضها عن العباد علم الغيب بينما يثبته البعض الآخر.

أمّا المرحوم ابن ميثم فقد إختتم الخطبة في شرحه لنهج البلاغة بهذه العبارة «وناظرها

---

١. سند الخطبة:
جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من خطبة طويلة لإمام ﷺ في البصرة بعد موقعة الجمل، وقد نقل المرحوم ابن ميثم البحراني في شرح نهج البلاغة أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قيس من أشراف قومه والمعروف بحكمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبة بالخطبة رقم ١١٠ التي شرحت سابقاً (مصادر نهج البلاغة ٢٨٨/٢).

بعينها» واعتبر بقية الخطبة، خطبة أخرى، وهذا ما نهجه أيضاً المرحوم الخوئي وابن أبي الحديد، فقد قسموا الخطبة إلى قسمين واعتبروا كل قسم خطبة منفصلة، بينما اعتبرها المرحوم مغنية في شرحه كصبحي الصالح خطبة واحدة.

القسم الأول

«يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ ٱلَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ، وَلَا قَعْقَعَةُ لُجُمٍ، وَلَاحَمْحَمَةُ خَيْلٍ. يُثِيرُونَ ٱلْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ ٱلنَّعَامِ. (قَالَ ٱلشَّرِيفُ: يُومِئُ بذلك إلى صاحب ٱلزنج) ثمّ قَالَ ﷺ: وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ ٱلْعَامِرَةِ، وَٱلدُّورِ ٱلْمُزَخْرَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ ٱلنُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ ٱلْفِيَلَةِ، مِنْ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَابُّ ٱلدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا».

الشرح والتفسير

الفتنة المرعبة بالمرصاد

خاطب الإمام ﷺ بادىء الأمر الأحنف بن قيس[1] وهو من أشراف قبيلته، فقال: «**يَا أَحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ ٱلَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلَا لَجَبٌ[2]، وَلَا قَعْقَعَةُ[3] لُجُمٍ، وَلَاحَمْحَمَةُ[4] خَيْلٍ. يُثِيرُونَ ٱلْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ ٱلنَّعَامِ[5]**».

---

١. المراد بالأحنف بن قيس من أشراف البصرة وأحد صحابة النبي الأكرم ﷺ وورد في الحديث أنّ رسول الله ﷺ سأل الله له المغفرة، فكان يثق بدعائه رغم أنّه رجل شريف وكريم، كما وجهه رسول الله ﷺ إلى البصرة لنشر الإسلام، شهد صفين في عسكر أمير المؤمنين علي ﷺ ولم يشهد الجمل بوصيّة منه ﷺ حيث قال: إن لم أشهد المعركة فلي أن أمنع عنك ستة آلاف سيف فوافقه ﷺ.
سفينة البحار مادة حنف وأسد الغابة ٥٥/١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٤٩/٢.

٢. «لجب»: بمعنى الصياح وتطلق أحياناً على أصوات الخيل والمقاتلين.

٣. «قعقعة»: الصوت الذي ينبعث من احتكاك الأشياء اليابسة كالجام الذي ورد في الخطبة.

٤. «حمحمة»: بمعنى صوت الفرس التي لا تبلغ الصهيل المرتفع.

٥. «نعام»: حويان المعروف.

والإمام ﷺ لم يذكر إسماً لزعيم الجيش، إلّا أن القرائن الواردة في هذه العبارات وما بعدها تشير إلى أنّ المراد به صاحب الزنج الذي قام في البصرة عام ٢٥٥ هق وجمع حوله العبيد وقد خلق هناك فتنة عظيمة سنعرض لتفاصيلها في البحث القادم إن شاء الله.

والعبارة: «**لَا يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ**» والعبارات القادمة تدلّ صراحة على أنّ جيش صاحب الزنج كان من المشاة، حيث لم يكن لهم من خيول ليركبوها، طائفة من العراة المستضعفين الذين ساءت أحوالهم فقاموا على الأسياد فارتكبوا الجرائم الفضيعة، والعبارة يثيرون الأرض بأقدامهم تدلّ على أنّهم كانوا حفاة وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشي حفاة طيلة أعمارهم لتصبح كرجل الناقة، مع ذلك كانوا مخفين في السير والحركة، وحين وصل هنا المرحوم السيد الرضي ﷺ قال: (**قَالَ ٱلشَّرِيفُ: يُومئ بذلك إلى صاحب ٱلزنج**).

ثم قال ﷺ: «**وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ ٱلْعَامِرَةِ، وَٱلدُّورِ ٱلْمُزَخْرَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ ٱلنُّسُورِ، وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ ٱلْفِيَلَةِ، مِنْ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ**».

والذي يستفاد من هذه العبارة أنّ البصرة كانت عامرة (وإن عاش العبيد منتهى الشقاء والعسر) فقد كانت بيوتهم كالقصور مزودة بالشرفات والظلال الجميلة وخراطيم المياه التي تزيدها روعة وجمالاً، وكما سيأتي فانّ كل ذلك قد تحطم إثر قيام صاحب الزنج وقد ضرّج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارة «**لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ**».

تشير إلى أنّ العبيد لم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا عزّاباً فلا نادية لهم من الأقرباء ليبحثوا عنهم ويتفقدونهم ويبكون عليهم، وهذه هي صفات العبيد في ذلك الزمان حيث كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلامية وغير الإسلامية بالقهر والغلبة من البلدان البعيدة خاصّة أفريقيا، وخلافاً للتعاليم الإسلامية فقد كانوا يعاملون كالحيوانات، فكان قيام صاحب الزنج ردّ فعل تجاه المعاملة غير الإسلامية والإنسانية، ثم قال آخر كلامه: «**أَنَا كَابُّ**[1] **ٱلدُّنْيَا لِوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا**».

فهذه العبارات الثلاث إشارة إلى تفاهة متاع الدنيا لدى الإمام ﷺ وكأنّ الدنيا موجود

---

١. «كاب»: من مادة «كب» على وزن خط تعني في الأصل طرح الشيء على وجهه في الأرض.

حي شرير لا قيمة له وقد كبّه الإمام ﷺ على وجهه وهو ينظر إليه بحقارة، وتشبه هذه العبارة ما ورد عن الإمام ﷺ في قصار كلماته حيث قال: **«يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكِ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ لاَحَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لاَ حَاجَةَ لي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاَثاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا!»**[1].

ولعل شقاء أهل الدنيا المتكالبين عليها إنّما يعود إلى تقييمهم الباطل للدنيا فهم يرونها بعين أخرى فيعظمونها ويركعون لها ويضحون بالغالي والنفيس من أجلها، أمّا ما هو الإرتباط بين هذه العبارة والعبارات السابقة بشأن أخطار صاحب الزنج، فيبدو أنّ شرّاح نهج البلاغة لم يخوضوا في توضيح هذا الأمر، وربّما كان الإرتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذي أصاب أهل البصرة بسبب حبّ الدنيا، فقد شيّدوا القصور واهتموا بالدور وعاشوا الاسراف والتبذير في حياتهم، في حين عانى غالبية العبيد في مدنهم ومزارعهم الأمرّين فسامهم الزنوج أنواع العذاب.

تأمّلات

قيام صاحب الزنج

ظهر في البصرة عام ٢٥٥ هـق على عهد الخليفة العباسي المهتدي رجل زعم أنّه علي بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن علي ﷺ وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولبّوا دعوته مسرعين بسبب صعوبة معيشتهم في الدور والمزارع في خدمة السلاطين فاجتمع له مائة نفر وألف نفر، وقد وعدهم بعتقهم وتسليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقية شديدة في ذلك الزمان، فالبعض مرفه في القصور كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي ﷺ في هذه الخطبة، والبعض الآخر يعيش الحياة الصعبة، لذلك إلتحق به جماعة من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل في قلوب العبيد والمحرومين نار

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٧٧.

الإنتقام حتى أمر غلمانه بعد غلبته للأثرياء بأن يضرب كل رجل منهم خمسمائة شطبة وسبي نسائهم وكان يبيع كل واحدة منهن بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قال المؤرخ المشهور المسعودي في «مروج الذهب» أنّ صاحب الزنج قتل النساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض وكان يحرق أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل في البصرة ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات. إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّة تزيد على أربع عشرة سنة (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابرة بل كانت متجذرة في أعماق ذلك المجتمع).

وقد أوشك صاحب الزنج أن يسقط الدولة العباسية، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفة العباسي فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله في شهر صفر عام ٢٧٠ هـ وفرق جيشه بعد معركة دموية طويلة. لقد ألفت عدّة كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهيّن الذي يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائة ألف أو ثلاثمائة ألف آنذاك ليست بالشيء البسط وكذلك تلك المدّة من الحكم والتي تعتبر طويلة نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذي ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الأُمور:

١ ـ شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثورة العبيد التي حدثت في ايطاليا عام ٧٣ قبل الميلاد بزعامة اسبارتكوس الذي جمع حول فئة عظيمة من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّة انتصارات حتى قتل عام ٧١ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومة آخر الأمر والتي حكمت قسماً كبيراً من العراق وايران لمدّة أربع عشرة سنة، على كل حال فهو رجل دموي ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التي تبدو منطقية نسبياً من أجل قيامه وثروته.

٢ ـ كما ذكرنا سابقاً فانّ صاحب الزنج أسمى نفسه علي بن محمد ومن نسل الإمام السجاد ﷺ، وتلقب بالعلوي، إلّا أنّ ذلك لا حقيقة له، ولم يكن هدفه سوى شرعية حركته

والاستفادة من مكانة آل بيت رسول الله ﷺ وأميرالمؤمنين ﷺ، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكري أنّ قال: «**صاحِبَ الزِّنجِ لَيسَ مِنّا أَهلَ البَيتِ**»[١]، وكما أوردنا فانّ قيام صاحب الزنج كان أواخر عمر الإمام الحسن العسكري ﷺ وتزامناً مع الولادة المباركة لإمام العصر والزمان المهدي ﷺ.

٣ـ كان ظاهر قيام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبيد والمحرومين، لكنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب في دمار عظيم وسفك للدماء، حتى قال المسعودي في «مروج الذهب»[٢] أنّه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشيوخ وهذا أقل عدد لقتلاه، وقال بعض المؤرخين أنّه دخل البصرة بعد عامين فأحرق مسجدها الجامع وكثير من البيوت، وأحرق حتى المواشي وجرت الدماء في أزقة البصرة[٣].

٤ـ رغم كل نقاط الضعف في صاحب الزنج فقد كانت فيه بعض الجوانب الإيجابية ومنها خطه الجميل وضلوعه بعلم النحو النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التي تدلّ على ذوقه الشعري ومن أشعاره:

لَهْفَ نَفسِي عَلَى قُصُورٍ بِبغدا ... دَ وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مُلُّ عاصٍ
وَخُمُورٍ هُناكَ تُشرَبُ جَهراً ... وَرِجَالٍ عَلَى المَعَاصِي حِراصِ
لَستُ بِابنِ الفَواطِمِ الغُرِّ إنْ لَم ... أَجُلِ الخَيلَ حَوْلَ تِلكَ العِراصِ
رَأَيتُ المُقَامَ عَلَى الإقتِصادِ ... قَنُوعاً بِهِ ذِلّةً فِي العِبادِ[٤]

ومن الشعر المنسوب إليه:

وَإنّا لَتُصبِحُ أسيافَنا ... إذا مَا انْتَضَينَ لِيوم سُفُوكِ
مَنابِرُهُنَّ بُطُونَ الأَكُفِ ... وَأَغمَادهُنَّ رؤوسِ المُلُوكِ[٥]

فهذان البيتان يكشفان بوضوح عن روحيته وأهدافه.

---

١. بحار الانوار ١٩٧/٦٣.
٢. مروج الذهب ١٢٠/٤.
٣. الكنى والألقاب ٤٠٢/٢.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٨/٨.
٥. المصدر السابق.

القسم الثاني

منه في وصف الاتراك

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ ٱلْمَجَانُّ ٱلْمُطَرَّقَةُ»، يَلْبَسُونَ ٱلسَّرَقَ وَٱلدِّيبَاجَ، وَيَعْتَقِبُونَ ٱلْخَيْلَ ٱلْعِتَاقَ.

وَيَكُونُ هُنَاكَ ٱسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ ٱلْمَجْرُوحُ عَلَىٰ ٱلْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ ٱلْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْمَأْسُورِ!».

الشرح والتفسير

نبوءة أخرى

خاض الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في نبوءة عجيبة أخرى طبقها المرحوم السيد الرضي وتقريباً كافة شرّاح نهج البلاغة على المغول وحملاتهم الوحشية الهدّامة. ومن هنا قال المرحوم السيد الرضي: القسم الآخر من الخطبة في وصف الأتراك (المغول).

فقد قال الإمام عليه السلام: **«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً «كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ ٱلْمَجَانُّ[1] ٱلْمُطَرَّقَةُ[2]»**.

وردت المفردة «كأنّي» في عدّة موارد من نبوءات أميرالمؤمنين علي عليه السلام، والمفردة أراهم إشارة إلى الشهود الباطني والبصيرة التي كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصورة دقيقة، وتشبيه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضة وكبيرة ووصفها

---

1. «المجان»: جمع «مجن» ومجنة الترس.
2. «المطرقة»: من مادة «طرق» على وزن برق بمعنى دق الشيء بالمطرقة أو مطلق الدق، وعليه فالمطرقة الشيء الذي دقّ بالمطرقة.

بالمطرقة يمكن أن يكون إشارة أنّ أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحة الترس، ثم قال ﷺ: «**يَلْبَسُونَ اَلسَّرَقَ**[١] **وَاَلدِّيبَاجَ**[٢]**، وَيَعْتَقِبُونَ**[٣] **اَلْخَيْلَ اَلْعِتَاقَ**[٤]».

فالعبارة تفيد أنّ هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنة، إلّا أنّهم حين يستولون على البلدان الغنية ويسيطرون على أموالهم وثرواتهم يتجهون صوب الثياب الفاخرة والخيول النفيسة، ويحتمل أن يكون المراد أنّ لهم رغبة شديدة في القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوة القلب ويجعله أكثر مقاومة للسيف، كما للخيول الخفيفة دور مهم في ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام ﷺ في أعمالهم وأشار بعبارات قصيرة إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعة فقال: «**وَيَكُونُ هُنَاكَ اَسْتِحْرَارُ**[٥] **قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ اَلْمَجْرُوحُ عَلَىٰ اَلْمَقْتُولِ، وَيَكُونَ اَلْمُفْلِتُ**[٦] **أَقَلَّ مِنَ اَلْمَأْسُورِ**[٧]!».

فالعبارتان تشيران إلى مدىٰ سعة أبعاد الفاجعة، حيث لا يبقى في الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لابدّ من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإنّ أدنىٰ مطالعة في تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبي الحديد: واعلم إنّ هذا الغيب الذي أخبر به علي ﷺ قد رأيناه نحن عياناً ووقع في زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله[٨].

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام ﷺ بالإخبار عن فتنة صاحب الزنج التي

---

١. «السرقة»: بمعنى الحرير الفاخر أو الحرير الأبيض، وقال أغلب أرباب اللغة أصلها فارسي أخذ من السرّه بمعنى الحسن والخالص.

٢. «الديباج»: بمعنى القماش الحريري الملون، كما يستعمل أحياناً بمعنى كل قماش حسن النقش، وأصله فارسي أيضاً.

٣. «يعتقبون»: من مادة «اعتقاب» يحبسون كرائم الخيل ويمنعونها غيرهم.

٤. «اعتاق»: جمع «عتيق» بمعنى كل شيء حسن وقيّم وتستعمل في الخيل الأصيلة.

٥. «استحرار»: من مادة «حرارة» بمعنى الشدّة والحدّة.

٦. «المفلت»: من مادة «فلت» على وزن فرد بمعنى الهروب والفرار وتطلق مفردة المفلت على من ينجو من الشدّة.

٧. «المأسور»: بمعنى الأسير.

٨. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٢١٨/٨.

وقعت بعد مئتي سنة وفتنة المغول التي وقعت بعد ستمائة سنة؟ ربّما أراد الإمام ﷺ أن يذكّرهم بأنّ أعمالكم الطالحة هذه والتي تأتون بها في هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فانّ تواصلت هذه الأعمال في أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمة وسيطالكم العقاب الإلهي، كما يحتمل أن يكون الإمام ﷺ أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذي ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتتمكنوا من التقليل من آثاره المخربة.

ﮩﮨ

فتنة المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا في آسيا المركزية والشرقية في حدود الصين وهم طوائف مختلفة، طائفة منهم التاتار، وكانوا يأتمرون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفة وإدّعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ٦٠٠ هـ سعى للسيطرة على الأقوام المختلفة لتلك المنطقة حيث أراد الرئاسة العامّة لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذي كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزية، فقد عقد الهدنة بادىء الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّة حتى نشبت بينهما عداوة فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّا أن هجم على ايران وسائر المناطق الخاضعة لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبي الحديد الذي عاش في ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ٢٥ صفحة في شرحه لنهج البلاغة وتطرق فيها بالتفصيل إلى حملة المغول على المناطق الإسلامية وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر به الإمام ﷺ قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبي الحديد بهذا الشأن:

هم التاتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم ﷺ إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذي كان شجاعاً عاقلاً

موفقاً منصوراً في الحرب، كما كان عسكره من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصورة شبه وحشية وأنّهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار ويعلمون ما يحتاجون إلى من السلاح بأيديهم، وأنّ خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنّهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير وهم أصبر خلق الله سبحانه على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم أخشن الثياب مسّاً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب والميتة، وأنّهم أشبه شيء بالوحش والسباع، كانوا يقتلون كل من يرونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المدن ويسبون النساء الأطفال، لقد دخلوا من شرق ايران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحد في مواجهتهم، ومن قاومهم استسلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتح لهم أبواب المدن بعد أن يعطيهم التاتار الأمان حين يطلبونه، ولكنّهم كانوا ينقضون عهدهم ويقتلون أهالي المدن ويسبون النساء والأطفال ويعذبون الناس بأنواع العذاب في طلب المال.. ومن العجيب في هذ الأحداث أنّهم وصلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانية، فحصلت بين الفريقين مقتلة عظيمة، ولم يبلغوا منها غرضاً حتى اختلف أهل إصفهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وهم طائفتان: حنفية وشافعية، وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة، فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى ما يجاروهم ويتاخمهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم، وفتحت أبواب المدينة فلما دخلوا البلد بدؤا بالشافعية فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائرالناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصفهان حتى صارت تلولاً من الرماد.

ثم ساروا إلى بلاد العرب فهجموا على بغداد فتصدى لهم عسكر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهام، وبعد مدّة توفي جنكيز وخلفه حفيده هولاكو الذي تمكن من السيطرة على بغداد بعد أن قتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله وقد أنهى حكومتهم بذلك.

وبقي المغول في إيران والبلدان الإسلامية وقد فقدوا ما طبعوا عليه من وحشية بالتدريج وتأثروا بالثقافة الإسلاميه، وأسلم هولاكو حتى تشيع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطين المغول[1].

---

١. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٢١٨/٨ ـ ٢٥٢، وقاموس دهخدا مفرد المغول.

القسم الثالث

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ ﷺ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيّاً: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ...) الْآيَةَ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي».

٨٠٥

الشرح والتفسير

الغيب لله ولكن...

حين خاض الإمام ﷺ في تلك الحادثتين المهمتين (قيام صاحب الزنج وفتنة المغول) وذكر خصوصياتها «**فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ!**».

فالعبارة وإن كانت على سبيل الإخبار، لكنّها في الواقع استفهامية، لأنّه سمع أن علم الغيب مختص بالله سبحانه، ولذلك طلب توضيح الإمام ﷺ: «**فَضَحِكَ ﷺ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيّاً: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ**».

قطعاً أنّ ضحك الإمام ﷺ لم يكن بدافع السخرية ولم يفرزه الغرور، بل كان ضحك الفرح

والسرور، ولعل مرد ذلك إلى حسن الأمر في طرح ذلك السؤال من الرجل الكلبي ليكشف الإمام ﷺ عن كنه ذلك الموضوع أمام الجميع.. أو أنّ ضحكه كان من تعجبه في أنّه لا ينبغي أن يكون مثل هذا الأمر بخفي على أحد، على كل حال فانّ عبارة الإمام ﷺ تشير إلى حقيقة في أنّ ذلك العلم مختص بالله وهو علم ذاتي، والعلم الممكن لما سوى الله، فهو العلم الحاصل من التعلم والذي له بُعد إكتسابي، يعني يتعلّمه الإمام ﷺ من النّبي ﷺ والنّبي عن طريق الوحي الإلهي (سيأتي شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام ﷺ: «**وَإِنَّمَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِوَيُنَزِّلُ الْغَيْبُ، وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ...﴾**[1]».

ثم أوضح معنى ذلك قائلاً: «**فَيَعْلَمُ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي ٱلنَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي ٱلْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً**».

فخلص ﷺ إلى نتيجة نهائية مؤدّاها: «**فَهَذَا عِلْمُ ٱلْغَيْبِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ ٱللَّهُ، وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ ٱللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ[2] صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ[3] عَلَيْهِ جَوَانِحِي[4]**».

فالذي يستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولاً: أنّ علم الغيب علم ذاتي مختص بالله سبحانه وتعالى، لكن العلم الإكتسابي والإعطائي لا يسمى بعلم الغيب، بل هو ذلك العلم الذي علّمه الله سبحانه نبيّه وعلّمه النبي من يراه مستعداً لذلك العلم.

ثانياً: لهذه العلوم التعليمية استثناءات وردت خمسة منها في الآية الشريفة الأخيرة من

---

١. سورة لقمان / ٣٤.

٢. «يعي»: من مادة «وعي» على وزن سعي بمعنى حفظ الشيء في القلب، أو بعبارة أخرى التعلم والايداع في الحافظة.

٣. «تضطم»: من مادة «ضم» بمعنى جمع الشيء.

٤. «جوانح»: جمع «جانحة» الأضلاع تحت الترائب ممّا يلي الصدر.

سورة لقمان، وهذه مصاديق علم الغيب التي لم يعلّمها الله سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابدّ من طرح هذه الأسئلة

١ ـ كيف يستفاد من الآية الشريفة أنّ هذه العلوم الخمسة مختصة بالله سبحانه؟

٢ ـ كيف تختص هذه العلوم بالله والحال أخبر النبي ﷺ والأئمّة عليهم السلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال في الأرحام أو الزمان والمكان الذي يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصرة فمثلاً متى وأين سينزل المطر، وذلك الجنين ولد أم بنت؟

٣ ـ ما الفارق بين هذه العلوم الخمسة وسائر الأمور الخفية التي لا يعلمها غير الله سبحانه؟

ويقال في الإجابة على السؤال الأول: العبارة الأُولى بشأن القيامة قد بيّنت بوضوح إختصاص علمها بالله سبحانه، وتقديم عنده على علم الساعة دلالة على الحصر، يعني العلم بالقيامة مختص فقط بالذات الله المقدس، كما تدلّ العبارة والرابعة والخامسة على الحصر أيضاً حيث قالت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ...﴾.

وبناءاً على ما تقدم فانّ المورد الثاني والثالث بمقتضى وحدة السياق جزء من العلوم المختصة بالله سبحانه، والروايات المتعددة الواردة عن أئمة العصمة عليهم السلام في تفسير الآية شاهد أخر على هذا المعنى[1].

ويقال في الردّ على السؤال الثاني: أنّ الالتفات إلى هذه النقطة ضرورة، وهي أنّ العلم بهذه الأمور الخمسة بصورة تفصيلية مختص بالله سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمالي للمعصومين أو بعض أولياء الله سبحانه، مثلاً يمكن أن يعلم المعصوم أنّ المطر ينزل غداً، أو الشخص الفلاني يموت في الأرض الفلانية، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظة الشروع وحبات المطر التي تنزل في المكان، وكذلك العلم بلحظة الموت والبقعة التي يموت فيها والحالات الناشئة من سكرات الموت وما إلى ذلك في أمور فهو مختص بالذات الإلهيّة المقدّسة،

١. تفسير نور الثقلين، ووردت أحاديث سبعة أقلاً في هذا المضمار في ذيل الآية الشريفة.

والشاهد على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين في رحم أمّه فقال: «**فَيَعْلَمُ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً**»، وسائر الأمور التي يقتصر علمها على الله تبارك وتعالى، وبناءاً على هذا فما يعلمه الناس من حالات في بعض الأدوار الجنينية من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداولة في الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئي، والحال يختص العلم الكلي بالله سبحانه.

وأمّا الإجابة على السؤال الثالث: فلابدّ من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامة وسائر الأمور الخفية، سوى أنّ الآية المذكورة وروايات المعصومين عليهم السلام تفرّق هذه الأمور مع سائر الأمور الخفية وتقول بأنّ العلم التفصيلي فيها مختص بالذات الإلهيّة، ولكن في الموارد الأخرى كالذي ورد في هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج وحملة المغول، فممكن أن يزود الله بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالي والتفصيلي، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنية وروايات المعصومين المعتبرة.

علم الغيب في الآيات والروايات

اختلف العلماء في قضية علم الغيب وهل هناك من يعلم الغيب سوى الله سبحانه أم لا؟ ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلامية، فبعض الآيات القرآنية صرّحت علانية قائلة أنّ علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، مثل الآية ٦٥ من سورة النمل: ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّهُ...**﴾.

وصرحت في الآية ٥٩ من سورة الأنعام قائلة: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...**﴾، في حين يستفاد من البعض الآخر من الآيات أنّ جانباً من علم الغيب على الأقل قد زود به بعض أولياء الله تعالى، كما في الآية ٤٩ من وسورة آل عمران بشأن السيد المسيح عليه السلام: ﴿**ءَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...**﴾، والآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الجن: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...**﴾.

ونرى نفس هذا التفاوت في الروايات، فمثلاً جاء في الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام ورد مجلساً غاضباً وكان فيه أبو بصير وبعض أصحابه، فلما جلس قال: «**يَا عَجَباً لأقوامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعلَمُ الغَيبَ مَا يَعْلَمُ الغَيبَ إلّا اللهُ عزَّ وَجَلَّ**»[1].

بينما يستفاد من عدّة روايات علم الأئمّة المعصومين عليهم السلام بأغلب الأمور الخفية كالذي ورد في هذه الخطبة بشأن فتنة صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغة بخصوص الأمور المستقبلية، وممّا لا شك فيه أنّه ليس هناك من تضارب بين الآيات المذكورة وأمثالها ولا بين الروايات السابقة (والروايات الأخرى التي وردت بهذا المضمون) وقد ذكر المحققون عدّة آراء من أجل الجمع بين هذه الآيات والروايات، منها:

١ ـ المراد بعلم الغيب الذي اختصته الآيات والروايات بالله تبارك وتعالى هو العلم الذاتي، وما يعلمه الأنبياء والأولياء هو العلم التعليمي من جانب الله سبحانه (وهو ما ورد في كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة).

٢ ـ أسرار الغيب على قسمين: قسم يختص بالله تعالى ولا يعلمه أحد إلّا هو كزمان الساعة والأمور الأخرى التي وردت في الآية ٣٤ من سورة لقمان، وقد أشارت الخطبة إلى هذا الوجه في الجمع وقد تقدم شرح ذلك.

٣ ـ علم الله سبحانه بأسرار الغيب بالفعل يعني يعلم كل شيء في كل زمان، أمّا علم أولياء الله سبحانه، فليس بفعلي بل حيني، أي إن أرادوا أن يعلموا شيئاً وتتحقق هذه الإرادة باذن الله تعالى ورضاه، ومن هنا نقرأ في سورة يوسف أنّ يعقوب لم يكن يعلم مصير ولده في صحراء كنعان، والحال علم بعد سنوات بمصيره في مصر، فقد وجد ريح يوسف من مصر بينما لم يجده في بئر كنعانه، فلم يكن مأذوناً في المورد الأول لأن يريد فيعلم، بينما أذن له في المورد الثاني.

٤ ـ الطريق الآخر للجمع بين الآيات والروايات المختلفة في أنّ أسرار الغيب مثبتة في موضعين، اللوح المحفوظ والذي لا يحدث فيه أدنى تغيير ولا يعلمه إلّا تعالى، واللوح المحو والإثبات وهو في الواقع علم بالمقتضيات لا علم بالعلة التامة، ومن هنا فهو قابل للتغيير، وما

---

١. اصول الكافي ٢٥٧/١، ح ٣ من باب «نادر فيه ذكر الغيب».

يعلمه أولياء الله إنّما يرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزيد من الشرح لكل من الطرق الأربعة المذكورة، فليراجع المجلد ١٩، من تفسير الأمثل في تفسير سورة الجن.

൬൬

الخطبة[1] ١٢٩

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

في ذكر المكاييل والموازين[2]

نظرة إلى الخطبة

خاض الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بوعظ المسلمين فأورد عدّة نصائح شافية وكافية، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستنتهي بسرعة هذه الضيافة، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث في الثانية عن سعة الفساد في ذلك العصر شاكياً منه، وأشار في الثالثة إلى الأخيار والصلحاء والاتقياء والسمحاء ليحذر من خلال المقارنة بضرورة إصلاح النفس وإجتثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبة بذم المرائين الذين يأمرون بالمعروف وليسوا من أهله، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

---

١. سند الخطبة:
ورد في مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الخطبة وإن كانت في رعاية العدل في الكيل والميزان، لكن لا يرى مطلب بهذا الخصوص في هذه الخطبة سوى إشارة قال فيها الإمام عليه السلام: «اين المتورعون في مكاسبهم»، وهذا يدلّ على أنّها جزء من خطبة طويلة أشارت إلى هذه المسألة المهمة، إلّا أنّ المرحوم السيد الرضي كعادته يختار منها ويترك بقيتها، رواها الزمخشري في «ربيع الأبرار»، كما ورد قسم منها في «غرر الحكم» (مصادر نهج البلاغة ٢/٢٩٠).

٢. مكاييل جمع مكيال، والموازين جمع الميزان.

القسم الأول

«عِبَادَ اللّٰهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هٰذِهِ الدُّنيَا - أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلاَ الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلاَّ طَمَعاً. فَهٰذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ. اِضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ [تنظر] إِلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ اللّٰهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللّٰهِ وَفْراً، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً!».

الشرح والتفسير

التحذير من الفساد الاجتماعي

كما ورد في سند الخطبة وخلافاً لما جاء في عنوان هذه الخطبة فاننا لا نشاهد في متنها ما يشير إلى رعاية العدل في الكيل والوزن، ولعل ذلك يعود إلى أحد سببين: إمّا أنّ المرحوم السيد الرضي ﷫ قد حذف بعض جوانب الخطبة المتعلقة بالكيل والوزن حسب طريقته في اختيار الأفصح، أو ليس هنالك من حذف في الخطبة إلّا أنّ الإمام ﷺ خطب بهذه الخطبة في ظروف حين اتسع الفساد في الكيل والوزن والتطفيف في البيع وظلم الناس وساد ذلك في المجتمع، وبالنظر إلى ذلك أورد الإمام ﷺ هذه الخطبة ليحذر المردة، بعبارة أخرى فانّ شأن وورد الخطبة قضية الكيل والميزان وإن لم يذكر ذلك صريحاً في متنها، إلّا أنّه ذكر من خلال الدلالة الالتزامية، على كل حال خاطب الإمام ﷺ عامة الناس وقد حذرهم من تقلب الدنيا

وفساد المجتمع فقال: «**عِبَادَ ٱللَّهِ، إِنَّكُمْ ـ وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هٰذِهِ ٱلدُّنـيَا ـ أَثْـوِيَاءُ**[1] **مُـؤَجَّلُونَ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ**».

فقد شبّه الإمام ﷺ وضع أهل الدنيا بهذه العبارة بالضيوف الذين دعـوا لمـدّة معينة في ضيافة، وبالأفراد المدينين الذين لا يتركهم دائنوهم، فمن الطبيعي ألا يرى الضيف دار المضيف محطته الأبدية، فهم لا يتعلق بها أبداً ولا يثق بها ولا يحرص عليها، وليس الشخص المدين الذي يتابع دائماً من قِبل الدائن من سبيل سوى منحه كل ما يجد بالتدريج، أملاً بأن يأتي اليوم الذي يكون قد سدد فيه كل دينه، كأنّ العمر الذي منحنا الله تعالى من ديوننا التي تؤخذ منّا كل لحظة، والمشكلة المهمّة أنّ إلى جانب ذلك العمر المتقلب والذي ينقضي بسرعة أعمالنا التي نقوم بها والتي تحفظ ويجب علينا تحمل تبعاتها.

وروى بعض شرّاح نهج البلاغة عن بعض الصلحاء قوله: «**مَا أدرِي كَيفَ أعجَبُ مِنَ الدُّنيا! أمن حُسنِ مَنظَرِها وَقُبحِ مَخبَرِها أم مِنْ ذَمِّ النَّاسِ لَها وَتَناحُرِهُم عَلَيها**»[2].

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه قائلاً: «**فَرُبَّ دَائِبٍ**[3] **مُضَيَّعٌ، وَرُبَّ كَادِحٍ**[4] **خَاسِرٌ**».

صحيح أنّ السعي والجهد رمز الموفقية والنجاح، إلّا أنّ هذا ليس قـانوناً كـلياً، فـهناك الأفراد الذين أفنوا عمرهم في السعي والجد وأجهدوا أنفسهم ليل نها ولم يظفروا بشيء، وهذا أحد إحباطات الإنسان في الحياة الدنيا، ولعل العبارة إشارة إلى السعي المتعلق بالأمور المادية أوالمعنوية، لأنّهم كثيرون هو الأفراد الذين أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى المـقامات المعنوية والنجاة الأُخروية، ولكن تسـللت إليهـم أهـواء النـفس ووسـاوس الشـيطان في اللحظات الحساسة فاشتعلت النيران في مزارع طاعتهم وأحـرقت كـل شيء، ثم أشـار إلى الأوضاع المزرية لزمانهم وإقبال الناس على المساوىء وفرارهم من الصالحات فقال: «**وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ ٱلْخَيْرُ فِيهِ إِلاَّ إِدْبَاراً، وَلاَ ٱلشَّرُّ فِيهِ إِلاَّ إِقْبَالاً، وَلاَ ٱلشَّيْطَانُ فِـي**

---

١. «أثوياء»: جمع «ثوي» على وزن قوي بمعنى الضيف وفي الأصل من مادة «ثواء» بمعنى الإقامة في مكان.
٢. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٢٤٧/٨.
٣. «دائب»: من مادة «دؤوب» على وزن غروب المداوم في العمل.
٤. «كادح»: من مادة «كدح» على وزن مدح الساعي بجهد ومشقة في القيام بعمل.

هَلاكِ ٱلنَّاسِ إلاَّ طَمَعاً. فَهٰذا أَوانُ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ،وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ[1]».

فهذه العبارات الصريحة والواضحة تشير إلى مدى سقوط الوضع الأخلاقي للمسلمين في ذلك العصر والزمان بفعل الحكومات المستبدة، ومدى الوسط المضحك الذي واجهه الإمامعليه السلام في عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن كان على رأس الحكومة فانّ الفساد سيشمل كل شيء «**النّاس عَلى دينِ مُلُوكِهِم**».

فما الذي يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم في المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانية ليدخل المحراب فيصلي بالناس جماعة ثملاً، ويمارس الآخرون الرذيلة والأعمال البشعة، أو ليست سلطة الشيطان بالتكالب على الدنيا وإبتاع الأهواء؟

نعم، إنّ سادت هذه الأمور تيسرت حكومة الشيطان، فقد ورد في الخبر أنّ ابن عمر وبعض ولد أبي بكر وسعد بن أبي وقاص قصدوا علياًعليه السلام حين خلافته وسألوه زيادة العطاء من بين المال، فصعدعليه السلام المنبر وخطب الناس قائلاً: «**... إذا مَنعتُهُم مَا كانُوا فيهِ يَخُوضُونَ وَصَيّرتُهُم إلىٰ مَا يَستَوجِبُونَ فَيَفقِدون ذٰلكَ فَيسألُونَ وَيَقُولُونَ: ظَلَمنا ابنُ أبي طالبٍ وَحَرَمنا وَمَنعنا حُقوقَنا ـ إلى أن قال ـ أَمّا أَنّي أعلَمُ الّذي تُرِيدُونَ وَيُقِيمَ أَودكم، وَلَكن لا أَشتَري صَلاحَكُم بِفَسادِ نَفسِي...**»[2].

ثم قال: «**إِضْرِبْ بِطَرْفِكَ**[3] **حَيْثُ شِئْتَ مِنَ ٱلنَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ [تنظر] إلاَّ فَقِيراً يُكَابِدُ**[4] **فَقْراً، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ ٱللّٰهِ كُفْراً، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ ٱلْبُخْلَ بِحَقِّ ٱللّٰهِ وَفْراً**[5]**، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ ٱلْمَوَاعِظِ وَقْراً**[6]**!**».

---

١. «فريسة»: من مادة «فرس» على وزن قرض بمعنى الصيد.
٢. اصول الكافي ٥٥١/٨.
٣. «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.
٤. «يكابد»: من مادة «كبد» بمعنى تحمل المشقة وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة، كما وردت بمعنى الجعل في المشقة.
٥. «الوفر»: بمعنى الوفير والكثير.
٦. «الوقر»: بمعنى الثقل.

فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومة أو منحرفة تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:

الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذي عبرت عنه الروايات بالقول: «**كَادَ الفَقرُ أَنْ يَكُونَ كُفراً**».

الثانية: الأغنياء الذين غرقوا في النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شيء وهووا في الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أنّ البخل سبب زيادة الثروة.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التي قال فيها: «**اِضْرِبْ بِطَرْفِكَ**[1] **حَيْثُ شِئْتَ...**» فلا تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أنّ الفقر والفساد أصبح على درجة من الشمولية بحيث ظهرت آثارهما في كل مكان، والدليل على تلك السعة والشمولية ما أُشير إليه في العبارة المذكورة.

ﮩﮪ

---

١. «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأنّ الأجفان تتحرك حين النظر.

القسم الثاني

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ ٱلْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَٱلْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلدَّنِيَّةِ، وَٱلْعَاجِلَةِ ٱلْمُنَغِّصَةِ. وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلاَّ فِي حُثَالَةٍ لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ ٱلشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ(إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ)، فَلَا مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهٰذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا ٱللّٰهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لَا يُخْدَعُ ٱللّٰهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ ٱللّٰهُ ٱلْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ ٱلتَّارِكِينَ لَهُ، وَٱلنَّاهِينَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ٱلْعَامِلِينَ بِهِ!».

ﮋﮊ

الشرح والتفسير

أين الأخيار؟

استعمل الإمام ﵇ عبارات بليغة رائعة في هذا المقطع من الخطبة ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولي عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال: «أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ![1] وَأَيْنَ ٱلْمُتَوَرِّعُونَ[2] فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَٱلْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ!».

فقد بحث الإمام ﵇ بهذه العبارات عن ستة طوائف في المجتمع ليدل فقد انها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هي: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

---

١. «سمحاء»: جمع «سميح» الشخص الرؤوف وصاحب الكرم، وقيل من يبذل حين وفرة النعمة وضيقها.

٢. «متورع»: من مادة «ورع» بمعنى اجتناب الذنب والشبهة.

المتورعون، والمتنزهون، حقّاً إنّ افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجيبة في المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين في مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطففون في البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولا يرابون والذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العامر بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنّهم نماذج المجتمع إنّما يشعر بالامتعاظ لا سيّما إن رأى بدلاً منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين أُولئك الأعزة؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام: «**أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا[1] جَمِيعاً عَنْ هذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ، وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ[2]**».

فأردفها عليه السلام بالقول: «**وَهَلْ خُلِقْتُمْ[3] إلاَّ فِي حُثَالَةٍ[4] لا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَـ(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)**».

وقد انبثقت هذه الظروف العصيبة والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلي وقد بلغ الأمر ذروته على عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسة من الحكومة الإسلامية إلى أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوى وقد تغلغلوا في المجتمع الإسلامي بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكومة علي عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافة المعارك التي حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الوظيفة التي ينبغي أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال: «**ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أَفَبِهذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللّهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟**».

---

١. «ظعنوا»: من مادة «ظعن» السفر والرحيل.
٢. «المنغصة»: من مادة «نغص» على وزن نقص الكدر وعدم الصفاء ماء الشرب، ثم اطلقت على كدورة العيش ومنه العيش المنغص.
٣. وردت هذه المفردة في أغلب شروح نهج البلاغة خلقتم التي لا تختلف كثيراً عن «خُلِّفْتُم» كما لم تذكر إلّا في العبارة إلّا بذمهم.
٤. «حثالة»: تعني في الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذين لا شخصية لهم.

طبعاً إنّ هذا الاستفهام إستفهام استنكاري، والمراد على ضوء هذا الوضع الذي سلكتموه وقد سكتم إزاء الفساد أو أعنتم عليه، فلا من أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهي وتكونوا في صفوف أولياء الله، فأكد ذلك بالقول: «**هَيْهَاتَ! لَا يُخْدَعُ ٱللّٰهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ**».

فأُولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون في صفوف أهل الإيمان لكنّهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرون على خداع الله العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّة، ولكن أنىٰ لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفى على الله منهم خافية، فليس أمامهم سوى الندم.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «**لَيسَ الإيمانُ بِالتَّحلّي وَلا بِالتَّمنّي ولكن الإيمانَ ما خَلصَ فِي القَلبِ وَصَدَّقَهُ الأعمالُ**»[1].

ثم إختتم الخطبة مشدداً في التأكيد فقال: «**لَعَنَ ٱللّٰهُ ٱلآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ ٱلتَّارِكِينَ لَهُ، وَٱلنَّاهِينَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ٱلْعَامِلِينَ بِهِ!**».

صحيح أنّ عمل الإنسان لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعبارة أخرى فانّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملاً بالمنكر.

كما ورد عن رسول الله ﷺ: «**مُروا بِالمَعرُوفِ وَإن لَم تَفعَلوهُ وَانهُوا عن المُنكَرِ وإن لَم تَجتَنِبُوا كُلَّهُ**»[2].

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهى عن المنكر ولا ينتهي عنه بحدّ ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللوم والعقاب.

وبعبارة أخرى فانّ اختلاف الظاهر والباطن الذي يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التي يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بُعده عن الله ورحمته.

---

١. بحار الانوار ٧٢/٦٦، ح٢٦.

٢. كنز العمال ٦٦/٣، ح ٥٥٢٢.

شكوى أهل الزمان

من المسائل الغاية في الصعوبة والمرارة في التاريخ الإسلام هو أنّ علياً ﷺ بدلاً من أن يأخذ بزمام أمور الأُمة الاسلامية بعد رسول الله ﷺ لينشر الإسلام في الشرق والغرب ويحفظ مبادئ الإسلامية، قد تسلم الحكومة الإسلامية والأُمّة الإسلامية عاشت الانحراف عن العدالة والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيّما عهد عثمان الذي ضاعت فيه القيم الإسلامية وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثالة بني أمية وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّا في المال والثروة والمقام والسيطرة على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهلية، فقد قام الإمام ﷺ في ظل هذه الظروف العصيبة من أجل إحياء القيم الإسلامية وسنّة رسول الله ﷺ وإطفاء فتن الجاهلية، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانذار واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبي الأكرم ﷺ ومقارنتها بالأوضاع السائدة، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذي صبّ على العتاة الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلامية والإنسانية شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام ﷺ حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام ﷺ، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أنّ تلك الأجواء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمة بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام ﷺ لتبقى تلك البرامج ناقصة، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث في الأرض الفساد.

الخطبة ١٣٠ [1]

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

لأبي ذرّ رحمه الله لمّا أخرج إلى الربذة

نظرة إلى الخطبة

لما إنهال أزلام بني أمية وبني مروان على بيت مال المسلمين بتلويح من عثمان فجعلوا ينهبون ما يريدون، واجههم أبو ذر ﷺ ذلك الصحابي الشجاع والأسوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأصبح يشكل خطراً جدّياً على منافعهم، فأشاروا على عثمان بنفيه إلى ربذة التي تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أمّا الإمام ﷺ فقد أراد أن يثبت عدم شرعية هذا الحكم الجائر من جهة، وأن يشد من عزيمة أبي ذر من جهة أخرى، فيعينه على تحمل ما يواجهه من صعوبات، ومن هنا شايع أبي ذر وقد واساه بكلمات رائعة وعميقة وأمله بالمستقبل الزاهر الذي ينتظره، كما أضاف ورقة سوداء أخرى إلى سجل بني أمية ومروان المظلم.

---

١. سند الخطبة:
ذكرها المرحوم الكليني في كتاب «روضة الكافي» باختلاف طفيف ويستفاد من ذيلها أن ليس علي ﷺ شيعه إلى الربذة فقط، بل شيعه الإمام الحسن والحسين ﷺ وعمار (وعقيل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعة سيأتي بيانها في الأبحاث القادمة (الكافي ٢٠٦/٨، ح٢٥)، قال صاحب مصادر نهج البلاغة بعد الإشارة إلى رواية الكافي نقلها ابن أبي الحديد عن كتاب «السقيفة» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهري (مصادر نهج البلاغة ٢٩١/٢).

القسم الأول

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ. إِنَّ ٱلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ ٱلرَّابِحُ غَداً، وَٱلْأَكْثَرُ حُسَّداً [خسَّراً]. وَلَوْ أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَىٰ ٱللّٰهَ لَجَعَلَ ٱللّٰهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً! لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ ٱلْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ ٱلْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ».

الشرح والتفسير

أبو ذر‌ؓ بطل مقارعة الفساد

كما ذكرنا فانّ الإمام ؑ أورد هذا الكلام حين نفي أبو ذر من قبل عثمان إلى الربذة، جاء في الخبر: لما أخرج أبو ذر إلى الربذة أمر عثمان، فنودي في الناس ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه، وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به، فخرج به، وتنحّى عنه الناس إلّا علي بن أبي طالب ؑ وعقيلاً أخاه وحسناً وحسيناً ؑ وعماراً ؓ، فانّهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن ؑ يكلم أبا ذر، فقال مروان إيها حسن ألا تعلم أنّ أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى عن كلام هذا الرجل، فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل علي ؑ على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنحّ لحالك الله إلى النار، فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥٢/٨.

وهنا وقف أبو ذر ﷺ فودعه القوم، وخطب الإمام ﷺ بهذه الكلمات التي تتضمن كل واحدة منها نقطة مهمّة بهدف مواساة أبي ذر وتحمله المصاعب التي ستواجهه في المستقبل، فقد أشار ﷺ إلى ست نقاط فقال أولاً: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ**».

أمّا قوله ﷺ فارج من غضبت له ولم يقل ارج الله، فالواقع بيّن الإمام ﷺ دليل ذلك الأمل، لأنّ كل شخص يغضب لآخر بالنسبة لشيء يؤذيه، فمن الطبيعي أنّ ذلك الشخص سيقف إلى جانبه.

وقال في الثانية: «**إِنَّ ٱلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَىٰ دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَىٰ دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ**».

إشارة إلى أنّهم شعروا بالخطر على حكومتهم ومنافعهم المادية إثر صراحة كلامك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يستطيعوا تحمل وجودك في المدينة، لكنّك قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلك لأنّك شعرت بالخطر على دينك، فلما قمت بوظيفتك واطلعت الناس على أعمال هؤلاء الحكام، فاتركهم واهرب بدينك وإيمانك.

ثم قال الإمام ﷺ: «**فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَىٰ مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ ٱلرَّابِحُ غَداً، وَٱلْأَكْثَرُ حُسَّداً**»، فهم بحاجة إلى دينك، الدين الذي لم تكن مستعداً للتضحية به من أجل دنياهم، لكنّك لست بحاجة إلى دنياهم وإن منعوها عنك[1]، والعبارة «وستعلم...» مواساة أخرى لأبي ذر فعمر الدنيا قصير كأنه ويوم وغدا تقوم القيامة، أنذاك سيفتضح الظلمة عبدة الدنيا ويغبطون الأتقياء على درجاتهم العالية، ثم ضاعف من ذلك الرجاء في قلب أبي ذر فقال في الثالثة: «**وَلَوْ أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرَضِينَ كَانَتَا عَلَىٰ عَبْدٍ رَتْقاً**[2] **ثُمَّ ٱتَّقَىٰ ٱللَّهَ لَجَعَلَ ٱللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً**».

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾[3].

---

١. وعليه تفسير «ما» بالموصولة بمعنى الدين لأنّهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبي ذر لصالح دنياهم، فحال أبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الدين بصورة مطلقة، إلّا أنّ هناك تقديراً في العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الدين، الدين الذي حذرت عليه من إفسادهم له.

٢. «رتق»: إلتحام شيء بآخر وتعني في العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

٣. سورة الطلاق / ٢ـ٣.

ثم قال في الرابعة والخامسة: «**لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلاَّ الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلاَّ الْبَاطِلُ**».

فليكن أنسك في الحق ولا تخشى شيئاً مادمت في هذا السبيل، ولتكن وحشتك من الباطل وإنّك لسعيد مادمت هارباً من الباطل. فلا ضير عليك إنّك قمت لله وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر في الله، فلو قبلت دنياهم وعاونتهم في نيل أطماعهم المادية لأحبّوك، ولو أخذت من ذلك شيئاً وهادنتهم لأمنوك، ولذا قال في السادسة: «**فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لَأَحَبُّوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ**[1] **مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ**»، فهم تجار ظلمة ذائبون في الدنيا وأهل معاملة فيها، فمن وافق على مظالمهم وهادنهم بقبول سهم من أموالهم، أحبّوه وقدّسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فعبارته ﷺ مواساة لأبي ذر من جانب وصاعقة شديدة على الحكام الظلمة من جانب آخر. فالحق أن نفي «أبوذر» ذلك العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان وصمة عار في جبين الحكام الظلمة وأعوانهم، فقد كانوا يعلمون أنّ لسان ذلك الصحابي الجليل يعدل مئة ألف سيف.

تأمّلات

١ـ من هو أبو ذر ﷺ

تعتبر حياة أبي ذر مليئة بالأحداث مقارنة بحياة سائر صحابة النبي الأكرم ﷺ والتي يمكنها أن تكون أسوة لكافة المجاهدين في سبيل الحق طيلة التاريخ البشري، ولا غرو فحياته إقتباس من حياة مولاه رسول الله ﷺ وعلي ﷺ مع فارق بسيط هو أنّه خضع لظروف صعبة جداً، لكنّه لم يتوان قط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوقوف بوجه الظلمة والفساد.

وإليك جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جنادة[2] وأسماه رسول الله عبدالله، ينسب إلى طائفة معروفة من طوائف

---

١. «قرضت»: من مادة «قرض» تعني في الأصل قطع الشيء ومن هنا يقال المقراض للمقص، كما يقال القرض لما يعطى من مال، ووردت في العبارة المذكورة بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنة الظالمين.

٢. روت أغلب المصادر «جندب وجنادة» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

العرب وهي بني غفار، كانت له ضيعة أطراف مكّة، سمع ببعث النبي الأكرم ﷺ فاتجه إلى مكّة، فلما دخل المسجد رأى فيه طائفة من قريش وهي تتحدث عن رسول الله ﷺ وهي تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسكتوا هذه عمّه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلى أبو طالب وسأله هل من حاجة؟ قال: أُريد الايمان بالنبي ﷺ، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقضى أبو ذر ليلته في المسجد الحرام، وفي اليوم التالي إلتق حمزة، ثم تعرف بجعفر وعلي وأخيراً حمله علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فأسلم وآمن طواعية.

ثم أمره رسول الله ﷺ بالرجوع إلى أهله وقال له: فان لك ابن عم قد توفي وليس به وارث غيرك فاستعن بتلك الأموال حتى يؤذن لي بالدعوة العلنية آنذاك عد إلينا، كان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبي الأكرم ﷺ بعد غزوة بدر وأحد و الخندق وحين أنفق كل ما لديه في سبيل الله، وقد وصفه النبي ﷺ بصدّيق الأمّة وشبيه عيسى بن مريم.

قال العلّامة المجلسي رحمه الله في كتاب «عين الحياة» يستفاد من مصادر الفريقين أنّه لم يكن من بين الصاحبة بعد المعصومين من هو أجل قدراً من سلمان و أبي ذر والمقداد وقد قال فيه رسول الله ﷺ: **«مَا أَظَلَّتِ الخَضرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَى ذِي لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِي ذَر يَعيشُ وَحدَهُ وَيمُوتُ وَحدَهُ وَيُبعَثُ وَحدَهُ وَيَدخُلِ الجَنَّةَ وَحدَهُ»**[1].

ꕥ

لازم أبو ذر رسول الله ﷺ في المدينة، ولمّا ولى عثمان الخلافة وأعطى مروان من بيت المال، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ...﴾**[2].

في إشارة إلى عثمان وبطانته الذين أخذوا ينهبون بيت مال المسلمين، كان أبو ذر يردد تلك الآية ويرفع بها صوته، فرفع ذلك مراراً إلى عثمان وهو ساكت، ولم تمض مدّة حتى صعب على الخليفة وبطانته تحمل كلام أبي ذر، فأرسل إليه عثمان مولى من مواليه أن إنته عمّا بلغني عنك، فقال أبو ذر: أو ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان

---

١. بحار الانوار ٢٢/٢٩٨.
٢. سورة التوبة / ٣٤.

أحبّ إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان، فأغضب ذلك عثمان وأحفظه. فتطاير وتماسك، إلى أن قال يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً. فاذا أيسر قضى؟ وكان في المجلس كعب الأحبار وأبو ذر، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال: أبو ذر: يابن اليهودية أتعلمنا ديننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز في بيت مال المسلمين) فقال عثمان: قد كثر أذاك وتولعك بأصحابي، إلحق بالشام، فأخرجه إليها.

ولم يسكت أبو ذر في الشام حين شاهد الخضراء التي بناها معاوية في دمشق إلى جانب البيوت المتواضعه للفقراء من الناس والمحرومين، فقال لمعاوية: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الاسراف، والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيّه، والله إنّي لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقي، وصالحاً مستأثراً عليه، فثقل ذلك الكلام على معاوية، فكتب إلى عثمان، فكتب عثمان أن إحمل جندباً إلي على أغلظ مركب وأوعره حتى قدم به المدينة.

ﮋﮊ

فلما دخل أبو ذر ﷺ على عثمان، سعى عثمان لأن يضطره للقول بخلاف ما يريد فقال له: أنت الذي تزعم أنا نقول: «**إِنّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحنُ الأغنِياء**»، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكنّي أشهد أنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا بَلَغَ بَنو العاصِ ثَلاثِينَ رَجُلاً، جَعَلُوا مالَ اللهِ دُولاً، وَعِبادَهُ خِولاً، وَدِينَهُ دَخلاً**»، فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله ﷺ؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله ﷺ، ثم قال: ادعوا لي علياً، فا جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي أسمعت هذا من رسول الله ﷺ قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنّي سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**مَا أَظَلَّتِ الخَضرَاءُ ولا أَقَلَّتِ الغَبرَاءُ عَلَى ذِي لَهجَةٍ أَصدَقُ مِن أَبِي ذَر...**». فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلّنا من رسول الله ﷺ، فندم عثمان.

وجاء في الخبر عن الإمام الصادق ﷺ قال: «إنّ عثمان بعث غلامين بمئتي دينار إلى أبي ذر وقال: قولا له إنّ عثمان يقرأك السلام وبعث بهذا المال لتستعن به على معيشتك، فقال أبو ذر:

فهل أعطى سائر المسلمين، قالا: لا، فقال: لا حاجة لي به، قالا: إنّ عثمان يقول إنّه من خاصة مالي ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنّني لأغنى الناس بولاية علي بن أبي طالب، فعودا بالمبلغ إليه والله يحكم بيني وبينه»[١].

وأخيراً ضاق عثمان ذرعاً بأبي ذر واستشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينة، فاختار أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأمر لنفيه إلى الربذة[٢] المعروفة بسوء أحوالها ومناخها حتى توفي فيها، ولم يكن لديه حتى الكفن مرّت جماعة وفيهم مالك الأشتر فأخبرتهم بنته في الطريق، فكفنوه وصلى عليه صحابي رسول الله ﷺ عبدالله بن مسعود، ثم دفنوه[٣].

٢ ـ أبو ذر ﷺ والاشتراكية

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبّه لمعاوية وبني أمية أو لفرط ذوبانه في عثمان لإثارة بعض الغبار على شخصية أبي ذر، وذلك لعدم إمكانية الجمع بين كون أبا ذر من أولياء الله أنّه أصدق من على الأرض وأنّ عثمان خليفةالمسلمين ومعاوية من الصحابة، ومن هنا فلم يروا أخف وطأة عليهم من أبي ذر فقالوا: إنّ أبا ذر لا يؤمن بالملكية الفردية وكانت له نزعة اشتراكيه.

وقال الزركلي في كتاب «الاعلام في أبي ذر»: «ولعله أول اشتراكي طادرته الحكومات»[٤].

وهذا في الوقت الذي لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفي الملكية الفردية، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاوية ممن يوزعون الثروة بصورة غير عادلة، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

١. بحار الانوار ٣٩٨/٢٢.
٢. ورد في معجم البلدان أنّ الربذة من القرى الواقعة أطراف المدينة حيث تبعد عنها ثلاثة أميال (حدود ١٥٠ كيلومتر).
٣. لخصت هذه المطالب من عدّة كتب معروفة كشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وشرح المرحوم التستري، وشرح المرحوم الخوئي، وبحار الانوار.
٤. الأعلام للزركلي، ذيل كلمة جندب.

الحملات على عهد الخيفة الأول والثاني، قال البعض وردت عبارة «مال الله» في كلمات أبي ذر، فاستفادو منها نفيه للملكية الخاصة، والحال التعبير بمال الله عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرّح المرحوم العلّامة الأميني في المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبي ذر بالاشتراكية أنّ التعبير بمال الله كثير في أقوال الصحابة، ثم نقل عدّة روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال الله، كما وردت عدّة روايات عن أمير المؤمنين علي ﷺ عبّر فيها بمال الله[1].

لا شك أنّه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال الله، بل يمكن اطلاق مال الله حتى على الأموال الشخصية للناس، فقد جاء في القرآن الكريم مثل هذا التعبير: **﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ...﴾**[2].

والحق إنّ هذه الفئة تسرعت في الحكم على أبي ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآية: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾**[3]، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآية وردت بشأن مانعي الزكاة.

والأدهى من كل ذلك لجنة فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ١٣٦٧ ق تحت تأثير بعض المتعصبين في نفي الشيوعية لتنقل عقيدة أخرى لأبي ذر وحكمت ببطلانها لتعتبرها معلولة لبعده عن مبادىء الإسلام، وهي أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجة ولا ينبغي أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأميني بعد ذكره لهذه الفتوى لو أُوكل شيخ الأزهر مطالعة هذه المسألة لمن هو أعرف بأبي ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدة لأبي ذر، والأسوأ من ذلك ماذكروه من عذر لأبي ذر بعدم معرفة بمبادىء الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلى ويبكي كل مسلم غيور، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابي جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول الله ﷺ وقد شبّهه النبي الأكرم ﷺ بعيسى خلقاً وخلقاً[4]، والطريف في الأمر أنّ أبا ذر ثقة عند بعض

١. الغدير ٣٤٣/٨.
٢. سورة النور / ٣٣.
٣. سورة التوبة / ٣٤.
٤. الغدير ٣١٢/٨ و ٣٦٣.

المحدثين كالبخاري ومسلم حيث نقلوا عنه ٨١ حديثاً[1]، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقة.

٣ ـ العاقبة المريرة لأبي ذر

إنّ الحديث في أبي ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلاً، ولكن يبدو من الضروري ذكر هذه النقطة في أنّ ما منح أبي ذر القوة والصلابة وأرعب خصومه هو زهده الممزوج بصراحة لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطيقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روى ابن أبي الحديد عن الجاحظ عن جلّام بن جندل الغفاري قال: كنت غلاماً لمعاوية على قنسرين والعواصم في خلافة عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملي، إذا سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار (إشارة إلى الجمال التي كانت تحمل أموال بين المال)، اللّهم إلعن الآمرين بالمعروف التراكين به، اللّهم إلعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، فازبأر معاوية وتغيّر لونه وقال: يا جلّام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللّهم لا. قال: من عذيري من جندب بن جنادة، يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال: أدخلوه عليَّ، فجيئ بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاوية: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله تأتينا كل ويوم فتصنع ما تصنع، أمّا لو أني كنت قاتل رجلاً من أصحاب محمد من غير أذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكني أستاذن فيك. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله ﷺ ودعا عليك مرات ألا تشبع.. فغضب معاوية وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية أن إحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلّا قتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد، ثم نفاه عثمان إلى الربذة[2].

---

١. الأعلام للرزكلي ١٤٠/٢.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥٧/٨.

ونختتم هذا البحث بحديث نبوي شريف ورد في كتاب أسد الغابة، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثة، وكان يعبد الله: «**وَبَايَعَ النَّبِي ﷺ عَلَى أَنْ لا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَومَةَ لائِم وَعَلَى أَن يَقُولَ الحَقَّ وإِن كَانَ مرّاً**»[1].

٤ـ كلمات المودّعين لأبي ذر

جاء في الكتب التاريخية أنّ عقيلاً وحسناً وحسيناً عليهما السلام وعماراً رضي الله عنه قد ودعوا أبا ذر إلى جانب علي عليه السلام وكل قال في وداعه كلمة، فقد قال عقيل:

«ما عسى أن نقول يا أبا ذر وأنت تعلم إنّا نُحبك، وأَنت تُحبنا! فاتق الله فان التقوى نجاة واصبر فان الصبر كرم».

ثم تكلّم الحسن عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، لولا أنّه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدّة ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيّك ﷺ وهو عنك راض».

ثم تكلّم الحسين عليه السلام فقال:

«يا عمّاه، إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمّا منعوك وأحوجهم إلى منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فانّ الصبر من الدين والكرم...».

ثم تكلّم عمار رضي الله عنه فقال: «**لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبّوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلّا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين**».

---

١. أسد الغابة ٣٠١/١.

فبكى أبو ذر ﷺ وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله ﷺ، ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، والله ما أريد إلّا الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة، توكلت على الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله[1].

۞

١. الكافي ٢٠٨/٨، بتصرف، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٥٣/٨.

الخطبة[1] ١٣١

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

وفيه يبيّن سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام علي ﷺ في هذا الكلام إلى عدّة مطالب:

١ ـ قبوله الحكومة من أجل رفع راية الدين والعدل في المجتمع الإسلامي وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.

٢ ـ أشار ﷺ في جانب آخر من الخطبة إلى الاختلافات الفكرية لأصحابه فقال: لا يمكن بسط العدل في ظل هذه الظروف واعطاء الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.

٣ ـ خاض ﷺ في تعريف نفسه فقال: أني أول من سمع رسول الله ﷺ فآمنت به، ولم يسبقني إلّا رسول الله ﷺ بالصلاة.

٤ ـ أشار في القسم الأخير من الخطبة إلى صفات الزعيم المقتدر، فعدد أوصافه بكل دقّة، وهى الأوصاف التي يؤدّي توفرها في الزعيم الإسلامي إلى الديمومة والثبات.

٭٭٭

---

١. سند الخطبة:
أشار ابن الجوزي في «تذكرة الخواص» إلى هذه الخطبة وقال: ابتدأ الإمام هذه الخطبة حين استوى على منبر الكوفة بالقول: الحمد لله وأومن به ثم خطب الخطبة، وأورد القاضي نعمان الفصل الأخير من الخطبة في المجلد الثاني من «دعائم الإسلام»، كما أشار إلى بعضها ابن أثير في «النهاية» في مادة ظار ومادة دعا (مصادر نهج البلاغة ٢٩٥/٢) وتدلّ هذه المصادر على أنّ الخطبة وردت في عدّة كتب قبل السيد الرضي.

القسم الأول

«أَيَّتُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْـمخْتَلِفَةُ، وَٱلْـقُلُوبُ ٱلْـمُتَشَتِّتَةُ، ٱلشَّـاهِدَةُ أَبْـدَانُـهُمْ، وَٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظْأَرُكُمْ عَلَىٰ ٱلْـحَقِّ وَأَنْـتُمْ تَـنْفِرُونَ عَـنْهُ نُـفُورَ ٱلْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ ٱلْأَسَدِ! هَـيْهَاتَ أَنْ أَطْـلَعَ بِكُـمْ سَـرَارَ ٱلْـعَدْلِ، أَوْ أُقِـيمَ ٱعْوِجَاجَ ٱلْحَقِّ»».

الشرح والتفسير

لستم من الأصحاب الأخيار

من الحوادث الأليمة في التاريخ الإسلامي أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقتدر كعلي ﷺ بناس جهّال وعبدة للأهواء يعيشون التناحر والفرقة، فقد كانوا وسائل سيئة لإقامة حكومة الحق والعدل، وقد رأينا منذ بداية الكتاب لحدّ الآن في مختلف خطب نهج البلاغة أنّ الإمام علي ﷺ كان يتألم بشدّة من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسية والأخلاقية، فقد قال ﷺ مستهلاً هذه الخطبة: «**أَيَّتُهَا ٱلنُّفُوسُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ، وَٱلْقُلُوبُ ٱلْمُتَشَتِّتَةُ، ٱلشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَٱلْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ**».

فقد ركز الإمام ﷺ هنا على الجذور الأصلية لداء المجتمعات والأمم، ألا وهو الاختلاف والتشتت والذي يؤدّي إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارة: «**ٱلشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُم...**» إشارة إلى حضورهم الجسماني في المجتمع وغيابهم الفكري والروحي عن الحوادث الخطيرة التي تصيب المجتمع، أمّا أهمية هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف في الخطب الأخرى، كالذي ورد في الخطبة ٢٩ و ٩٧ حيث قال في الأولى: «**أَيُّهَا النَّاس، ٱلْمجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، وٱلْمخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ**».

وقال في الثانية: «**أَيُّهَا ٱلْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُـهُمْ، الْـغَائِبَةُ عَـنْهُمْ عُـقُولُهُمْ، الْـمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ**».

ثم قال ﷺ: «**أَظْأَرُكُمْ**[١] **عَلَى ٱلْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ ٱلْـمِعْزَى**[٢] **مِنْ وَعْوَعَةِ**[٣] **ٱلْأَسَدِ!**»، العبارة «أظأركم» بالنظر إلى أنّ «ظأر» جاءت في اللغة بمعنى القابلة، فهي تشير إلى مراده أنّي كالقابلة الشفيقة قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشة، لكنّكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حالة يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذي يفوق التصور، والعبارة «**وَعْوَعَةِ ٱلْأَسَدِ!**»، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال «**وَعْوَعَةِ ٱلْأَسَدِ!**» يعني إنّ هذا الحيوان على درجة من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرّد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التي تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافة بعيدة في الصحراء.

ثم قال ﷺ: «**هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ**[٤] **بِكُمْ سَرَارَ**[٥] **ٱلْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ ٱعْوِجَاجَ ٱلْحَقِّ**».

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمة الهدى ﷺ لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس في العدل من ظلمة ليجلوها عنه، فالظلم الذي غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أنّ إزالة الظلمة عن العدالة وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعي والتضحية، ولم يكن للجهال والغدرة المشتتين كأهل الكوفة من قدرة للإستعانة بهم في إزالة الظلمات وتسوية الاعوجاجات، وهذا داء دوي عرض لإمام عادل وشجاع كعلي بن أبي طالب ﷺ.

ﮧﮨ

١. «أظأر»: من مادة «ظأر» على وزن ضرب تعني في الأصل المراقبة والمواظبة على الشيء ولما كان عمل القابلة الإرضاع ومراقبة الطفل فقد استعملت هذه المفردة لها.
٢. «المعزى»: بمعنى السخلة في مقابل الضأن بمعنى الخروف.
٣. «وعوعة»: بمعنى الصراخ والضجة والزئير، وتطلق على الأصوات المتداخلة.
٤. «اطلع»: لها معنى اللازم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنى المتعدي، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعدية، والباء في بكم للاستعانة أو السبب.
٥. «سرار»: من مادة «سر» تعني في الأصل آخر ليلة من الشهر «ليلة المحاق التام» ويراد بها شدّة الظلمة.

العوامل الرئيسية للفشل

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام ﷺ بالأصحاب الذين اعتادوا الحياة المرفهة والدعة والراحة، وقد اعتمدوا مختلف الذرائع للهروب من الجهاد ومقاتلة العدو، وقد سعى الإمام ﷺ جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تارة واللوم والعتاب والذم تارة أخرى.

وقد أشار في هذه الخطبة إلى نقاط ضعفهم ليخلصها في ثلاث هي الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرّح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بني أمية وعناصرهم المنافقة المتبقية من عصر الجاهلية وإقامة الحق وتسوية العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراده الإمام ﷺ في هذه الخطبة قانون كلي دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق في المشاريع السياسية والاجتماعية والعسكرية، وهي الأُمة المتحدة الواعية التي تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

ﮋﮊ

القسم الثاني

«اَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلٰكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اَللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ».

الشرح والتفسير

الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل

بيّن الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة أهداف الحكومة الإسلامية ـ ومنها حكومته ـ بعبارات غاية في الروعة والدقة ليضمنها دروساً خالدة لجميع الحكّام المؤمنين والمخلصين فقال: «اَللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً[1] فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ».

ربّما كانت هذه العبارة إشارة إلى أصل قبول بيعة الأمة على الخلافة، أو إشارة إلى المعارك التي وقعت بينه وبين الأعداء في صفين وأمثالها، وهي تعكس الأهداف الرئيسية لحكّام الاستبداد الذين يهدفون إلى أمرين: الحصول على المنصب مهما كان الثمن والاستيلاء على الأموال أينما كانت ومن أي كان، والواقع ليس ذلك سوى حب الجاه وحب المال الذي ساد تاريخ البشر واجتاح حتى الحكومات المستبدة، وقد أثبت الإمام ﷺ عملياً ما قال، فقد

---

1. «منافسة»: تعني في الأصل سعي فردين يريد كل منهما الظفر بشيء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هي مسابقة شريفة بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفردة في الموارد السلبية، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها في الخطبة المعنى الثاني.

اشترط على الإمام ﷺ من قبل الشورى التي عينها عمر نيل الخلافة شريطة الانحراف عن مسار رسول الله ﷺ فلم يستجب الإمام ﷺ كما وقف بقوّة بوجه طلحة والزبير وما قدماه من اقتراح ليس بصواب، كيف يستجيب لهما الإمام ﷺ هو يرى الدنيا كعطفة عنز، ثم بيّن الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحكومة وهي: «**وَلٰكِنْ لِنَرِدَ[1] اَلْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ اَلْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ اَلْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ اَلْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ**».

فالواقع أشار الإمام ﷺ في العبارات الأربع التي أوردها كدافع أصلية لقبول البيعة، إلى برامجه المعنوية في الحكومة ومشاريعه المادية والظاهرية، فلابدّ في الدرجة الأولى من إعادة معالم الدين التي تعين للناس مسيرتها نحو الله سبحانه وقد اندثرت بفعل الحكومات المستبدة، ومن ثم الإصلاحات في كافة الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، ونصرة المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهيّة بحيث يشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن كان هذه الأهداف الأربعة هي مراد الحكومات لعاشت المجتمعات السعادة والمادية والمعنوية، وإن كان هدفهم الحصول على المناصب ونيل الأموال والثروات، فليست هناك من نتيجة سوى الفساد والظلم وتعطيل الحدود الإلهيّة ومحو الأخلاق والدين، وهذا بحدّ ذاته درس لجميع المسلمين في كافة الأزمنة والعصور، وهذه هي الأمور التي ذكرها القرآن الكريم كأهداف لبعثة الأنبياء وتشكيل الحكومة الإسلامية، فقد ذكر التعليم والتهذيب والنجاة من الظلال المبين كهدف للبعثة فقال: (**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**»[2]، كما ذكر في موضع آخر هذا الهدف المتمثل ببسط العدل والقسط: «**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...**»[3]، كما قال: «**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**»[4].

---

١. يبدو أنّ هذه المفردة «لنَرِدَ» من مادة وورد قد وردت خطأ في نسخة نهج البلاغة لصبحي والصحيح لنردّ بالتشديد من مادة الرد بمعنى الإعادة، كما وردت كذلك في أغلب نسخ نهج البلاغة.

٢. سورة الجمعة / ٢.

٣. سورة الحديد / ٢٥.

٤. سورة الحج / ٤١.

ثم إختتم الإمام ﷺ هذا المقطع من الخطبة بذكر شهادة واضحة على صدق قوله بالنسبة لداوفعه في قبول البيعة فقال: «**اَللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِالصَّلاَةِ**».

إشارة إلى أنّ الإسلام كان غريباً آنذاك، والرسول لوحده وليس إلى جانبه سوى خديجة ﷺ زوجته الوفية، فكان الجهر بالإسلام إزاء المشركين المتعصبين غاية في الخطورة، فقد بايع رسول الله ﷺ وإنقاد له، فكان أول من إلتحق به، ولم يكن همّه سوى طاعة الله سبحانه وإحياء الحق والتوحيد والعدل، ومازال ذلك الهدف هوالدافع له من أجل قبول البيعة.

ليس هناك من خلاف بين علماء الفريقين بشأن خديجة على أنّها أول إمرأة أمنت بالنبي الأكرم ﷺ وأنّ علياً ﷺ أول من آمن به من الرجال، وإن تذرع البعض من علماء العامّة بصغر سن علي حين أمن، ليسقطوا عنه تلك الفضيلة ويلصقوها بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعة من خلال قبول النبي الأكرم ﷺ لإسلام علي ﷺ وأبعد من ذلك تسميته بوصيّه في يوم الدار[1].

٭٭٭

١. ورد شرح إسلام علي ﷺ وأنّه أول من أسلم في أغلب مصادر الفريقين والرد على التخرصات في المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص٣٢٦ من نفحات القرآن.

القسم الثالث

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ».

الشرح والتفسير

شرائط حكّام العدل

خاض الإمام في المقطع الأخير من الخطبة في بيان خصائص ولاة العدل ودعاة الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبة التي أوردها بشأن الحكومة الإسلامية، والجدير بالذكر أنه استهل الكلام بالعبارة «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقلية الواضحة والمسلمة التي يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغي معرفتها من كل شخص، فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ[1]».

والواقع هو أنّ هذه الأمور تشكل أصول الحياة الفردية والاجتماعية للناس وهي الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدولة التي ينبغي للإمام المدبّر والواسع الآفاق والعادل المنصف أن يؤدّي حقوقها جميعاً، فتأمن الأمّة على أرواحها وأموالها وأعراضها.

١. «النهمة»: تعني في الأصل الحاجة وشدّة الحب لشيء والمبالغة في الحرص عليه.

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامة الأمة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلاً اقتصرت همّته وشهوته على جمع الأموال وضحى بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا من أمن واستقرار، ولا من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام في بيان الصفة الثانية: «**وَلَا ٱلْجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ**»، فلا شك أنّ العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحة تعدّ من أهم دعائم الحكومة وليس للجهّال من الأفراد قدرة إدارة شؤون الحكومة وإن صفت نيّتهم واتصفوا بالورع و التقوى، فهم يقودون الأمة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام في بيان الصفة الثالثة: «**وَلَا ٱلْجَافِي[1] فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ**»، فن أبرز صفات والي العدل العطف والمحبّة والسماحة والمدارسة، ونعلم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقطب القلوب البعيدة عن الحق بهذه الشفقة والمحبّة، وهذه رحمة إلهيّة كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...**﴾[2].

ثم قال عليه السلام في الصفة الرابعة: «**وَلَا ٱلْحَائِفُ[3] لِلدُّوَلِ[4] فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ**»، وهذا هو البلاء الذي أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكة للمجتمع الإسلامي بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت المال المسلمين على قرابته وبطانته ومتملقيه، ممّا أدّى إلى قيام المظلومين عليه حتى قتلوه فظهرت الخلافات العظيمة بين الناس آنذاك وما زالت أثارها باقية.

ثم قال عليه السلام في الصفة الخامسة: «**وَلَا ٱلْمُرْتَشِي فِي ٱلْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِٱلْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ ٱلْمَقَاطِعِ[5]**»، فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوة التي يقدمها أصحاب الثراء والقدرة فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

---

١. «الجافي»: من مادة «جفاء» تعني في الأصل العنف وأخذ الشيء.
٢. سورة آل عمران / ١٥٩.
٣. «الحائف»: من مادة «حيف» بمعنى الظلم والجور وتعني في الأصل الانحراف في الحكم التمييز.
٤. «دول»: جمع «دولة» بمعنى المال.
٥. «المقاطع»: جمع «مقطع» بمعنى أخر كل شيء، كما تطلق هذه المفردة أحياناً على الحدود الإلهيّة التي تنتهي بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنى في العبارة، وفي إشارة إلى أنّ القاضي إن كان مرتشياً فانّه لا يأذن باجراء حدود الله تعالى.

طبعاً فلسفة القوانين والمحاكم حفظ حقوق الضعفاء، وإلّا فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسللت هذه الرشوة إلى المحكمة ونفذت إلى ذهن القاضي والتي لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدرة الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذي نشهده في كافة أنحاء عالمنا المعاصر، ومن الضروري الالتفات إلى هذه النقطة أنّ الرشوة لا تقتصر على الجانب المالي، فقد تتخذ أشكالاً أخرى كتصفية الحسابات السياسية والوصول إلى المناصب والمقامات والشهوات الجنسية والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجلة المحكمة باتجاه الظلم والجور.

وقال ﷺ في الصفة السادسة الأخيرة: «**وَلَا الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ**»، **طبعاً** يمكن أن يكون المراد بالسنّة سنّة النبي الأكرم ﷺ أو السنن والقوانين التي أمضاها الله في عالم الخلقة أوالسنين الاجتماعية الحسنة التي أشير إليها في عهد مالك الأشتر: «**وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ لأُمَّةِ**»، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفة الحكومات

كما ورد في بداية هذه الخطبة، فهي تتألف في الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها تماماً، الأول ذم الإمام ﷺ القوى الجاهزة التي ينبغي لها أن تنشط في إقامة الحق والعدل، لكنّها عاشت الضعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظيف العقل والفكر، ثم أشار إلى أهداف ودوافع حكومة العدل الإسلامية والإنسانية، بينما ذكر آخر الخطبة الأركان الأصلية لمواصفات حكّام العدل، طبعاً إن كانت القوى المؤمنة والمتحدة من جانب، والأهداف والدوافع المقدّسة والوالي الذي يتحلى بالصفات الست المذكورة من جانب آخر، فانّ ذلك سيؤدّي إلى قيام حكومة من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحياء القيم الإنسانية، وبالعكس لو:

حل البخل بدل الكرم.

والجهل بدل العلم.

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخاض الحكّام في البذخ ونهب الأموال والثروات والتمييز والظلم والجور، وتسللت الرشوة إلى الجهاز القضائي، وعطلت السنن الحسنة، فتتأسس حكومة فاسدة ينعدم فيها الدين كما تزول فيها الدنيا... ويا له من درس وعبرة لحكّام الحق.

الخطبة[1] ١٣٢

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ ﷺ

يعظ فيها ويزهّد في الدنيا

نظرة إلى الخطبة

تشمتل هذه الخطبة كما ورد في عنوانها على المواعظ والإرشادت والنصائح والوصية بالزهد في الدنيا، وتتألف من أربعة أقسام هي:

١ ـ حمد الله والثناء عليه مع ذكر صفات الله سبحانه الخاصة والشهادة الخالصة للنبي ﷺ بالنبوة.

٢ ـ إشارة إلى انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من كافة ممتلكاته التي حازها في الحياة الدنيا.

٣ ـ لزوم الاعتبار بحياة الأمم السالفة، وأُولئك الذين جمعوا الأموال والثروات، فكان عاقبة دورهم أن أصبحت قبورهم، كما خلّفوا للآخرين أزواجهم وأموالهم.

٤ ـ ضرورة اغتنام فرض الدنيا وإعداد المتاع والزاد للآخرة.

---

١. سند الخطبة:
نقلها بصورة متفرقة الآمدي ـ من علماء القرن الخامس ـ في كتاب «الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد في نهج البلاغة أنّها كانت في مصدر آخر غير نهج البلاغة، كما أشار ابن الأثير المتوفى عام ٦٠٦ هـ في «النهاية» إلى جوانب من هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة ٢٩٨/٢).

القسم الأول

«نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا أَخَذَ وَأَعْطَىٰ، وَعَلَىٰ مَا أَبْلَىٰ وَٱبْتَلَىٰ. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَٱلْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. ٱلْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ ٱلصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ ٱلْعُيُونُ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ [نجيّه] وَبَعِيثُهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا ٱلسِّرُّ ٱلْإِعْلَانَ، وَٱلْقَلْبُ ٱللِّسَانَ».

الشرح والتفسير

صفات الله الخاصة

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه وذكر أوصافه الخاصة فقال: «**نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا أَخَذَ وَأَعْطَىٰ، وَعَلَىٰ مَا أَبْلَىٰ وَٱبْتَلَىٰ**».

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهيّة، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و«إبتلى» الامتحان بواسطه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ هاتين العبارتين تفسيرتين (أي أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشارة إلى النعم المادية والثانية إشارة إلى النعم المعنوية، لأنّ المفردة «أخذ» كثيراً ما تستعمل في الأمور المادية.

على كل حال يستفاد من العبارات المذكورة أنّ سلب النعمة قد يكون نفسه نعمة، لأنّ وفور النعمة سبب الغرور والابتعاد عن الله ومقاطعة الخلق، أضف إلى ذلك فانّ الحمد تجاه سلب النعم علامة على التسليم المطلق لمشيئة الله.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثة أوصاف أخرى من أوصاف الله سبحانه وتعالى والتي تشكل في

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم ونيّاتهم فقال ﷺ: «**الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ**[١]، **وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ**».

فهذه الصفات تدلّ بوضوح على أنّ علم الله سبحانه علم حضوري، يعني أنّه حاضر وناظر في كل مكان، فالخفيات والعلنيات لديه على حدّ سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنة الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شيء.

حقّاً إنّ الإنسان لو تأمل حقيقة الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أنّ العالم حاضر عند الله تبارك وتعالى، ولله حضور في روحه وفكره، ولما قارف السيئة، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبة بالشهادة لله بالوحدانية وللنّبي الأكرم ﷺ بالنبوة، فقال ﷺ: «**وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ**[٢] **[نجيّه] وَبَعِيثُهُ**[٣] **شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانَ، وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ**».

طبيعي أنّ الشهادة بهذين الركنين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفي معبود آخر وتحذر من عبادة الشيطان وهوى النفس الأمارة، كما تدعو الشهادة بالنبوّة إلى طاعة الإنسان لأوامر النبي ﷺ، ولا سيّما الشهادة التي لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

٣٠٣

١. اللام في «خفية» بمعنى في أو بمعنى مع وكذلك اللام في «لكل سريرة».
٢. «نجيب»: من مادة «نجابة» الإنسان أو الشيء المصطفى والنفيس.
٣. «بعيث»: من مادة «بعثة» بمعنى مبعوث.

القسم الثاني

و منها: «فَإِنَّهُ وَٱللّٰهِ ٱلْجِدُّ لَا ٱللَّعِبُ، وَٱلْحَقُّ لَا ٱلْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلاَّ ٱلْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ. فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ ٱلنَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ وَحَذِرَ ٱلْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ ٱلْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ ٱلْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ، مَحْمُولاً عَلَىٰ أَعْوَادِ ٱلْمَنَايَا، يَتَعَاطَىٰ بِهِ ٱلرِّجَالُ ٱلرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَىٰ ٱلْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِٱلْأَنَامِلِ. أَمَا رَأَيْتُمُ ٱلَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!».

الشرح والتفسير

نزول الموت؟

حذر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الجميع في أنّ هذه الحياة الدنيا إلى زوال ولابدّ من مفارقة هذه الدنيا عاجلاً أم آجلاً والالتحاق بالآخرة وتحمل تبعات الأعمال فقال: «**فَإِنَّهُ وَٱللّٰهِ ٱلْجِدُّ لَا ٱللَّعِبُ، وَٱلْحَقُّ لَا ٱلْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلاَّ ٱلْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ[1]، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ[2]**».

ولما كان الموت حقيقة واقعة بالنسبة لجميع الأفراد، وقضية قطعية تأبى الاجتناب، فقد

---

١. اسمع فعل وداعي فاعل وضميره يعود إلى الموت ومفعوله محذوف وهو جميع الناس، أي إنّ داعي الموت أوصل صوته ليسمع الجميع.

٢. «حادي»: من مادة «حداء» من يسوق الجمال بسرعة والعبارة فعل وفاعل ومفعول محذوف كالجملة السابقة.

أكّد الإمام ﷺ كلامه بأنواع التأكيدات[١]، والتي بلغت عشرة أنواع حسب قول بعض شرّاح نهج البلاغة، فقال أنّ صوت داعي الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوّى صوت الرحيل ليملأ كافة أرجاء العالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا يتنظر سوى أمر الله، ثم قال ﷺ: «**فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ ٱلنَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ ٱلْمَالَ وَحَذِرَ ٱلْإِقْلَالَ، وَأَمِنَ ٱلْعَوَاقِبَ ـ طُولَ أَمَلٍ وَٱسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ـ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ ٱلْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ**[٢] **عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ**»، يمكن أن يكون للعبارة «**فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ ٱلنَّاسِ**»، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخدعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثاني: لا تخدعك جماعات الناس لأن تفكر في الحياة لا الموت، ومفهوم العبارة: «**وَحَذِرَ ٱلْإِقْلَالَ**»، ابعاد النفس (حسب ظنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: «**وَأَمِنَ ٱلْعَوَاقِبَ**» تعني تصور الشخص أنّه بمأمن من عاقبة عمله بسبب الآمال الفارغة بأنّ الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأماني، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعة وعنف من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بأنّ ذلك في الوقت الذي يحملون فيه على الأولاد وقد تناولتهم أيدي الرجال ليمسكوهم بالأنامل، وكأنّهم متنفرون ومرعبون من حمل توابيتهم بكامل أيديهم: «**مَحْمُولاً عَلَىٰ أَعْوَادِ ٱلْمَنَايَا، يَتَعَاطَىٰ بِهِ ٱلرِّجَالُ ٱلرِّجَالَ، حَمْلاً عَلَىٰ ٱلْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ**».

فقد رسم الإمام ﷺ صورة واضحة بهذه العبارات الصريحة والبليغة المؤثرة لكيفية نهاية حياة الأثرياء المرفهين والمغرورين بالجاه والمنصب، ولاسيّما حين يدركهم الموت المفاجيء، فهي عبارات تمزق كافة الحجب التي تسدل على عين الإنسان، كما توقظ كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى ﷺ صورة أخرى على هذا المعنى مواصلة لكلامه فقال: «**أَمَا رَأَيْتُمُ ٱلَّذِينَ يَأْمُلُونَ**

---

١. هذه الأنواع العشرة من التأكيد هي: «ان» وضمير الشأن «إن» اعتبرنا الضمير في «أنّه» ضمير الشأن والجملة الاسمية والقسم بلفظ الجلالة والجد والألف واللام التي دخلت عليه ولا اللعب والحق ولا الكذب والاستفادة من الحصر في العبارة (ما هو إلّا...).

٢. «ازعج»: من مادة «ازعاج» بمعنى الاقتلاع والاخراج.

بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً[١]، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، يفيق الإنسان من نوم الغفلة حين يصفعه الأجل، وفي تلك اللحظة تغلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شيء يمكن واضافته إلى الحسنات، ولا يمكن تقليل شيء من السيئات. ولو سلب الإنسان حياته بينما بقيت صحف العمل مفتوحة والسبيل مشرع أمام تداركها فلا عقبة ولا ضير، إلّا أنّ المشكلة تكمن في غلق صحيفة الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما يجعل الإنسان يعيش الهم والغم.

---

١. «مشيد»: من مادة «شيد» على وزن بيد، لها معنيان: الأول بمعنى الارتفاع والأخر بمعنى الجص ومن هنا يطلق على القصور المرتفعة والعالية التي تعانق السماء بالقصور المشيدة، كما تطلق على القصور المحكمة لتبقى محصنة من حوادث الدهر (في مقابل مساكن المستضعفين التي تبنى عادة من الطين).

القسم الثالث

«فَمَنْ أَشْعَرَ ٱلتَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ [بَرِز] مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا ٱلْأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ ٱلْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ. وَقَرِّبُوا ٱلظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [للزّوال]».

الشرح والتفسير

ممر يعرف باسم الدنيا

خلص الإمام ﷺ إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقة أوردها في بداية ووسط هذه الخطبة بشأن علم الله بكل شيء سيّما بأعمال العباد ونيّاتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياة الماضين فقال: «**فَمَنْ أَشْعَرَ ٱلتَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ**[1] **[بَرِز] مَهَلُهُ**[2]**، وَفَازَ عَمَلُهُ**».

فمن الواضح أنّ التقوى إذا تجذرت في أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأنّ التقوى ملكة نفسية تتمثل بخشية الله وهي الدافع القوي للإتيان بالأعمال الصالحة وحاجز عن الذنوب والمعاصي.

ثم واصل الإمام كلامه فقال: «**فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا**[3]**، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا**»، إشارة إلى أنّ

---

١. «برز»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور والسبقة، وتوضيح ذلك أنّ هذه المفردة تكون أحياناً على هيئة ثلاثي مجرّد (على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل (على وزن صرّف) بمعنى السبقة، وقد استعملت في العبارة الثاني، وإن وردت بصيغة الثلاثي المجرد في بعض النسخ.

٢. «مهل»: له معنى الاسم المصدري وتعني الوفق والمداراة، كما تستعمل بمعنى الفرصة للقيام بالعمل الصالح.

٣. «هبل»: تعني أحياناً الهلكة وفقدان الشيء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمة والاحتيال بمعنى الخدعة، كما يعني الاغتنام والاستيلاء على شيء، والمعنى الثاني هو المراد بالعبارة.

القسم الثالث

«فَمَنْ أَشْعَرَ ٱلتَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ [بَرز] مَهَلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا، وَٱعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا ٱلْأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ ٱلْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ. وَقَرِّبُوا ٱلظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [للزّوال]».

الشرح والتفسير

ممر يعرف باسم الدنيا

خلص الإمام ﷺ إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقة أوردها في بداية ووسط هذه الخطبة بشأن علم الله بكل شيء سيّما بأعمال العباد ونيّاتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياة الماضين فقال: «**فَمَنْ أَشْعَرَ ٱلتَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ**[1] **[بَرز] مَهَلُهُ**[2]**، وَفَازَ عَمَلُهُ**».

فمن الواضح أنّ التقوى إذا تجذرت في أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأنّ التقوى ملكة نفسية تتمثل بخشية الله وهي الدافع القوي للإتيان بالأعمال الصالحة وحاجز عن الذنوب والمعاصي.

ثم واصل الإمام كلامه فقال: «**فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا**[3]**، وَٱعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا**»، إشارة إلى أنّ

---

١. «برز»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور والسبقة، وتوضيح ذلك أنّ هذه المفردة تكون أحياناً على هيئة ثلاثي مجرّد (على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل (على وزن صرّف) بمعنى السبقة، وقد استعملت في العبارة الثاني، وإن وردت بصيغة الثلاثي المجرد في بعض النسخ.

٢. «مهل»: له معنى الاسم المصدري وتعني الرفق والمداراة، كما تستعمل بمعنى الفرصة للقيام بالعمل الصالح.

٣. «هبل»: تعني أحياناً الهلكة وفقدان الشيء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمة والاهتبال بمعنى الخدعة، كما يعني الاغتنام والاستيلاء على شيء، والمعنى الثاني هو المراد بالعبارة.

الجنّة لا تعطى لأحد بالمجان، كما لا تتأتى من خلال الظن والتصور والخيال والزعم الفارغ، فمفتاح الجنّة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوى.

ثم قال ﷺ في مواصلة لشرح وضع الدنيا والآخرة ومنزلة كل جماعة: «**فَإِنَّ ٱلدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا ٱلْأَعْمَالَ إِلَىٰ دَارِ ٱلْقَرَارِ**»، فالنظرة الإسلامية التي تعرض لها القرآن الكريم ونهج البلاغة مراراً تكمن في أنّ الدنيا دار ممر وأنّها قنطرة وميدان للتدريب وبالتالي فهي متجر ومقدمة للآخرة الموضوع الأصلي للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظرة للدنيا آنذاك سيبدو لنا كل شيء بصيغة أخرى وستحول دون مفارقتنا للذنب والظلم، وتسوقنا نحو الخير والاحسان.

أمّا أتباع المدارس المادية التي ترى الدنيا ولذاتها هدفها النهائي، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فليس هناك من حد لتلوثها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ على الأموال والمناصب الظاهرية، وعليه فلا أمل في إطفاء غائلة المعارك والنزاعات بينها، وأخيراً خلص الإمام إلى نتيجة رائعة عميقة المعنى فقال: «**فَكُونُوا مِنْهَا عَلَىٰ أَوْفَازٍ**[1]**. وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ**[2]»، في إشارة إلى أنّ الوقت ضيق والموانع كثيرة وزمان الرحيل مجهول تماماً، ولا ينبغي أن يقتصر التأهب على الكهول، بل لابدّ أن يعيش ذلك التأهب حتى الشباب على الدوام، فما أكثر من بقي من الآباء الكهول والعجزة، بينما رحل الشبان الأشداء.

نتيجة الخطبة

أشار الإمام في هذه الخطبة إلى أمور مهمّة يمكن إيجازها في ما يلي:

١ ـ لفت الأنظار في بداية الخطبة إلى حضور الله سبحانه في كل مكان وعلمه بخفايا الإنسان وباطنه، ليراقب الجميع أعمالهم.

١. «أوفاز»: جمع «وفز» على وزن نبض السرعة والعجلة والاستعداد للسفر.
٢. «الزيّال»: بمعنى الفراق والعبارة «قربوا الظهور للزيّال» تعني أعدوا المراكب للرحيل من الدنيا ولازمة ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة والتوبة من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

٢ ـ عدّ الشهادة الحقيقة بالوحدانية للحق والنبوة للنبي ﷺ من العلم الذي ينسجم فيه الظاهر والباطن وينفصل عن كل نفاق.

٣ ـ إلفات إنتباه الجميع إلى قرب الموت والرحيل عن الدنيا وهو سبب اليقظة والعلم.

٤ ـ دعى مخاطبيه لمطالعة تاريخ الماضين من خلال الكتب والآثار التي خلفوها في المدن والمناطق، ليعلموا أنّ ذلك المصير ينتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

٥ ـ دعى الجميع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلى الروع والتقوى، التقوى التي تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها على جميع أفعاله وممارساته.

٦ ـ يذكّر كافة مخاطبيه بهذه النقطة وهي عدم إعطاء الجنّة لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا يبلغها العبد إلّا به.

٧ ـ يستعرض أخيراً هذا الأمر في أنّ الدنيا ممر ولا مقر، متجر ينبغي للجميع التزود منه فيستعدوا في كل آن للرحيل والانطلاق.

الخطبة ١٣٣[١]

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ ﷺ

يُعظّم اللّه سبحانه ويَذكر القرآن والنبي ويَعظُ الناس

نظرة إلى الخطبة

يتضح من النظرة الإجمالية إلى الخطبة أنّها تتألف من خمسة أقسام مهمّة هي:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة الله وقدرته المطلقة وسجود كافة المخلوقات لذاته المقدّسة.

القسم الثاني: إشارة إلى عظمة القرآن الكريم وخلوده.

القسم الثالث: في النبي ﷺ وأنّ الله سبحانه أرسله بعد فترة وختم به النبوة.

القسم الرابع: الحديث عن تفاهة الدنيا ودعوة الجميع لليقظة والتعرف على الدنيا والتزود منها.

القسم الخامس: وعظ المخاطبين والعود على التذكير بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر في آياته، وهكذا يعرض اطروحة كاملة لأهل الحق لنيل السعادة.

---

١. سند الخطبة:
لم يجد كاتب مصادر نهج البلاغة سنداً آخر لهذه الخطبة، سوى ما قاله ابن أبي الحديد من أنّ ما ورد في هذه الخطبة جزء اقتطفه السيد الرضي من خطبة طويلة، فيراه دليلاً على أنّه أصل الخطبة وإن لم يشر إلى سندها، ولكن يحتمل أن يكون كلام ابن أبي الحديد استنباطاً لهذه الخطبة في نهج البلاغة، لأنّ السيد الرضي بيّن من خلال تعبيره «منها ومنها» والذي كرره في هذه الخطبة أنّه قطعها، كما أنّ عدم إرتباط أجزائها يفيد أنّ أصل الخطبة طويل جدّاً، وقد ذكرها الآمدي في «الغرر» ويحتمل أنّه نقلها من مصدر آخر.

القسم الأول

«وَٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ الْأَشْجَارُ ٱلنَّاضِرَةُ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا ٱلنِّيرَانَ ٱلْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ ٱلثِّمَارُ ٱلْيَانِعَةُ».

الشرح والتفسير

انقياد ما في الدنيا لله

خاض الإمام ﷺ في هذا المقطع في بيان طائفة من أوصاف الله تبارك وتعالى، وأشار بخمس عبارات إلى أمور دقيقة بهذا الشأن فقال: «**وَٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةُ بِأَزِمَّتِهَا**[1]».

فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ شبّه الدنيا والآخرة بالحيوانات السلسة والمروضة التي أسلمت زمامها فيقودها حيث يشاء، ثم قال ﷺ في العبارة الثانية مؤكّداً ذات المعنى السابق بصيغة أخرى: «**وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرَضُونَ مَقَالِيدَهَا**[2]»، فهو يفتح ما يشاء ويغلق ما يشاء ويفعل كل ذلك على أساس الحكمة، وأشار في العبارة الثالثة إلى سجود الأشجار والناضرة لذاته المقدّسة وقال ﷺ: «**وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ**[3] **الْأَشْجَارُ ٱلنَّاضِرَةُ**».

صبعاً التركيز على الأشجار الناضرة لا يعني الحصر، بل نموذج من أجمل الكائنات الحية

---

١. «أزمة»: جمع زمام اللجام.

٢. «مقاليد»: قال أغلب أرباب اللغة مقليد وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنى مفتاح، وقال صاحب «لسان العرب» أنّ أصلها فارسي كليد الذي يعني المفتاح، كما قال صاحب «لسان العرب» تأتي أحياناً بمعنى الخزائن إلّا أنّ المعنى الأول أنسب وأكثر إنسجاماً مع العبارة أزمة في الجملة السابقة وقذفت في هذه الجملة.

٣. «غدو»: جمع «غدوة» بمعنى الصباح، و«الآصال» جمع أصل على وزن رسل وهي جمع من مادة أصيل بمعنى العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الآصال والأصل جمع أصيل.

لعالم الخليقة، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا في خدمة نشر المبادىء الإسلامية ليل ونهار، أي في جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول: **﴿والنَّجمِ والشَّجَرِ يَسجُدَانِ﴾**[1]. كما يحتمل أن تكون آثار الله وعظمته أوضح في الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أي زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأنّ نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقة، كما يمكن أن يكون بلسان القال، وبناءاً على تمتع كافة ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسبيحها لله سبحانه عن علم وسجودها له.

وقال ﷺ في العبارة الرابعة: «**وَقَدَحَتْ**[2] **لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا**[3] **اَلنِّيرَانَ اَلْمُضِيئَةَ**».

وهذا من عجائب القدرة الإلهيّة بأن يخلق مادة بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذي تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال ﷺ: «**وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ اَلثِّمَارُ اَلْيَانِعَةُ**[4]».

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبة التي تضمنت آثار التوحيد الله وعظمته وما ورد في الآيات والقرآنية، فقد ورد في موضع من القرآن الكريم: **﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**[5]، وفي موضع آخر: **﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[6]، وكذلك: **﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...﴾**[7]، وورد أيضاً: **﴿الَّذِي**

---

١. سورة الرحمن / ٦.

٢. «قدحت»: من مادة «قدح» على وزن مدح بمعنى ضرب الحجر بالسندان لتوليد شعلة النار والتي كانت شائدة سابقاً، ثم وردت بمعنى اشتعلت.

٣. «قضبان»: جمع قضيب بمعنى غصن الشجرة وقضب على وزن نبط بمعنى الفاكهة.

٤. «يانعة»: من مادة «ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهة.

٥. سورة القصص / ٧٠.

٦. سورة الزمر / ٦٣.

٧. سورة الحج / ١٨.

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[١]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ...﴾[٢].

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغة كهذه الخطبة اتضحت لنا عظمة الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتثير الدنيا حس الشكر له لنرتوي من العين الصافية لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

⁂

١. سورة يس / ٨٠.
٢. سورة الانعام / ١٤١.

القسم الثاني

منهَا: «وَكِتَابُ ٱللّٰهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَـاطِقٌ لَا يَـعْيَا لِسَـانُهُ، وَبَـيْتٌ لَا تُـهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ».

الشرح والتفسير

إعجاز القرآن

خاض الإمام ﷺ في هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهميّة كتاب الله القرآن الكريم، وقد أدّى حق المطلب بثلاث عبارات قصيرة وبليغة: «**وَكِتَابُ ٱللّٰهِ بَـيْنَ أَظْـهُرِكُمْ**[1] **نَاطِقٌ لَا يَعْيَا**[2] **لِسَانُهُ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ**».

فقد أشار في العبارة الأُولى إلى هداية القرآن في كل زمان ومكان وتحت أية ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئة لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقن الإنسان دورس الحياة السعيدة، والعبارة: «**لَا يَعْيَا لِسَانُهُ**»، يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طري على الدوام كما صورته الأخبار والروايات[3].

وأشار في العبارة الثانية إلى نقطة أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحكم

١. «أظهر»: جمع «ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعني في أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأنّ الأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقة ولوا إليها ظهورهم والتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفردة حين يكون الشخص وسط جماعة سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٢. «يعيى»: من مادة «عي» على وزن حي بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب في المفردات تعني في الأصل العجز الذي يعرض لجسم الإنسان إثر كثرة المشي، ثم أطلقت على كل تعب وعجز.

٣. ورد هذا الكلام في حديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «هو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» (بحار الانوار ٢/ ٢٨٠).

ذا الأعمدة القوية أصحابه من مخاطر الحوادث والحرارة والبرودة والحيوانات الوحشية والأعداء واللصوص، فانّ القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسة الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار في العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة وهى أنّ قدرة الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهبّ لنصرته، وذلك لأنّ قدرة هداية القرآن تستند إلى قدرة الله سبحانه وقدرة الله قاهرة لا تغلب، وبفعل مصداق الآية الشريفة: **﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ...﴾**[1]، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

٨٠٣

القرآن الناطق

لعل العبارة التي وردت في هذا المقطع من الخطبة والتي عبّرت عن القرآن الكريم بأنّ «**نَاطِقٌ لَا يَعْيَا لِسَانُهُ**» تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام في الخطبة ١٥٨ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام: «**ذٰلِكَ الْقُرْآنُ، فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ**».

وكذلك العبارة التي وردت في الخطبة ١٨٣ إذ قال عليه السلام: «**فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ**»، أو ليس هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقّة وتأمل، بعبارة أخرى فانّ العبارات المذكورة تفسر بعضها البعض الآخر، لأنّ القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلك أنّ كل تعبير ناظر لشيء، مثلاً يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنّه في الواقع تحدث بصوت جلي بليغ. أو أنّه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق في مواصلة الطرق العملية الأصولية، أمّا بالنسبة لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعية (كقضية التحكيم في حادثة معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه. ويمكن جمعها معاً في مفهوم جامع لكلام علي عليه السلام وسيأتي مزيد من التوضيح في ذلك هذه الخطبة.

---

١. سورة آل عمران / ١٦٠.

القسم الثالث

منها: «أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ، فَقَفَّى بِهِ ٱلرُّسُلَ،وَخَتَمَ بِهِ ٱلْوَحْيَ، فَجَاهَدَ فِي ٱللّٰهِ ٱلْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَٱلْعَادِلِينَ بِهِ».

الشرح والتفسير

رسالة خاتم الأنبياء ﷺ

تحدّث الإمام ﵇ في المقطع الأول والثاني عن صفات الله سبحانه والقرآن الكريم، ثم أشار هنا بعبارات قصيرة عميقة المعنى إلى النبي الأكرم ﷺ في أنّ الله تعالى أرسله بالإسلام بعد مدّة وفترة من الرسل السابقين حين كان النزاع قائماً على قدم وساق بين الأفراد في دفاع كل عن معتقده فقال: «**أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ**[1] **مِنَ ٱلرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ**».

فالعبارة: «**تَنَازُعٍ مِنَ ٱلْأَلْسُنِ**»، إشارة إلى أنّ الحوادث التي تدور بين أتباع المذهب المختلفة بما فيهم عبدة الأوثان وأهل الكتاب ومن ليس له دين وعقيدة، لم تكن حوارات منطقية ذات محتوى فكري وعقلي، بل كان كل يسطّر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقيقته، بل كان هذا النزاع والاختلاف اللفظي أحياناً مصدر معارك طاحنة وسفك دماء غزيرة.

ثم قال ﵇: «**فَقَفَّى**[2] **بِهِ ٱلرُّسُلَ،وَخَتَمَ بِهِ ٱلْوَحْيَ**»، فقد أشار الإمام إلى نقطتين: الأولى أنّ رسول الله ﷺ واصل مسيرة الأنبياء الماضين، وذلك لأنّ مسيرتهم بصورة كلية واحدة. والثانية أنّه بلغ بتعاليمهم الكمال وختم بهم النبوّة، ثم إختتم كلامه ﵇ بالقول: «**فَجَاهَدَ فِي ٱللّٰهِ ٱلْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَٱلْعَادِلِينَ**[3] **بِهِ**».

---

1. «فترة»: وفتور تعني في الأصل الهدوء والاستقرار وتأتي أحياناً بمعنى الضعف والفتور، وتطلق على الفاصلة بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفترة عن الفاصلة بين ظهور الأنبياء.
2. «قفى»: من مادة «قفا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشيء في المجيء.
3. «العادلين»: جمع «عادل» من مادة عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من مادة

فالواقع هو أنّ الكفّار فريقان: فريق نسى الله تعالى بالمرّة ولا يعتقد بالحـق، وفريق آخر مشرك جعل لله سبحانه شريكاً، وقد جاهد النبي الأكرم ﷺ كـلا الفـريقين، جـهاد ثـقافي وإعلامي وخاضه لمدّة ثلاث عشرة سنة وقد أسلم العديد منهم، وعندما شاهد الفريق المعاند الذي حال دون إقبال الناس على الدين الله خاض الجهاد المسلح ليقضي على تلك الموانع دون أن يجبر أحداً على قبول دينه ذلك لأنّه: **﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾**[1]، وزبدة الكلام فقد أوجـز الإمام عليه السلام جميع أنشطة نبي الإسلام ﷺ في الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذي يشمل كل سعي وجهد من أجل نشر دين الحق، والعبارة جاهد في لله إشارة لطيفة في أنّـه لم يكـن أسيراً للمال أو المقام والجاه والجلال، بل جاهد من أجل الله سبحانه وسعى لنجاة العباد.

٭٭٭

☜ عدل على وزن نظم عنت العدالة، ومن مادة العدول بـمعنى الانـحراف والرجـوع عـن الشـيء، وعـليه فالعادل على ثلاثة معاني، وأريد بها المعنى الأول في الخطبة (لابدّ من الالتفات إلى أنّ المعنى الأول يتعدى عادة بالباء والمعنى الثالث بواسطة عن).

١. سورة البقرة / ٢٥٦.

القسم الرابع

منها: «وَإِنَّمَا ٱلدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ ٱلْأَعْمَىٰ، لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَٱلْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَٱلْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ. وَٱلْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَٱلْأَعْمَىٰ لَهَا مُتَزَوِّدٌ».

الشرح والتفسير

الدنيا غاية بصر الأعمى

أورد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة كما ذكر ذلك الشارح البحراني عدّة نقاط لطيفة ورائعة رغم اقتضابها، وقد لفت الأنظار إلى الأصول التي تعد معالم حياة الأفراد فقال: «وَإِنَّمَا ٱلدُّنْيَا مُنْتَهَىٰ بَصَرِ ٱلْأَعْمَىٰ». ثم أكمل ذلك بقوله: «لَا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، وَٱلْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلدَّارَ وَرَاءَهَا».

نعم، فعبّاد الدنيا وبسبب حبّهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس في سجن لا يرى سوى ما في داخل السجن. فأمّا نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأمّا دعاة الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الثاقبة الدار الآخرة منزلهم الأبدي الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هي تبع ذلك الإيمان بالآخرة، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخرة. فهل خلق الخالق الحكيم كل ما في هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّة المعينة فيأكل ويشرب وينام ويصحو بالتالي يموت ويوارى جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بداية عمره كنهايته ممزوجة بالضعف والعجز، ووسطه الذي يمكن الاستفادة منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناة؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرّح

القرآن الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

وقال في النقطة الثانية التي تمثل في الواقع نتيجة بالنسبة للنقطة الأول: «**فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا شَاخِصٌ**».

وبناءاً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من مادة شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثاني التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادرة الحدقة، وللعبارة تفسير آخر اقتصر على ذكره شرّاح نهج البلاغة وهو أنّ الشاخص هنا يعني الراحل غاية ما في الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص»، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيرة والأعمى، وقال في النقطة الثالثة والأخيرة: «**وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَىٰ لَهَا مُتَزَوِّدٌ**».

فهل البصيرة يتزودون من الدنيا للآخرة كما صرّح بذلك القرآن الكريم: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[2]، بينما يتزود عمي القلوب من أجل العيش في الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمة «منها» و«لها».

๛

التعامل مع الدنيا

هناك على الدوام نظرتان يمتلكها الإنسان تجاه الدنيا، فأتباع الأديان السماوية يرون الدنيا بصفتها منزلاً لابدّ من التزود فيها إلى الآخرة، يبلغون مرادهم بواسطة هذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعادة الأبدية والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، أمّا أتباع المدرسة المادية (والمدارس التي تتفق معها) فهم ينظرون إلى الدنيا على أنّها الهدف النهائي والغاية فيوظفون كافة طاقاتهم ويجندون قواهم من أجل الظفر بها، وأحياناً يتفق أصحاب النظرة الأولى في العمل مع أتباع النظرة الثانية، يعني رغم اعتقادهم بأنّ الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، إلّا أنّ عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كهدف نهائي ومن هنا وردت

---

١. سورة الروم / ٧.
٢. سورة البقرة / ١٩٧.

تحذيرات أئمّة الدين التي تهدف ايقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً: «**تَجَهَّزُوا، رحِمَكُمُ اَللّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ**»[١].

وأخرى يقولون: «**النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنيا وَالدِّينُ لَعرقٌ عَلى ألسِنَتِهِم**»[٢]، كما يقولون: «**الدنيا: تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ**»[٣].

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها».

وأعظم مانع من الأفراد، وأهم وظائف أئمّة الدين إيقاظ هؤلاء الأفراد ولفت إنتباههم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

ꕥ

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٤.
٢. بحار الانوار ٣٨٣/٤٤.
٣. نهج البلاغة، قصار الكلمات ٤١٥.

القسم الخامس

منها: «وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي ٱلْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ ٱلْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ ٱلْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ ٱلْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ، وَفِيهَا ٱلْغِنَىٰ كُلُّهُ وَٱلسَّلامَةُ. كِتَابُ ٱللّٰهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي ٱللّٰهِ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ ٱللّٰهِ. قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَىٰ ٱلْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ ٱلْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ حُبِّ ٱلْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ ٱلْأَمْوَالِ. لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ ٱلْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمُ ٱلْغُرُورُ، وَٱللّٰهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع إلى مسائل مهمّة وقضايا مختلفة لا يبدو أنّها مرتبطة مع بضعها، ومن هنا يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السيد الرضي من خطبة طويلة مرتبطة، وذلك لأنّه رآها أعظم فصاحة وبلاغة، وإلى هذا يعود سبب عدم رؤيتنا لإرتباط واضح بينها، ومع ذلك فهناك حكمة بالغة تختزنها هذه العبارات، فقد ساق في البداية تنبيهًا من أجل لفت الأنظار إلى أهميّة العلم الذي يمثل حياة قلب الإنسان فقال: «**وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمَلُّهُ إِلاَّ ٱلْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لا يَجِدُ فِي ٱلْمَوْتِ رَاحَةً**».

وقد صرّح أغلب شرّاح نهج البلاغة هنا سؤالاً وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد في

بعض الآيات والروايات التي تصور راحة أولياء الله سبحانه في الموت، ومن ذلك ما ورد في سورة الجمعة: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[١]. وما ورد في سورة الواقعة: **﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾**[٢].

فمن الطبيعي ألا يكره الموت من يرى نفسه على أعتاب الروح والريحان والجنّة المليئة بالنعم، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «**لَيسَ لِلمُؤمِنِ راحَةٌ دُونَ لِقاءِ اللهِ**»[٣]، كما ورد هذا المعنى بعبارة أخرى عن الإمام الصادق أنّه قال: «**لا راحَةَ لِلمُؤمِنِ عَلَى الحَقِيقَةِ إلّا عِندَ لِقاءِ اللهِ**»[٤].

وجاء في الدعاء المعروف للإمام علي بن الحسين عليه السلام في يوم الثلاثاء: «**وَاجعَلِ الحَياةَ زِيادَةً لِي فِي كُلِّ خَيرٍ وَالوَفاةَ راحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍ**». وقد ذكرت عدّة أجوبة على هذا السؤال أوضحها جميعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلى الناس الذين يهربون عادة من الموت، بينما ليس لأمر كذالك بالنسبة لخواص الله سبحانه، كما يحتمل أن يكون المراد كراهة حتى أولياء الله تعالى للموت بفضله نهاية التزود ومواصلة مسيرتهم التكاملية، على كل حال فقد أراد الإمام علي عليه السلام هذه المقدمة على أنّها نتيجة وتشبيه للعلم والمعرفة التي يرتوي منها الإنسان مطلقاً فقال: «**وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ اَلْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ اَلْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ اَلْعَمْيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ اَلصَّمَّاءِ، وَرِيٌّ**[٥] **لِلظَّمْآنِ**[٦]**، وَفِيهَا اَلْغِنَىٰ كُلُّهُ وَاَلسَّلَامَةُ**».

فالواقع أراد الإمام عليه السلام أن هناك نوعين من الحياة حياة مادية وجسمانية والتي لا يشبع منها الناس غالباً، والحياة المعنوية والروحانية والأفضل منها العلم والمعرفة التي لا يرتوي منها العقلاء والعلماء قط، وبناءاً على هذا فانّ المشار إليه «ذلك» بالضبط هو ذلك الشيء الذي ورد

١. سورة الجمعة / ٦.
٢. سورة الواقعة / ٨٨ ـ ٨٩.
٣. شرح نهج البلاغة، لابن ميثم ١٥٧/٣.
٤. بحار الانوار ٦٩/٦٩.
٥. «ريّ»: له معنى مصدري هو الارتواء.
٦. «الضمآن»: من مادة «ظمأ» على وزن طمع بمعنى العطش.

قبل ذلك وهو الحياة المادية التي لا يشبع منها الناس، والغريب هنا كما أورده شرّاح نهج البلاغة حيث ذكر كل واحد منهم احتمالاً للعبارة المذكورة، الحال تفسيرها واضح وهو يشبه ما ورد في إحدى قصار الكلمات لأميرالمؤمنين علي ﷺ إذ قال: «**مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا**»[١].

على كل حال فالمراد بالحكمة في العبارة المذكورة هو العلم والمعرفة التي تقرب الإنسان من الله وتنظم أموره المادية والمعنوية وتحول دون أعماله العبثية، وبعبارة قصيرة كما وردت في القرآن الكريم فانّ الخير الكثير يعود إلى صاحبه: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً...**﴾[٢].

وقد يبيّن الإمام ﷺ في عبارته المذكورة العميقة المعنى الأوصاف الخمسة للحكمة وكشف عن منزلتها في حياة الإنسان المادية والمعنوية، فقال أولاً إنّ الحكمة حياة القلب الميت، يعني أنّ الأرواح والأفكار التي تصبح بفعل الجهل كالأموات خالية من أية حركة إيجابية، إنّما تعود إلى الحياة في ظلّ العلم والحكمة فتحيا وتمارس الحركة.

وثانياً وثالثاً أنّ الحكمة تبصر الأعمى وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحيث يرى الحق في كافة أنحاء الخلق ويسمع نداء تسبيح الكائنات ويدرك رسالته أولياء الله سبحانه، وقال في الوصف الرابع والخامس أنّ عطشى الحق لا يرتوون من منابع الحكمة ويجدون فيها أسباب عافيتهم وسلامتهم، وعليه فلن يبق من الخير والبركة والسعادة شيئاً إلّا وقد اختزنته الحكمة.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذي يراه بعض شرّاح نهج البلاغة أنّه جمل استئنافية قطع إرتباطها بالعبارات السابقة بسبب ما اعتمده السيد الرضي في الانتخاب[٣]، ولكن كما أورد المرحوم البحراني فانّه لا يمكن القول أنّ ليس هناك إرتباط بين هذه العبارات وسابقاتها حيث بيّنت أحد منافع الحكمة المهمّة وهى القرآن الكريم، أو بعبارة

١. نهج البلاغة، قصار الكلمات ٤٦٦.

٢. سورة البقرة / ٢٦٩.

٣. هذا الاحتمال مختار ابن أبي الحديد والمرحوم الشارح الخوئي ومحمد عبده.

أخرى قد ركّزت على المصداق التام للحكمة، والجدير بالذكر أنّ الأوصاف التي بيّنتها للقرآن تشبه الأوصاف التي بيّنتها العبارات المذكورة للحكمة، على كل حال فقد قال كتاب الله الذي تبصرون به الحقائق وتتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله في الله، ومن يصحبه لا يخالف الله: «**كِتَابُ اللّٰهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللّٰهِ**».

والأوصاف السبعة التي بيّنها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسة التي بيّنها بصورة كلية بخصوص الحكمة.

والجدير بالذكر أنّ الحكمة اقترنت بالكتاب في غلب الآيات القرآنية[1] والذي يدلّ على العلاقة الوثيقة بينهما وأنّ رسل الله سبحانه كانوا يمضون قدماً في ظلّهما (الكتاب والحكمة).

من جانب آخر فانّ الأوصاف التي تضمنتها العبارة بشأن القرآن الكريم في أنّه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشارة إليها في بعض الآيات القرآنية ومن ذلك الآية: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ...**﴾[2].

وممّا لا شك فيه أنّ الآيات الإلهيّة ودلائل الحق قد وردت بكثرة في القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤية جمال الحق ويسمع نداء الله تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العبارة: «**يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ**» والعبارة: «**يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ**»، لأنّ الحديث في العبارة الأولى عن آيات القرآن التي يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات في ظل المحكمات. وأمّا العبارة الثانية فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكلّ منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعبارة: «**وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللّٰهِ**»، إشارة إلى عدم اختلاف القرآن الكريم في بيان صفات الجمال والجلال والتي تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع أياته عن تلك الذات المقدّسة الجامعة لكافة الكمالات اللامتناهية. والعبارة: «**وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللّٰهِ**». إشارة إلى أنّ أي من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

---

١. سورة البقرة / ١٢٩، ١٥١؛ وآل عمران / ٤٨، ٨١ و...

٢. سورة الانعام / ١٠٤.

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[1].

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه كطبيب حاذق وحكيم ماهر فخاض في بيان معاناة مخاطبيه المعنوية وقد ذكرهم بنقطة مهمّة، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن ـ وعليه لا يبدو صواباً ما أورده شرّاح نهج البلاغة من عدم إرتباط العبارات اللاحقة بالعبارات السابقة، فقال بادىء الأمر كأنّي بكم قد إتفقتم على الخيانة والحسد والحقد: «قَدِ اَصْطَلَحْتُمْ عَلَىٰ اَلْغِلِّ[2] فِيمَا بَيْنَكُمْ». ثم قال: «وَنَبَتَ اَلْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ[3]»، إشارة إلى أن أعمالكم الخاطئة إنّما تفرزها أفكاركم الملوثة، وأضاف في بيانه لنقطة ضعفهم الرابعة والخامسة فقال: «وَتَصَافَيْتُمْ عَلَىٰ حُبِّ اَلْآمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ اَلْأَمْوَالِ»، فنقطة اشتراككم تكمن في تعلقكم بالآمال والأماني الفارغة، ونقطة اختلافكم في كسب المال، حيث يريد كل منك أن يختطف المال الذي في يد غيره.

والواقع يمكن خلاصة نقاط ضعفهم في أربع كلمات هى الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أنّ المجتمع لن يرى الأمن والاسقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجي، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال في هذا المجتمع فهى بمثابة الزهور الجميلة التي تنبت في المزابل وجذورها عفنة، وكأنّ الإمام ﷺ أراد أن يفهمهم هذه القضية وهى أنّ المبادىء التي سادت المجتمع الجاهلي قبل الإسلام والتي وردت الإشارة إليها في صدر هذه الخطبة قد إنتعشت اليوم مرّة أخرى في وسطكم، ثم أشار الإمام ﷺ في آخر الخطبة إلى أحد الأركان المهمة لانحرافهم والذي يتمثل بوساوس الشياطين والتي جعلتهم يضلون سبيل

---

١. سورة النساء / ٨٢.

٢. «غل»: من مادة «غلول» أو غلل على وزن أفول وأجل تعني في الأصل النفوذ التدريجي والخفي للماء في جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذي له معنى (الاسم المصدري) على الخيانة لأنّها تحصل بصورة تدريجية وخفية.

٣. «دمن»: جمع «دمنة» على وزن فتنة بمعنى السرقين، كما يطلق على الحقد القديم.

السعادة والنجاة: «لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ[1] بِكُمُ الْغُرُورُ[2]، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ». قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً...﴾[3]، كما قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[4]. استهام من مادة هيام على وزن قيام خرج لا يدري أين يذهب، فهو يمشي دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولمّا كان العاشق حيران في حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فانّ الشيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائية ولا يقود ذلك سوى للحيرة والاضطراب، وهذا بدوره يلقي بالإنسان في وادي الهلكة، وبالنتيجة فانّ صفاتهم الباطنية القبيحة من جانب، والانقياد لوساوس الشياطين من جانب آخر قد مهدت السبيل لبؤسهم وشقائهم وسلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الرباني بهذه الخطبة الغرّاء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

٭٭٭

أهميّة القرآن ودور عبادة الدنيا في الصراعات

أشار الإمام في هذا المقطع الأخير من الخطبة إلى عدّة أمور مهمّة منها:

١ ـ أنّ القرآن الكريم مصدر البصر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنّهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطني وتلوثهم وطول أملهم وغرقهم في حبّ الدنيا، ونعلم أنّ هذه الأمور أهم حجب المعرفة، نعم فالكتب السماوية مهما ملئت الحكمة، ومهما تحلى الأئمّة بالعلم والبلاغة فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابلية في القابل، فالشمس ترسل أشعتها

---

١. «تاه»: من مادة «تيه» بمعنى الحيرة ومن مادة «توه» على وزن لوح بمعنى الهلكة، ويبدو المعنى الثاني في العبارة هو الأنسب.

٢. «غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمكر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنى الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن على الشيطان، وقد ورد بالصيغة الأولى في النسخة المعروفة لصبحي الصالح، بينما ورد بالصيغة الثانية في أغلب النسخ، وتبدو الصيغة الثانية أنسب على ضوء تناسق العبارات.

٣. سورة النور / ٢١.

٤. سورة النساء / ٨٣.

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هي الأمطار في لطافة طبعها لكنه لا ينبت الأزهار في كل مكان.

٢ ـ إنّ حبّ المال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصر هذا الأمر على الزمان والماضي، بل تلمسه بوضوح في كل مكان في الوقت الحاضر. فالدول الغاشمة تصرّح دون خشية إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح في البلد الفلاني (طبعاً مصالح غير مشروعة) وعليه فلابدّ أن يكون لنا تواجد عسكري فيه لنرعى تلك المصالح، والمؤسف أن وجه الدنيا أخذ يتكدر يوماً بعد آخر والحياة أصبحت فيها عديمة الأمن. وليس ذلك سوى ما أورده الإمام ﷺ إذا قال: «**وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ**».

ﮊﮋ

الخطبة[1] ١٣٤

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

وقد شاوره عمرُ بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

نظرة إلى الخطبة

قال بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام ﷺ خطب بهذا الكلام حين اتّجه قيصر بجيشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الوليد عن إمرة جيش المسلمين وقد تولى الإمرة أبو عبيدة الجراح وشرحبيل وقد ضاق عليهما الأمر، لذلك عزم عمر أن يحضر بنفسه واستشار أمير المؤمنين علي ﷺ[2]، ويفهم من كلام ابن أبي الحديد أنّ عمر خالف ما أشار عليه علي ﷺ، فلمّا علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح على أن يؤدّوا الجزية إلى المسلمين، ثم روى قصة أشبه بالخرافة[3].

قال المرحوم العلّامة التستري **أولاً:** ما رواه ابن أبي الحديد عن سيف وروايات سيف لا تخلو من الوضع والتحريف.

ثانياً: لا دليل لدنيا أنّ هذا الكلام قاله علي ﷺ حين استشارة عمر في الخروج بنفسه

---

١. سند الخطبة:
نقل هذا الكلام عن الإمام ﷺ باختلاف طفيف ابن الأثير في النهاية في مادة كنف وأبو عبيد في كتاب الأموال (مصادر نهج البلاغة ٣٠٢/٢)

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ١٦٢/٣.

٣. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢٩٨/٨.

لقتال الروم، بل ظاهر بعض كلمات الشيخ المفيد ﷺ أنّ الكلام في معركة القادسية أو نهاوند[١].

والجدير بالذكر هنا أنّ عمر كان يقبل عادة ما يشير عليه علي ﷺ وكان يرى نجاته في ذلك القبول، وهذا بدوره يؤيد ما أورده المرحوم العلّامة التستري.

على كل حال تتألف هذه الخطبة من قسمين: الأول وعد الله سبحانه لهذه الأُمة بـالنصر والغلبة والامل بهذا الوعد، والثاني الذي قال فيه علي ﷺ لعمر: لا تشخص بنفسك فانّك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه.

๑๐๑

١. شرح نهج البلاغة، للتستري ٧/٤٢١ـ٤٢٣، بتصرف.

«وَقَدْ تَوَكَّلَ ٱللّٰهُ لِأَهْلِ هٰذَا ٱلدِّينِ بِإِعْزَازِ ٱلْحَوْزَةِ، وَسَتْرِ ٱلْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لَا يَمُوتُ.

إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هٰذَا ٱلْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ. فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً، و ٱحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ ٱلْبَلَاءِ وَٱلنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ ٱللّٰهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ ٱلْأُخْرَىٰ، كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ».

ﮜﮝ

الشرح والتفسير

الحضور الخطير

استهل الإمام ﷺ كلامه للخليفة بهدف تقوية معنوياته حذراً من خوف لقاءالعدو الغاشم كالروم بقوله: وَقَدْ تَوَكَّلَ ٱللّٰهُ لِأَهْلِ هٰذَا ٱلدِّينِ بِإِعْزَازِ ٱلْحَوْزَةِ[1]، وَسَتْرِ ٱلْعَوْرَةِ»، والعبارة توكل تشير إلى أنّ الله سبحانه تكفل بحمايتهم والدفاع عنهم، وهو الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

وهذا الوعد الالهي ـ طبق كلام الإمام ﷺ ـ لم يكن مقتصراً على زمان النبي ﷺ، بل يجري في كل عصر ومصر، والعبارة: «وَسَتْرِ ٱلْعَوْرَةِ»، بالنظر إلى أنّ العورة تعني في الأصل النقاط الحدودية الهشة وما يخشاه الانسان ويخافه، فهي تشير إلى أنّ الحق تبارك وتعالى وإضافة إلى

---

١. «حوزة»: من مادة «حوز» على وزن موز تعني الجمع والاتصال والإمتلاك وعادة ما تطلق الحوزة على كل مجموعة.

٢. سورة التوبة / ٣٣.

تعهده بعزّة المسلمين ورفعتهم فانّه يمنع العدو من الالتفات إلى نقاط ضعفهم أسرارهم حتى لا يتمكن من تسديد ضرباته للمسلمين.

ثم شدّ من العزائم أكثر فأتى بشاهد حـي فـقال ﷺ: «**وَالَّـذِي نَـصَرَهُمْ، وَهُـمْ قَـلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ، حَيٌّ لاَ يَمُوتُ**[١]».

فقد نصر الله تعالى أُولئك المسلمين الذين كانوا يبدون في الظاهر ضعفاء ومن حيث العدّة قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد لله وقد إنضوت عدّة أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصرة الحق والغلبة لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو الله تـعالى الحـي القيوم الذي لا يموت، طبعاً إنّ أي موجود تثق به وتعتمد عليه فـانّ مـرور الزمـان يـصيبه بالضعف والهن والفتور وبالتالي الزوال والفناء، والذات الإلهيّة المقدّسة الوحيدة التي لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتي لا ينبغي الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام ﷺ ذى مقدمة بعد هذه المـقدمة فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عـدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلاً واضحاً لذلك والذي يقبل بصورة تامة في الموارد المشابهة فقال: «**إِنَّكَ مَتَىٰ تَسِرْ إِلَىٰ هٰذَا ٱلْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ**[٢]، **لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ**[٣] **دُونَ أَقْصَىٰ بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ**».

إشارة إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فانّ أرادت الأُمـة مـبايعة شخص آخر فانّ المجتمع الإسلامي سيفقد مركزيته وتنها المناطق النائية التي تكون عـرضة للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسري إلى سائر أنحاءالبلاد، ولما كان السلب في القـضايا الاجتماعية يقترن دائماً بالايجاب بغية سدالفراغ الاجتماعي، فبعد أن أشار عليه الإمام بـعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب في الحرب وطائفة ممن أبلت في القتال، من أهل النصح والخير فانّ أتاهم النصر فذلك ما يبغي ويحب، وإن حدث شيء آخر (إشارة

---

١. العبارة «والذي نصرهم...» مبتدأ وخبرها «حي لا يموت».

٢. «تنكب»: من مادة «نكب» على وزن نخل بمعنى الانحراف عن المسير، وفي هذه العبارة بـمعنى الهـزيمة والقتل.

٣. «كانفة»: من مادة «كنف» على وزن ظرف بمعنى الحفظ، وعليه كانفة تقال للشخص أو الشيء العاصم الذي يحفظ الأفراد.

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطرة على الأوضاع وتحيق النصر على العدو): «**فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً**[1]**، وَاحْفِزْ**[2] **مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاءِ**[3] **وَالنَّصِيحَةِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللّهُ فَذاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِدْءاً**[4] **لِلنَّاسِ وَمَثابَةً**[5] **لِلْمُسْلِمِينَ**».

فقد بيّن الإمام ﷺ جوابه للخليفة حين المشورة بدليل منطقي وواضح وهو أنّ حضور زعيم جماعة في ميدان القتال أمر خطير سوى في الموارد الاستثنائية، لأنّ من الاحتمالات الواردة قتله في المعركة ونتيجة ذلك إنهيار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقي مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

٨٠٠٣

تأمّلات

١ـ الردّ على سؤال

طرح بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال أشار علي ﷺ على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول الله ﷺ كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أمير المؤمنين علي ﷺ شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟

وقد أجاب بعض الشرّاح بالقول أنّ النبي الأكرم ﷺ كان عالماً عن طريق الوحي بأنّه لا يقتل في الحرب، كما كان علي ﷺ عالماً من جهة النبي ﷺ أنّه لا يقتل في هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدي الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

---

١. «محرب»: من مادة «حرب» بمعنى المقاتل والشجاع.

٢. «احفز»: من مادة «حفز» على وزن نبض الدافع والسوق الشديد.

٣. «بلاء»: بمعنى الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة في الحرب.

٤. «رده»: بالكسر من مادة «رده» على وزن عبد بمعنى المساعدة وعليه فرده بمعنى النصير والعضيد والسند.

٥. «مثابة»: من مادة «ثوب» على وزن قوم بمعنى رجوع الشيء إلى حالته الأولى ومثابة بمعنى المرجع ومن يعاد إليه.

فليست هنالك من خطورة في حضورهما، وقال البعض الآخر، أنّهما كانا يحضران المعارك التي لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصر حضور النبي الأكرم ﷺ في المعارك الخارجية على تبوك فقط، وبعد أن استخلف علياً عليه السلام في المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفة تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كان الميدان بعيداً عن مركز الحكومة واشترك رئيس الحكومة فيه وقتل أدّى إلى عدّة مشاكل، ومن هنا نهى الإمام عليه السلام الخليفة عن حضور ميدان القتال بنفسه.

ﮩﮨ

٢ ـ شبهة أخرى

لعل هناك من يشكل: كيف قدم الإمام عليه السلام هذه النصيحة الودّية والمشفقة للخليفة مع أنّه يرى الحكومة من حقوقه المسلمة وقد صرّح النبي الأكرم ﷺ والآيات القرآنية بهذا المعنى في أنّ الولاية لعلي عليه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السلام إنّما يفكر في المصير النهائي للإسلام والمسلمين لا في شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفة الثاني قد تربع على مسند الحكومة وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفة من الخواص، فانّ تعرض في ظل هذه الظروف إلى أزمة عظيمة وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضى وتعرض كيان الإسلام للخطر، فروح علي عليه السلام العظيمة تقتضي نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

ﮩﮨ

٣ ـ الأمانة في الاستشارة

الكلام المذكور درس لجميع المسلمين بتقديم الخير والصلاح حين المشورة دون الأخذ بنظر الاعتبار قضية المستشار وكيفية العلاقة به.

بعبارة أخرى: إمّا يرفض المشورة وإمّا أنّ يقبلها ويؤدّي حقها، فقد ورد في الحـديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «**اعْلَم أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيفِ وَقَاتِلَهُ لَو إِتَمَنَنَي واستَنصَحَنِي وَاستِشارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لأَدَّيتُ الأَمَانَةَ**»[1].

ﮩﮨﮪ

٤ ـ إستنتاج خاطىء

أراد بعض المخالفين التشبث بكلام الإمام عليه السلام ليقيموا الدليل على أحقيّة الخليفة الثاني بالخلافة وعلى لسان علي عليه السلام، ولكن من الواضح أنّ هذا الاستنباط خاطىء، لأنّ الوظيفة الشرعية والعقلية وحفظاً لمصالح المسلمين تتطلب من كل شخص في مثل ظروف علي عليه السلام أن يقدم النصح لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسلمين وصلاحهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصية، بل إن كانت بضرورة، والعبارة: «**لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ**»، لا تعني قط أنّك أصلح الأمة، بل معناها أنّ الناس عرفوك في ظلّ الظروف الفعلية ـ حقّاً أم بغير حق ـ بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعة لآخر زماناً طويلاً وهنا تنهار الأُمة.

ﮩﮨﮪ

١. تحف العقول /٣٧٤.

الخطبة[1] ١٣٥

وَمِنْ كَلامٍ لهُ ﷺ

وقد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان
فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال علي ﷺ للمغيرة:

نظرة إلى الخطبة

صرّح ابن أبي الحديد وآخرون أنّ هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، وإن أفادت عبارات الخطبة أنّ هذه المشاجرة كانت بحضرة عثمان، فقد جاء في الخبر أنّ عماراً لما سمع بخبر وفاة أبي ذر ترحم عليه بحضور عثمان، فغضب عثمان وقال: انفوه إلى الربذة، فقال عمار: مجالسة الكلاب والخنازير أحبّ إليّ من مجالستك قال ذلك وخرج، فعزم عثمان على نفيه، فذهب بنو مخزوم إلى علي ﷺ وشكوا له ضرب عثمان لعمار وهو عازم الآن على إبعاده فسألوه أن يكلم عثمان وإلّا وقعت فتنة عظيمة، فذهب الإمام علي ﷺ إلى عثمان وقال له: نفيت أبي ذر إلى الربذة حتى مات غريباً وهو من صحابة رسول الله ﷺ وقد نقم عليك الناس ذلك، وتريد الآن نفي عمار.

فغضب عثمان وقال: لابدّ من نفيك أولاً لكي لا يجرأ عمار، ففسادهم منك. فقال علي ﷺ: لا تقدر على ذلك وفساد أمثال عمار بسبب أعمالك، فأنت تعمل خلاف دين الله تعالى فنقم

---

١. سند الخطبة:
لم ينقل صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة من نقل هذه الخطبة سوى أحمد بن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، لكنّه أورد بعض التوضيحات بشأن وورد الخطبة عن كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

الناس عليك، قال ذلك ثم خرج من عند عثمان، وقد أحاط الناس به وقالوا فليبعدنا عثمان جميعاً لنموت بعيداً عن أهلنا. فقال الإمام عليه السلام قولوا لعمار يلازم بيته ولا يخرج.

فقال بنو مخزوم: إن كنت معنا فليس لعثمان أن يفعل شيئاً، فلما بلغ ذلك عثمان شكى علياً عليه السلام إلى الناس، فقال له زيد بن ثابت وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشي إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك، قال: بلى، فأتاه زيد معه المغيرة بن الأخنس[1] وعداده بني زهرة وأُمّه عمة عثمان، فحمد زيد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فانّ الله قدم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك ووالي هذه الأمة، فله عليك حقان، حق الولاية وحق القرابة، وقد شكا إلينا أنّ علياً يعرض لي، ويرد أمري عليَّ، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما، فحمد علي عليه السلام الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أمّا بعد، فوالله ما أحبّ الاعتراض ولا الردّ عليه، إلّا أن يأبى حقاً لله لا يسعني أن أقول فيه إلّا بالحق، ووالله لأكفنّ عنه ما وسعني الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس وكان رجلاً وقاحاً، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: إنّك والله لتكفن عنه أو لتكفن، فانّه أقدر عليك منك عليه.

فقال له عليه السلام: يابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع...[2].

بناءاً على هذا فخلاصة الكلام أنّه اعتراض شديد على المغيرة بن الأخنس الذي نطق بكلام أكبر منه واعتقد أنّ له منزلة أعظم ممّا في نفسه.

---

١. المغيرة بن الأخنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبة المعروف بنفاقه وعداوته لأهل البيت عليهم السلام.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨/٣٠١ ـ ٣٠٢؛ والفتوح لابن أعثم الكوفي ١٦/١ طبقاً لنقل شرح نهج بالبلاغة للمرحوم التستري ٢٦١/٩.

«يَابْنَ ٱللَّعِينِ ٱلْأَبْتَرِ، وَٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟ فَوَٱللَّهِ مَا أَعَزَّ ٱللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ. أُخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ ٱللَّهُ نَوَاكَ، ثُمَّ ٱبْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى ٱللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!».

الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان علي ﷺ الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيّما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذي جاوزت بطانته الحدّ في الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان ﷺ من يوصل نداء المظلومية للخليفة، فمن الطبيعي أن يسبب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الأمة ضد الخلافة الحاكمة.

فقد عرض الإمام ﷺ بهذا الردّ على تهديد المغيرة بن الأخنس بالذم له والاستخفاف به، فأشار باديء الأمر إلى جذور فساده ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأي عمل ضد الإمام ﷺ فقال: «**يَابْنَ ٱللَّعِينِ ٱلْأَبْتَرِ، وَٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟**»، والتعبير عن المغيرة بن الأخنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام في فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول الله ﷺ إستمالة قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذي قتله علي ﷺ يوم أحد، ومن هنا حقد المغيرة على علي ﷺ[1].

وأمّا وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنّه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعني انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

١. يقال إنّ عداء آل المغيرة استمر ضد علي ﷺ حتى شهد ولده عبد الله المعركة الجمل فقتل فيها (شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري ٩/٢٦٦).

وأمّا قوله والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعة هذه الأسرة وبُعدها عن القيم والمثل، فالواقع أنّ قول الإمام ﷺ إقتباس من الآية الشريفة: ﴿**وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ**﴾[1].

ثم قال الإمام ﷺ: «**فَوَاللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ**[2]»، العزّة والقدرة بيد الله سبحانه ذلك طبقاً للآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[4]، فالعزّة لله لا للمنافقين، ثم إختتم الخطبة باستخفافه الشديد بالمغيرة فقال: «**أُخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ**[5]، **ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ**[6] **إِنْ أَبْقَيْتَ!**».

إشارة إلى أنّك لأصغر من أن تهدد علياً ﷺ، فافعل ما بوسعك لترى إنّك لا تقوى على شيء، وبائس هو الفرد الذي أنت ناصره.

٭٭٭

سلوك الإمام ﷺ تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر في شأن وورد هذا الكلام للإمام ﷺ وتتبعنا بدقة مساره التاريخي لرأينا كيف اصطدم الإمام ﷺ بصورة منطقية بالانحرافات في عصر الخلفاء ولا سيّما على عهد عثمان، فلم يتوان في تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أي توتر واضطراب حيث كان يكتفي بالحدّ الأدنى من التذكير، أمّا حين كان يصطدم بالمنافقين والجهّال عديمي المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدّة وصلابة حتى لا يقتدح في أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشة والخطيرة، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

---

١. سورة ابراهيم / ٢٦.

٢. «منهض»: من مادة «نهض» القيام من المكان ومنهض من باب إفعال الشخص الذي يساعد غيره لينهض.

٣. سورة محمّد / ٧.

٤. سورة غافر / ٥١.

٥. «نواك»: من مادة «نوا» والكاف ضمير متصل تعني في الأصل غاية المسافر بعيدة كانت أم قريبة.

٦. فالعبارة لا أبقى الله عليك تطلق حين اللعن ليبعد عن رحمة الله، والعبارة إن بقيت تعني لا رحمك الله إن رحمتني، فهي في الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنّك لا تقدر على شيء.

الخطبة ١٣٦[1]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ

في أمر البيعة

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام ﷺ في هذه الخطبة إلى أمور:

الأول: أنّ بيعتي لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنّها بيعة عامّة.

الثاني: أنّي أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانية، لكنّكم تريدونني من أجل ضمان منافعكم الدنيوية.

الثالث: أبغي من كل الأفراد النصرة لاستنقاذ حق المظلوم من الظالم، ويبيّن الإمام ﷺ عزمه القاطع بهذا الشأن

---

١. سند الخطبة:
قال المرحوم الشيخ المفيد ﷺ في كتاب «الإرشاد» أنّ الإمام علي ﷺ أورد هذا الكلام إمتنع البعض عن بيعة الإمام ﷺ ـ حسب رواية الشعبي ـ ومنهم عبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وحسان بن ثابت واسامة بن زيد، فخطب الإمام ﷺ لبيان أحقيّة بيعته (مصادر نهج البلاغة ٣٠٦/٢) وهكذا نقل هذه الخطبة الشيخ المفيد في إرشاده وقد عاش قبل السيد الرضي، وكذلك أشار إليها ابن الأثير في كتاب «النهاية» في مادة (فلت).

«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلّٰهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.
أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَآيْمُ ٱللّٰهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ ٱلظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ ٱلْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً».

الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فانّ الإمام أورد هذا الكلام ـ بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبة ـ حين إمتنع بعض صحابة النبي الأكرم ﷺ عن بيعته، فأتمّ الإمام ﷺ الحجة عليهم بهذا الكلام فقال: **«لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً»**، بل حين رأيتم المشاكل الناشئة من بيعة الخلفاء السابقين ولاسيّما بيعة الخليفة الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال عليَّ فأبيتم أمراً جديداً في مسألة البيعة، وبناءاً على ما تقدم فانّ الأقلية لا تمتلك الحق في نقض البيعة التي سارعت إليها الأكثيرة من الأُمة.

وبالنظر إلى أنّ الفلتة تعني العمل الذي يقع بغتة دون روية وتدبر فقد أراد الإمام:

أولاً: يوضح أنّ بيعته كانت دقيقة جدّاً وقد حصلت بعد مشورة الأُمة وزعماء القبائل مع بعضهم.

ثانياً: التلميح إلى بيعة أبي بكر التي حصلت في أجواء متوترة مغلقة من قبل قلّة قليلة حتى قال عمر بهذا المضمون: **«إِنَّ بَيعةَ أبي بَكرٍ كَانتْ فَلتَةً، وَقىٰ اللهُ شرّها»**[1]، كما ورد في بعض الروايات في ذيل هذا الحديث **«فَمَن عادَ إِلى مِثلِها فاقتُلُوهُ»**[2]، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع في البحث اقادم.

ثم قال الإمام ﷺ في مواصلة كلامه: **«وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلّٰهِ،**

---

١. صحيح البخاري ٦/٢٥٠٥ طبعة دار النشر بيروت وصحيح ابن جبان ١٤٨/٢، طبع مؤسسة الرسالة.
٢. بحار الانوار ٢٤٨/١٠ (نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب).

وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ»، فلست من قبيل طلاب الدنيا من الحكّام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبهتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامة الدين بواسطتكم وأن أُؤدّي حقوق الناس وأفوز برضى الله سبحانه، ولكنكم تريدونني لمصالكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه في الحياة، وبالإلتفات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعي ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبّخهم وأيقظهم فقال: «**أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ**»، في إشارة إلى أنّ مدرستي التربوية معدة لإصلاحكم، فما أُريده منكم وبقبول نصائحي ـ التي تستند إلى مصدر الوحي والقرآن الكريم وتعاليم النبي الأكرمﷺ ـ الإلتحاق بها والتعاون معي، فانّ لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أي برنامج، ثم أشار في الختام إلى نقطة مهمّة ووضح عزمه الراسخ فيها وهي مسألة بسط العدالة في كافة أرجاء البلد الإسلامي مقاتلة الظلمة فقال: «**وَايْمُ ٱللّٰهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ ٱلظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ**[1] **حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ**[2] **ٱلْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً**»، فهذا التشبيه الرائع للظلمة بالبعير الجامح الذي يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أنّ الهدف من مقارعة الظلمة لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أنّ هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأنّ الظالم إن جاوز الحدّ فانّ التمرد والعصيان العام سيكون كألسنة اللهب التي تحرق الأخضر واليابس وأنّ الظلمة أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذي وقع في عصر عثمان قبيل حكومة الإمام ﷺ كما يفيد من جانب آخر أنّ أهم هدف اجتماعي للإمام ﷺ بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافي المرير على ألسنة أغلب الأفراد الجهّال، وهذا أهم هدف لبعثة الأنبياء والذي صوره القرآن الكريم بالقول: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...**﴾[3].

---

١. «خزامة»: بالكسر حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير ليشد فيها الزمام ويشهل قياده، وقال البعض إن كان جنس الحلقة من النحاس قيل لها البرة وإن كانت من الشعر فهي الخزامة.

٢. «منهل»: من مادة «نهل» على وزن جهل بمعنى الشربة الأولى ويطلق المنهل على الموضع الذي يمكن الاستفادة منه من ماء النهر (لابدّ من الالتفات إلى أنّ سطح ماء أغلب الأنهار أكثر انخفاضاً من الساحل وعادة ما يشقون بعض الأماكن لوصول الماء ليبلغه الناس والحيوانات بسهولة ويقال لمسير هذه الأماكن الشريعة وآخرها المنهل.

٣. سورة الحديد / ٢٥.

الخطبة[1] ١٣٧

وَمِنْ كَلاٰمٍ لهُ ﷺ

في شأن طلحة والزبير وفي البيعة له

نظرة إلى الخطبة

المحاور الأصلية للخطبة هي:

١ ـ نقض طلحة والزبير للبيعة لحجّة اشتراك علي ﷺ في قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.

٢ ـ النصيحة المشوبة بالتهديد لطلحة والزبير ليكفا عن الفتنة، ويلتحقا بصفوف عامّة المسلمين.

٣ ـ الإشارة إلى مسألة البيعة وأنّ الإمام ﷺ لم يكن طالباً للحكومة، بل هم الذين أصروا عليه بقبول البيعة.

٤ ـ لعن الإمام ﷺ في ختام الخطبة طلحة والزبير وهو الأمر الذي جرى عليهما عملياً فساءت عاقبتهما.

---

١. سند الخطبة:
رواها ابن عبد البر من علماء العامّة للقرن الخامس في كتاب «الاستيعاب» في شرح سيرة طلحة، كما رواها ابن الأثير من علماء القرن السابع في «اسد الغابة»، ونقلها المرحوم الشيخ المفيد ﷺ في كتاب «الجمل» عن الواقدي، كما فسّر بعض أجزاءها ابن أبي الحديد عن أبي مخنف وكذلك ابن الأثير في كتاب «العوذ» (مصادر نهج البلاغة ٣٠٩/٢).

القسم الأول

«وَٱللّٰهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ [وُلُّوهُ] دُونِي فَمَا ٱلطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ؛ فِيهَا الْحَمَأُ وَٱلْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ ٱلْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَأَيْمُ ٱللّٰهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ!».

۞

الشرح والتفسير

الحاقدون الظالمون

لا شبهة ولا شك أنّ طلحة والزبير كانا من بين أُولئك الذين أثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما في قتل عثمان، كما أعلنت عائشة صراحة اعتراضها على عثمان، إلّا أنّ العجيب ما إن هبت الأمة لمبايعة علي عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحة والزبير وكذلك عائشة، والأعجب من ذلك أنّ حجّتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبة إلى هذا المطلب فقال: «**وَٱللّٰهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً**[1]»، ثم أضاف قائلاً: «**وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ**».

---

١. «نصف»: بكسر النون وضمها الإنصاف.

ثم استدلّ بدليل واضح على ذلك فقال: «**فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ [وُلُّوهُ] دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**»، قطعاً ليس الإمام عليه السلام من يد في قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابة أنّ عثمان يستحق القتل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام ليس فقط لن يشترك في هذا العمل فحسب، بل بعث بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، مع ذلك صرّح تجاه ذرائع طلحة والزبير وبغية سلبهم حق المطالبة فقد قال لم يقل أحد بأنّي كنت الوحيد في قتل عثمان على فرض أنّي اشتركت في قتله، فقد شركتموني فيه، وعليه فأي منطق يستول لكم مطالبة الآخرين بأمر اشتركتم فيه معهم، وإن كنتما لوحدكما من فعل ذلك، فالعقاب يقتصر عليكم، وعليكم أن تدينوا أنفسكم قبل أي شخص، فالمتعارف بين الساسة الشياطين أنّهم يسعون لخلق بعض الذرائع التي يستحسنها العوام بغية التشنيع على منافعهم، فهم يبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما يشوه سمعتهم لدى الرأي العام، وفي ظلّ هذه الأجواء تغيب معاني المنطق والعدالة والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما كان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذي مارسه طلحة الزبير وعائشة بعد بيعة الأُمة لعلي عليه السلام فألبّوا الكثير من الناس لقتاله عليه السلام حتى احترقوا بنيران تلك المعارك، على كل حال فانّ الإمام عليه السلام سلب من خصومه الحجّة وأفشل خططهم ليعلم الناس أنّهم قتلة عثمان وقد تذرعوا بالمطالبة بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصية، فهم لا يفكرون في الناس ولا يهتمون بدم الخليفة المظلوم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أصحاب الجمل الذين ينقضون البيعة: «**إِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي**[1]**؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ؛ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ**[2]».

فهذا الكلام إشارة للحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا تَذهَب اللّيالِي وَالأَيّامُ حتّى تَتنابَحَ كِلابُ ماءٍ بِالعِراقِ يُقَالُ لَها الحَوأَبُ إِمرَأَةٌ مِنْ نِسائِي فِي فِئَةٍ بَاغِيةٍ**»[3].

---

١. أوردنا شرحاً تاماً للعبارة «إنّ معي لبصيرتي» في هذا الكتاب ٤٨١/١.
٢. «شغب»: مصدر وبمعنى تهييج الشر والفساد.
٣. منهاج البراعة ٣٣٨/٨؛ الاحتجاج ١٦٥/١.

فالحديث يشير إلى الحادثة المعروفة لأصحاب الجمل حين قدموا من المدينة إلى البصرة، فلمّا بلغوا الحوأب نبحت عائشة كلابها، فتذكرت حديث النبي ﷺ فقالت: إرجعوني إلى المدينة، لكن الساسة المحترفين جندوا أهل تلك المنطقة ليشهدوا بأنّ تلك المنطقة ليست الحوأب[1].

وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ومتقي الهندي في كنز العمال أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: «**يَا عَلَيُّ ستُقَاتِلُ الفِئَةِ البَاغِيةِ وَأَنتَ عَلَى الحَقِّ فَمَن لَم يَنصُركَ يَومَئذٍ فَلَيسَ مِنِّي**»[2]، ومن هنا قال الإمام عليه السلام إنّ معي لبصيرتي ما لبست ولا لبس عليَّ. فالعبارة: «**فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحُمَةُ**»، بالنظر إلى أنّ الحمأ بمعنى المستنقع والمادة الغامقة في جرف الأحواض والجداول، والحمة بضم ففتح بمعنى الإبرة اللاسعة للعقرب والحية، فهي كناية عن الأفراد الأرجاس والخطيرين الذين كانوا من مثيري فتنة الجمل.

وهنا تفسير آخر لهاتين المفردتين في أنّ الحمأ بمعنى القرابة الحميمة والحمة بمعنى الزوج وهي كناية عن الزبير بن العوام ابن عمة النبي الأكرم ﷺ، وعائشة إحدى أزواج النبي ﷺ، والعبارة الشبهة المغدقة بالنظر إلى أنّ المغدقة من مادة أغداق تعني في الأصل التغطية إشارة إلى الضجة التي أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبة بدم عثمان والحال أيديهم ملطخة بدم عثمان، بينما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارة لا تنافي العبارة اللاحقة التي قالت بوضوح المطلب، لأنّ المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوي العقول والإدراك، لأنّهم كانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعاياتهم المغرضة الكاذبة.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام: «**وَايْمُ اللّهِ**

---

١. أورد ابن الأثير في المجلد الثاني، ص ٣١٥ عن الكامل شرحاً مفصلاً لقضية نباح كلاب الحوأب وصراخ عائشة وعزمها على الرجوع وشهادة البعض على كذب من قال تلك المنطقة هي الحوأب.

٢. تاريخ دمشق ١٧١/٣٢، طبعه بيروت؛ كنز العمال ٢١١/١٢ طبعة حيدر آباد (مطابق نقل أحقاق الحق ١٦٦/١٧).

لَأُفْرِطَنَّ[١] لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ[٢]، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ[٣]، وَلَا يَعُبُّونَ[٤] بَعْدَهُ فِي حَسْيٍ![٥]».

كما أوردنا في الخطبة العاشرة التي تشبه إلى حدّ بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام ﷺ من هذه العبارة أنّي سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعاً خطيراً مملوءاً بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأخمد الفتنة في مهدها حتى لا يفكروا قط في العودة إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد في التواريخ فانّ الإمام ﷺ حقق عملياً ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشة مخذولة إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتتوا في البلاد.

---

١. «افرطن»: من مادة «افراط» تعني في الأصل تجاوز الحدّ، لكنّها وردت أحياناً بمعنى القيام بالحدّ الأكثر من العمل وقد جاءت بهذا المعنى في العبارة، يعني سأملأ حوض المعركة للخصوم (طبعاً المراد حوض المنية) بحيث لا يبقى أمامهم من سبيل للنجاة، وبناءاً على هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو يمكن للإمام ﷺ أن يفرط في شيء.

٢. «ماتح»: من مادة «متح» على وزن مدح بمعنى سحب الماء من الأعلى كسحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعليه فالماتح تطلق على من يطرح الدلو بواسطة الحبل في البئر ويسحب منه الماء.

٣. «ريّ»: اسم مصدري ومصدره «ري» على وزن حي والباء للمعية.

٤. «يعبون»: من مادة «عبّ» بمعنى شرب الماء أو مائع أخر دون تنفس.

٥. «حسي»: السهل من الأرض الذي يتجمع فيه الماء.

القسم الثاني

و منه: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ ٱلْعُوذِ ٱلْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: ٱلْبَيْعَةَ ٱلْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا. ٱللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا ٱلنَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا ٱلْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا. وَلَقَدِ ٱسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ، وَٱسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ ٱلْوِقَاعِ، فَغَمَطَا ٱلنِّعْمَةَ، وَرَدَّا ٱلْعَافِيَةَ».

الشرح والتفسير

إصراركم على البيعة

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى مسألة البيعة فقال: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ ٱلْعُوذِ[1] ٱلْمَطَافِيلِ[2] عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: ٱلْبَيْعَةَ ٱلْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعَتْكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا».

فقد أشار الإمام ﷺ في الواقع إلى هذه الحقيقة وهي أنّ عليكم أن تقارنوا بي الزاعمين الطالبة بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعة للوصول إلى الخلافة والحكومة وهم طلحة والزبير، فهما لا يتورعان عن أية حيلة وخدعة من أجل تحقيق أهدافهما، أمّا أنا فقد أريتكم منذ البداية أنّي لا أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتم عليَّ البيعة، ولأن قبلت بيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤولية التي تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارات الإمام ﷺ

---

١. «العوذ»: بضم العين جمع «عائذ» الإنسان أو الحيوان الذي يلد حديثاً.

٢. «المطافيل»: جمع «مطفل» على وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعليه فالعوذ والمطافيل قريبة المعنى وهما هنا للتأكيد.

تكشف مدى شوق الناس للبيعة، وفي ذات الوقت مدى زهد الإمام ﷺ بها.

ثم إتّجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى الله الظلمة الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقة دماء الأبرياء وسيلة لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم: «**اَللّٰهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا**[1] **اَلنَّاسَ عَلَيَّ**».

ثم قال: «**فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا اَلْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا**»، والتفت إلى الناس قائلاً: «**وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا**[2] **قَبْلَ اَلْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ**[3] **بِهِمَا أَمَامَ اَلْوِقَاعِ**[4]**، فَغَمَطَا**[5] **اَلنِّعْمَةَ، وَرَدَّا اَلْعَافِيَةَ**»، لعل العبارة الأخيرة مواصلة شكوى الإمام ﷺ لله سبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس،، يبدو المعنى الثاني أنسب، على كل حال فانّ هذه العبارات تبيّن مدى سعي الإمام ﷺ لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثيري الفتن علّهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينية، فيعودا عن سبيل الغي، إلّا أنّ حبّ الخلافة والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام ﷺ ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالي حلّت عليهم لعنة الإمام ﷺ ففشلوا في تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمة وقتلوا بذلة وهوان.

❧❧

القاتل يطالب بالثأر

لا شك أنّ طلحة والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبة في كتابه «السياسة والإمامة» أنّ أهل الكوفة ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه في داره كان

---

١. «ألبا»: من مادة «تأليب» بمعنى الافساد وإثارة الناس.

٢. «استثبت»: من مادة «ثوب» على وزن صوم بمعنى رجوع الرميض إلى العافية ومفهوم العبارة أني أردت من طلحة والزبير الرجوع عن انحرافهما.

٣. «استأنيت»: من مادة «أناة» على وزن قناة بمعنى الصبر والانتظار ومفهوم الجملة أنّي كنت أنتظر تأثير اقتراحي عليهما فيعودا إلى رشدهما ويسلكا سبيل العافية والسلامة، لكن من المؤسف...

٤. «وقاع»: بمعنى الحرب وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المصدر وأخرى الجمع «وقيعة».

٥. «غمطا»: من مادة «غمط» على وزن غضب بمعنى استصغار الشيء وكفران النعمة والعبارة المذكورة إشارة إلى أنّ طلحة والزبير استخفا بما منحتهم من فرصة وكفرا بالنعمة.

طلحة ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أنّ عثمان لا يهتم لمحاصرتكم طالما يحمل إليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء[١]، كما ورد عن ابن أبي الحديد بشأن الزبير أنّه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث في دنيكم، فقالوا له: ابنك على باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابني قبله[٢]. فقد كان تصور طلحة العكس حين قتل عثمان وبايع الناس علياً عليه السلام فتغيّرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الأُمة مستعدة لبيعتهما على حدّ قول الكاتب المصري المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان[٣]، وكانت عائشة من الناقين على عثمان[٤]، إلّا أنّ هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبهم بعد بيعة الأُمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيرة هي هذه الانقلابات التي تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالي ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحة والزبير وقتلا في المعركة، وعادت عائشة تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعة الجمل وطيش عائشة ودور طلحة والزبير في المجلدات السابقة من هذا الشرح[٥].

ولكن ما ينبغي إضافته هنا أنّ اتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم في زواية حرجة، فمن جانب اعتبروا طلحة والزبير من الصحابة، كما يجرون عليهم نظرية عدالة الصحابة (طهارة وقدسية جميع صحابة النبي صلى الله عليه وآله)، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشرة المبشرة، تارة يزعمون أنّهم كانوا مجتهدين وإن أخطاؤا في اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجهنا أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمة ومن كل فرد، ذلك لأنّ الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدّي إلى تجاوز البديهيات العقلية والنصوص القرآنية، وتارة أخرى يزعمون أنّهم تابوا، وتوبتهم مقبولة عند الله، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدّي بسبعة عشر آلف شخص ثم تنسلخ مسؤولية هذه الدماء بمجرّد لقلقة اللسان بالقول استغفر الله؟! فهل أدّوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

---

١. السياسة والإمامة ٣٨/١.
٢. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٣٦/٩.
٣. في ظلال نهج البلاغة ٢٩٤/٢.
٤. الكامل لابن الأثير ٢٠٦/٣؛ تاريخ الطبري ٤٧٧/٣.
٥. ج ١ شرح الخطبة الثالثة عشرة، ج ٢ شرح الخطبة الثلاثون والحادية والثلاثون ج ٣، ص ٢٠٩ ـ ٣٠١.

هل عوضوا تلك الأموال التي ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحة والزبير وعائشة بخطأهم أمام الملأ العام؟

إنّ مثل هذا الدفاع العابث هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابة النبي الأكرم ﷺ إلى طائفتين، طائفة كانت صالحة على عهده وأخرى منافقة وطالحة، كما تقسم الطائفة الصالحة إلى فئتين، فئة واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانبت الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأنّ المراد من بشارة القرآن الكريم النبي الأكرم ﷺ بنجاة شخص أو أشخاص في ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنّهم ربّما غيروا مسيرتهم، فممكن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنّة، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

٭٭٭

الخطبة[1] ١٣٨

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

يومئ فيها إلى ذكر الملاحم

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام مرتبطة مع بعضها:

القسم الأول: إشارة إلى ولي من أولياء الله سبحانه ينطلق في عمله على أساس هداية القرآن، ويرى أغلب شرّاح نهج البلاغة أنّ ذلك الولي واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدي «عجلّ الله تعالى فرجه الشريف».

والقسم الثاني: إشارة إلى الأحداث الدامية التي يفرزها قيام ذلك الولي من أجل بسط العدل في ظلّ الحكومة الإلهيّة حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشارة إلى الحوادث دامية أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشارة إلى حكومة البعض من بني مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفياني الذي يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

---

١. سند الخطبة:
ورد في مصادر نهج البلاغة أنّه نقل جانباً من هذه الخطبة عن الآمدي في «غرر الحكم» وقال بالنظر إلى أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة اعتبروا القسم الأول إشارة إلى قيام الإمام المهدي عليه السلام فانّ ذلك يدل على أنّهم نقلوا الخطبة من مصدر آخر أشار إلى هذه القيام (مصادر نهج البلاغة ٣٠٢/٢) لكننا لا نعتقد بتوجيه هذا الاستنتاج، ولعلهم استنبطوا ذلك من خلال بعض القرائن الواردة في الخطبة.

القسم الأول

«يَعْطِفُ ٱلْهَوَى عَلَىٰ ٱلْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَىٰ ٱلْهَوَى، وَيَعْطِفُ ٱلرَّأْيَ عَلَىٰ ٱلْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ ٱلرَّأْيِ».

الشرح والتفسير

خصائص الإمام المهدي عليه السلام

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة تشير إلى الحوادث المستقبلة حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الأُولى عدّها أغلب شرّاح نهج البلاغة في الإمام المهدي عليه السلام، لأنّه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعة للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأي والفكر منقاداً للقرآن في الوقت الذي يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأي: «**يَعْطِفُ**[1] **ٱلْهَوَى عَلَىٰ ٱلْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَىٰ ٱلْهَوَى، وَيَعْطِفُ ٱلرَّأْيَ عَلَىٰ ٱلْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ ٱلرَّأْيِ**».

والسؤال هل للعبارتان مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أنّ العبارة الأُولى إشارة إلى الهداية العقلية والعبارة الثانية إلى الهداية القرآنية؟ يبدو المعنى الثاني أنسب، يعني في ذلك اليوم الذي يغيب فيه الناس منطق العقل والهداية بسبب عبادة الهوى فانّه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادة لهداية العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصي التفسير بالرأي حين يحاول ذوي الاطماع تطبيق النصوص القرآنية على ضوء تفسيرهم إيّاه حسب آرائهم

---

١. يعطف من مادة عطف على وزن فتح بمعنى الميل والرغبة أو الترغيب بشيء، وقد تستعمل أحياناً بصيغة المتعدي فتعني الترغيب، كما تتعدى أحياناً بحرف إلى فتعني الرغبة في شيء، وتتعدى أيضاً بحرف على فتعني الرجوع إلى الشيء وأخيراً تتعدى بحرف عن فتعني الانصراف عن الشيء.

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروعة، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفية على آيات القرآن من التفسير بالرأي، وإن زال هذان السبيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومة العدل الإلهي، ولعل جميع القضايا التي أصابت المسلمين منذ البداية لحدّ الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

٭٭٭

ذكر العلماء في بحث المعرفة أنّ الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً...﴾**[1].

وما أورع ما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطبة ١٠٩: «**وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ**»، والتفسير بالرأي وحمل الآيات القرآنية عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى في تحريف العبارات عن معناها الواقعي وإسقاط الوحي عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلامية هذا العمل بمنزلة الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابَ اللهِ فَقَد كَفَرَ**»[2]، ولمّا كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدي (أرواحنا فداه) فانّ الضمير في هذه العبارات يعود كما يعتقد شرّاح نهج البلاغة إلى الإمام المهدي عليه السلام.

٭٭٭

١. سورة الجاثية / ٢٣.
٢. بحار الانوار ١٩/١.

القسم الثاني

و منهَا: «حَتَّى تَقُومَ ٱلْحَرْبُ بِكُمْ عَلَىٰ سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا، حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِي غَدٍ -وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ- يَأْخُذُ ٱلْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَىٰ مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ ٱلْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ ٱلسِّيرَةِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ».

الشرح والتفسير

جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان

يمثل هذا القسم من الخطبة في الواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشارة إلى حوادث آخر الزمان يتعرض باديء الأمر فيها إلى المعارك الدموية المدمرة التي تثقل كاهل المجتمعات البشرية ويعمّ الظلم والجور كافة الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهي فينهي النزاعات والاقتتال ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ويوفر كافة مستلزمات الراحة والرفاه، فقال ﷺ بأنّ هذا الوضع سيتواصل: «**حَتَّى تَقُومَ ٱلْحَرْبُ بِكُمْ عَلَىٰ سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا**[1]»، ثم أشار إلى الانتصارات التي تتحقق في بداية الحرب والمرارة التي تختتم بها فقال: «**مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا**[2]، **حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً**[3] **عَاقِبَتُهَا**»، وكأنّ الحرب تنطوي على لبن حلو وفي نفس الوقت مسموم

---

١. «نواجذ»: جمع «ناجذ» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسّر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منها في العبارة.

٢. «أخلاف»: جمع «خلف» بالكسر بمعنى حلمة ضرع الناقة، كما وردت بمعنى حلمة ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاة.

٣. «علقم»: برعم شديد المرارة يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمة على كل شيء مرّ.

بحيث يجذب الأفرادِ المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون في نهاية الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكومة العدل الإلهي: «**أَلَا وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا**».

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبة المفعمة بالخير والبركة والتي تحصل بعد قيامه فقال: «**وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ[1] كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ**»، فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسة باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكومة أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنية وهذه الحكومة الشاملة.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسة والقيم المغيبة للقرآن والكريم والسنّة الشريفة، وهكذا تسير البشرية باتجاه التكامل على المستوى المادي والمعنوي، فالعقول تتم في ظلّ حكومة الإمام المهدي ﷺ، وتحيى القيم الإنسانية وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات في الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدي ﷺ فقد روي عن الإمام الباقر ﷺ أنّه قال: «**وتَظهرُ لَهُ الكُنوزُ ويَبلُغُ سُلطانُهُ المَشرِقَ والمَغرِبَ، وِيُظْهِرَهُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ فَلا يَبْقَىٰ عَلَى وَجهُ الأَرضِ خَرابٌ إلّا عُمِّرَ**»[2].

وقا في موضع آخر: «**يَملأُ اللهُ بِهِ الأَرضَ عَدلاً وَقِسطاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلماً وَجَوراً، فَيَفتَحُ اللهُ لَهُ شَرقَ الأرضِ وَغَربِهَا**»[3].

٭٭٭

1. «أفاليذ»: جمع «أفلاذ» وهذا جمع «فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقة، أو كبد كل إنسان أو حيوان: وفلذة تعني قطعة من الكبد، والمراد بها في هذه العبارة الأشياء النفيسة والكنوز والمعادن الثمينة في جوف الأرض.
2. شرح نهج البلاغة لعلامة الخوئي ٣٥٣/٨.
3. بحار الأنوار ٣٩٠/٥٢.

القسم الثالث

منهَا: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ،وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ ٱلضَّرُوسِ، وَفَرَشَ ٱلْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي ٱلْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ ٱلْجَوْلَةِ، عَظِيمَ ٱلصَّوْلَةِ. وَٱللّٰهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي ٱلْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذٰلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ إِلَىٰ ٱلْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالْزَمُوا ٱلسُّنَنَ ٱلْقَائِمَةَ، وَٱلْآثَارَ ٱلْبَيِّنَةَ، وَٱلْعَهْدَ ٱلْقَرِيبَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي ٱلنُّبُوَّةِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ».

الشرح والتفسير

خصائص ذلك الحاكم الدموي

أشار الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة إلى حاكم دموي وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلاً بالشام فيشهر سيفه ويستولي على جميع البلاد الإسلامية، ثم ذكر له تسع صفات، فقال: «**كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ**[1] **بِالشَّامِ،وَفَحَصَ**[2] **بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي**[3] **كُوفَانَ**[4]».

---

١. «نعق»: من مادة «نعق» على وزن كعب تعني في الأصل صوت الغراب أوالصوت الذي يخرج من الشاة حين يذودها الراعي وتشير هنا إلى زعيق الظالم في الشام.

٢. «فحص»: من مادة «فحص» على وزن بحث تعني في الأصل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.

٣. «ضواحي»: جمع «ضاحية» من مادة «ضحو» على وزن سهو بمعنى التعرض للشمس كما تطلق الضواحي على المناطق أطراف المدن.

٤. «كوفان»: اسم آخر للكوفة وتعني في الأصل تلال الرمل الحمراء الدائرية.

ثم قال: «فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ ٱلضَّرُوسِ[١]، وَفَرَشَ ٱلْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرَتْ[٢] فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي ٱلْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ ٱلْجَوْلَةِ[٣]، عَظِيمَ ٱلصَّوْلَةِ[٤]». ثم أقسم قائلاً: «وَٱللّٰهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ[٥] فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي ٱلْعَيْنِ».

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموي المقتدر والتي تكشف عن شخصه بصورة تامة تشير إلى أنّه يدك أهل الايمان دكاً بحيث لا يبق منهم إلّا القليل، فهو يكتم الأنفاس في الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولي على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أمّا من هو هذا الشخص الذي يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشرّاح نهج البلاغة، رأي يراه عبدالملك بن مروان خامس خلفاء بني أمية، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضي على مصعب بن الزبير الذي كان يحكم الكوفة، فاستولى على العراق والكوفة، ثم وجه جشياً بقيادة الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير فسيطر على مكة والمدينة، كما هدم جانباً من الكعبة بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبدالله بن الزبير.

والرأي الآخر أنّ ذلك الشخص هو السفياني الذي يسبق ظهور الإمام المهدي ﷺ حيث يظهر في الشام ويسفك الدماء ويدعو الناس إلى نفسه، وبالنظر إلى أنّ الأقسام السابقة من الخطبة بشأن ظهور الإمام المهدي ﷺ لذلك يبدو أنّ هذا القسم في الظهور أيضاً، والعبارات المذكورة إشارة إلى ظهور السفياني.

وقد ورد في الخبر عن حذيفة بن اليمان أنّ رسول الله ﷺ أشار إلى فتنة بين أهل الشرق والغرب فيخرج السفياني حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينة حتى

---

١. «ضروس»: من مادة «ضرس» بمعنى عض الشيء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقة السيئة الخلق التي تعض حالبها.

٢. «فغرت»: من مادة «فغر» على وزن فقر بمعنى فتح الفم، وهي هنا كناية عن الحرص في الاستيلاء على كل شيء، وافغر اسم فاعل من هذه المادة.

٣. «جولة»: من مادة «جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهي كناية عن السعي والجهد المتواصل.

٤. «الصولة»: من مادة «صول» على وزن قول بمعنى الحملة في الحرب أو القفز على شيء.

٥. «ليشردنكم»: من مادة «تشريد» بمعنى النفي والطرد والتفريق.

يصل بابل وبغداد، فيقتل أكثر من ثلاثة الاف وينتهك عرض أكثر من مئة إمرأة، ثم يتّجهون إلى الكوفة فيخربون أطرافها، ثم يعودن إلى الشام، فتظهر راية هدى في الكوفة وينطلق جيشها إلى جيش السفياني فيقتله ولا ينجو منه إلّا واحد يخبر عن الحادثة (وهكذا تخمد الفتنة).

قال المرحوم العلّامة المجلسي نقل أصحابنا هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ضمن أحاديث المهدي عليه السلام[1].

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبة لا ينسجم مع هذا التفسير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأنّ هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والتشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشدها وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحد كلمتها: «**فَلَا تَزَالُونَ كَذٰلِكَ، حَتَّى تَؤُوبَ[2] إِلَى ٱلْعَرَبِ عَوَازِبُ[3] أَحْلَامِهَا![4]**».

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكّام الظلم والجور، وإعادة الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام: «**فَالْزَمُوا ٱلسُّنَنَ ٱلْقَائِمَةَ، وَٱلْآثَارَ ٱلْبَيِّنَةَ، وَٱلْعَهْدَ ٱلْقَرِيبَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي ٱلنُّبُوَّةِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي[5] لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ**».

والمراد بالسنن القائمة ضروريات الإسلام وتعاليمه التي ينبغي أن تكون محور الأنشطة السياسية والاجتماعية والفردية في كل زمان، والمراد بالآثار البيّنة هي الأخبار والروايات التي ثبتت من الطرق المعتبرة والتي تختزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلامية، والمراد بالعهد القريب وصيّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بولاية علي عليه السلام، والمراد بالعبارة «واعلموا...» مراقبة الشيطان والحذر منه في الإتيان بالأمور المذكورة، وذلك لأنّ الشيطان يسهل طرقه ليصد الناس عن طاعة الله والأئمة المعصومين عليهم السلام والذي لا يخلو عادة من المصاعب، أمّا الأفراد الذين اعتبروا

---

١. بحار الانوار ٥٢/١٨٦ـ١٨٧ بتصرف.
٢. «يؤوب»: من مادة «أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.
٣. «عوازب»: جمع «عازبة» في الأصل من مادة «عزبة» من لا زوجة له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهذا هو المراد بها في العبارة.
٤. «أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.
٥. «يسني»: من مادة «سنو» تعني في لأصل ري الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.

القسم الأخير من الخطبة بشأن حكومة عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبارة هو أنّ اسقاط حكومة بني أمية ومجيىء حكومة بني العباس قد تمّ في ظلّ عقل العرب ودرايتها والعودة إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أنّ بني العباس قد واصلوا جنايات بني أمية ولم تكن حكومتهم أقلّ استبداداً من حكومة بني أمية، إلّا أن يقال بعقلائية سقوط بني أمية وشروع حركة بني العباس وإن انحرفوا في مواصلة الطريق.

الثاني: لم يكن ظهور بني العباس مباشرة بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بني أمية، إلّا أن يقال في جواب هذا الإشكال أنّ حكومة ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبة إشارة إلى خروج السفياني قبل قيام الإمام المهدي ﷺ قد فسّر العبارات المذكورة على أنّها بعد سفك الدماء الطائش في آخر الزمان والفساد الذي يحصل الناس مع خروج السفياني، حيث يطرح حجب الغفلة وتتم العقول وتستعد الناس لقبول حكومة المهدي ﷺ لابدّ في تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلامية والولاء للولاية، وقد مرّ علينا في الخطبة ١٠١ العبارات المشابهة لما ورد في هذه الخطبة، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومة عبدالملك.

ജ്ര

الخطبة ١٣٩ [1]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

في وقت الشُّورَى

نظرة إلى الخطبة

نعلم أنّ عمر حين أشرف على الموت عهد بتشكيل الشورى المؤلفة من ستة أفراد لتعيين الخليفة، كان أحدهم علياً عليه السلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسة، وكان الهدف واضحاً منذ البداية في إقصاء علي عليه السلام وتسلم عثمان لزمام الأمور بصفته الخليفة السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلك في الخطبة الشقشقية [2].

أمّا الإمام علي عليه السلام الذي كان ينظر لما هو أبعد من الشورى فقد خطب هذه الخطبة ليحذر أصحاب الشورى، وقد ذكر المرحوم السيد الرضي جانب منها.

---

١. سند الخطبة:
نقل هذه الخطبة الطبري في تاريخه في شرح حوادث عام ٢٣ هـ (عام قتل عمر) وقال ابن أبي الحديد هذا جزء من خطبة خطبها علي عليه السلام في أصحاب الشورى بعد وفاة عمر، وقد ورد في الكلمات القصار رقم ٢٢ «لنا حق...» وهو جزء من هذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة ٣٠٢/٢).
٢. نفحات الولاية ٢٤٤/١.

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي؛ عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ فِيهِ ٱلسُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ ٱلْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ ٱلضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ ٱلْجَهَالَةِ».

۞

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام في الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام ؏ إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلك بدافع الفخر ومدح النفس، بل ليمهد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثاني: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التي تستتبع خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمة التي يشهدها المجتمع الإسلامي في حالة عدم قبول مواعظه وإشراته.

فقد قال في القسم الأول: «**لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَىٰ دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ**».

فقد أشار في هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إنّ علياً ؏ هو أول منْ أسلم ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآخرى إلى سبقه في صلة الرحم، لأنّه وقف إلى جانب رسول الله ﷺ منذ إنبثاق الدعوة الإسلامية حتى وفاة النبي الأكرم ﷺ، وقد فدى رسول الله ﷺ بنفسه في المواطن الصعبة من قبيل مبيته على فراش النبي ﷺ واقعة أحد وأمثال ذلك، كما كان الأبرز في البر والخير والإحسان حتى نزلت

آيات من القرآن الكريم بشأن تصدّقه بالخاتم حين الركوع في الصلاة[١]، وتصدقه بالطعام على المسكين واليتيم والأسير[٢]، وتصدقه بدرهم في السر وآخر في العلانية، ودرهم في الليل وآخر في النهار[٣].

ثم قال بالاستناد إلى إذعان الجميع بالفضل فيما ذكر: «**فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي**»، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطير له عواقب وخيمة على المسلمين، وتطرق ﷺ إلى المصير الصعب الذي سيفرزه هذا الانتخاب فقال: «**عَسَىٰ أَنْ تَرَوْا هٰذَا ٱلْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْيَوْمِ تُنْتَضَىٰ[٤] فِيهِ ٱلسُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ ٱلْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ ٱلضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ ٱلْجَهَالَةِ**».

هناك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة في أنّ هذا الإخبار إشارة لحادثة قتل عثمان وشهر السيوف ونقض البيعة من قبل بعض الأفراد كطلحة والزبير وأمثالهما أم إشارة إلى تمرد الناكثين والقاسطين والمارقين (أصحاب الجمل وصفين والنهروان)، ولكن بالنظر إلى الظروف التي وردت فيها هذه الخطبة (حين تشكيل الشورى لانتخاب الخليفة الثالث)، يبدو المعنى الأول أقوى، وكما تكهن الإمام ﷺ فبمجرّد تسلم عثمان زمام الأمور حتى بدأ التبذير والبذخ في بيت مال المسلمين وحصل أقرباؤه وبطانته على المراكز الحساسة في البلد الإسلامي فتهافتوا على بيت المال ليفعلوا فيه ما شاؤوا، وهو الأمر الذي أثار غضب المسلمين فثاروا عليه وكان في مقدمة من ثار عليه طلحة والزبير، وقد تبعهم طائفة من الناس فحصل ما لم ينبغي أن يحصل، والحال لو لم تسود الشورى تلك العصبيات والملاحظات الشخصية وفوضت الخلافة لأهلها، لما وقعت تلك الحوادث المريرة ولا ما تبعها من نتائج، وذلك لأنّ جذور فتنة الناكثين والقاسطين والمارقين إنّما ترعرعت في ظلّ حوادث عصر عثمان.

٭٭٭

١. سورة المائدة / ٥٥.
٢. سورة الدهر / ٨.
٣. سورة البقرة / ٢٧٤.
٤. «تنتضي»: من مادة «نضو» و«نضي» على وزن نظم بمعنى سل السيف، أوالخروج من البيت وشحوب اللون وما شباه ذلك، والمراد بها في العبارة المعنى الأول.

جذور الفساد

ذكرنا في المجلد الأول من هذا الكتاب في شرحنا لخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية قصة الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتي شكّلها عمر وأدّت إلى انتخاب عثمان كخليفة والتي تمثل في الواقع مؤامرة ضد خلافة علي ﷺ، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلى التواريخ المعتبرة والذي نود إضافته هنا إلى ما ذكرناه هو أننا لو أنعمنا النظر في تركيب هذه الشورى وحوادثها السلبية وسنرى أنّ أغلب مشاكل المسلمين قد أفرزتها تلك الشورى، ومن ذلك أيضاً حكومة عثمان واستيلاء بني أمية وبني مروان على المناصب الحساسة للبلاد الإسلامية وبيت المال المسلمين وحكومة معاوية ومعارك الجمل وصفين والنهروان ومن ثم حكومة يزيد وأمثال عبدالملك.

والجدير بالذكر هنا ما أورده شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد حيث قال بخصوص الشورى: «**إنّ ذلك كان سبب كل فتنة وقعت وتقع إلى تنقضي الدنيا**»[1].

فهذه الشورى هي التي أدّت بالتالي إلى تغييب القيم الإسلامية وأحيت السنن الجاهلية والمعايير المادية والدنيوية وشادت المجتمع الإسلامي وقطعت ألسن دعاة الحق ونفت وشردت أبي ذر وأثارات النقمة ضد عمّار بن ياسر حين اعترض على نتيجة الشورى فلم يكترث أحد لما كان يقول: فقد استوى أُوالئك العتاة على عرش الغرور والحمية فعاثوا الفساد في أوساط المجتمعات الإسلامية، الفساد في الحكومة والفساد في الإيمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفية بالتعامل الدقيق مع هذه الأحداث لاتضحت فداحة الخسارة التي مني بها المسلمون من جراء الشورى.

٨٠٠٣

١. شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ١١/١١.

الخطبة[1] ١٤٠

وَمِنْ كَلامٍ لهُ عليه السلام

في النهي عن غيبة الناس

نظرة إلى الخطبة

نهى الإمام عليه السلام الناس في هذه الخطبة عن اغتياب بعضهم البعض الآخر وقد عـزز ذلك بعدّة أدلة، فقد ذكر باديء الأمر وجوب الشكر على من تطهر من العيوب والذنوب، ويتمثل شكرها بتجنب الغيبة واقتفاء عيوب الآخرين، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغـيبة نـفسه لإكتشف فيها العيوب التي يحاول العثور عليها في الآخرين، فكيف والحال كذلك يسعىٰ لذم الآخرين على عيوبهم وهم يحملونها، وأخيراً لعل الإنسان يقارف الصغيرة وهو يظن بأنّه لم يرتكب الكبيرة من الذنوب فيخوض في غيبة الآخرين، وتقصي معايبهم وهذا بحدّ ذاته من الكبائر، أضف إلى ذلك فما يدري من يغتاب الآخرين أنّ الله قد غفر لهم بينما لم يغفر لمن فتش عن عيوب الآخرين، وزبدة الكلام فانّ الله قد أغلق الطريق على أصحاب الغيبة والباحثين عن عيوب الناس ليطهر المجتمع الإسلامي من هذه الفاحشة.

---

١. سند الخطبة:
ذكر الآمدي في كتاب «غرر الحكم» مع فارق وما ورد في نهج البلاغة وهذا يدل على أنّ مصدره غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٣١٤/٢)، كما وردت هذه الخطبة في بعض المصادر كجزء من خطبة تعرف بالديباج (كتاب تمام نهج البلاغة).

القسم الأول

«وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ ٱلْعِصْمَةِ وَٱلْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلسَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ ٱلذُّنُوبِ وَٱلْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ ٱلشُّكْرُ هُوَ ٱلْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَٱلْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ ٱلَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلذَّنْبِ ٱلَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذٰلِكَ ٱلذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى ٱللّٰهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَأَيْمُ ٱللّٰهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي ٱلصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ [لَجُرأَتُه] عَلَىٰ عَيْبِ ٱلنَّاسِ أَكْبَرُ!».

الشرح والتفسير

التغابي عن عيوب الذات

إهتم الإسلام بقضية الغيبة وإقتفاء عيوب الآخرين على أنّها من المشاكل الاجتماعية الكبرى التي تشيع روح التشاؤم والنفاق وتفكك عرى الثقفة وتقضي على روح الاتحاد والأخوة، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الكبيرة، وقد قسم الإمام عليه السلام الناس إلى خمس طوائف، الطائفة الأُولى التي شملتها عناية الله سبحانه فلم تتلوث بالذنوب المعاصي، فقال بشأن هذه الطائفة: **«وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ ٱلْعِصْمَةِ وَٱلْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي ٱلسَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ ٱلذُّنُوبِ وَٱلْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ ٱلشُّكْرُ هُوَ ٱلْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَٱلْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»**، فأي نعمة أعظم من أن يتلطف الله تعالى على إنسان ويصونه من مقارفة الذنب، وأي شكر أعظم من شكر هذه النعمة الإلهيّة الكبرى بأن يحفظ لسانه من إغتياب الآخرين واقتفاء عيوبهم.

الطائفة الثانية التي تحمل العيوب وتذم الآخرين على مثلها، أي إنّ حب الذات لا يدعهم

يرون عيوبهم بينا دقيق هو في متابعة عيوب الآخرين، وقد قال فيها علي عليه السلام: «**فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ ٱلَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلذَّنْبِ ٱلَّذِي عَابَهُ بِهِ!**».

إشارة إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب أن يتحلى بقبسات من صفات الله سبحانه، فالله ستار العيوب، فينبغي عليه أن يستر عيوب الآخرين.

الطائفة الثالثة التي ترتكب الذنوب وتذم الآخرين على مثلها، والحال من الطبيعي أن يكون الإنسان أحرص على نفسه من الآخرين، فكيف لهذا الإنسان بالتفكير في عيوب الآخرين دون أن يهم بإصلاح نفسه وعيوبه، أي عقل يسوّل للإنسان نسيانه لذاته بصورة كلية ويلقي بها في مستنقع البؤس والشقاء فيخوض في ذنوب الآخرين، ناهيك عن أنّ الدافع من ذلك هو الفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام عليه السلام: «**وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ!**».

الطائفة الرابعة من تذم الآخرين على ذنوب لم ترتكبها، لكنّها إرتكبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غير مكترث لها، فقال الإمام عليه السلام بشأنها: «**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذٰلِكَ ٱلذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَىٰ ٱللّٰهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ**».

الطائفة الخامسة التي ربّما لم ترتكب تلك الذنوب التي تذم الآخرين على إرتكابها، حيث لم تصدر منها سوى بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام عليه السلام بشأنها: «**وَٱيْمُ ٱللّٰهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي ٱلصَّغِيرِ، لَجَرَاءَتُهُ [لَجُرْأَتُه] عَلَىٰ عَيْبِ ٱلنَّاسِ أَكْبَرُ!**».

وهكذا أغلق الإمام عليه السلام جميع الطرق على اُولئك الذين يقتفون عيوب الآخرين ويسلبهم أية ذريعة بعد أن يذكرهم بكافة العواقب الوخيمة التي تترتب على شنائع أعمالهم، ليبتعدوا عن وساوس الشياطين ويطلعهم على أهوائهم وقبح أفعالهم ليجسدها أمام أنظارهم.

القسم الثاني

«يَا عَبْدَاللّٰهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ ٱلشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

اقتفاء العيوب جحود عظيم

أكد الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة تلك المبادىء التي أوردها في القسم السابق وقد حذر كافة العباد من تتبع عيوب الآخرين وغيبتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدلة المنطقية فقال ﷺ: **«يَا عَبْدَاللّٰهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ».**

في إشارة إلى أنّ ذنب الآخرين قد يغفر بسبب التوبة أو شفاعة المعصومين ﷺ أو على أساس القيام بأعمال الخير بينما يؤاخذ هذا الإنسان بذنبه مهما كان صغيراً بفعل الغرور والغفلة، وعليه كيف يسمح العاصي لنفسه بذم الآخرين على معايبهم ومثالبهم فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه فقال: **«فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ»**، فالله هو المنزه من العيوب والطاهر من الذنب هوالمعصوم، وعليه فلا يجيزنا العقل بأن نصوب سهام غيبتنا وذمّنا للآخرين ونحن غارقون في العيوب والذنوب.

ثم إختتم الخطبة بالإشارة إلى المطلب الذي ذكره في القسم الأول من الخطبة ولكن بعبارة أخرى فقال ﷺ: **«وَلْيَكُنِ ٱلشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ».**

فو فرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينة، فذلك نعمة كبيرة تستحق شكر الله والشعور بلطف الله تعالى وعنايته، والحق إنّ مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذي يسلبه فرصة البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهذا المعلم الرباني يعتمد مختلف الأدلة المنطقية بغية القضاء على هذه الرذيلة القبيحة المتمثلة بالغيبة وتحري عيوب الآخرين، كما يغلق جميع الطرق على أصحاب الحجج والذرائع.

٭٭٭

الغيبة والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانية

الغيبة تعني إفشاء عيوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أنّ هذه الظاهرة شائعة في أغلب المجتمعات البشرية، ومما لا شك فيه أنّها تختزن مختلف الآثار السلبية على المستوى الأخلاقي وكذلك الاجتماعي، وذلك لأنّ السند الرصين لكل مواطن في المجتمع هو ماء وجهه، والغيبة تزيل ماء الوجه وتطعن في شخصية الفرد وتقضي على روح الثقة وبين أفراد المجتمع والتالي تلعب دوراً سلبياً في إضعاف التعاون الاجتماعي، ومن هنا عدّها الشارع وحداة من أقبح وأشنع الذنوب حتى شبهها القرآن الكريم بأكل لحم الأخ الميت، وقال رسول الله ﷺ في خطبة حجّة الوداع وهي خطبة حساسة: **«أيُّها النَّاسُ إنَّ دِماءَكُم وَأموالَكُم وَأعراضَكُم عَلَيكُم حَرامٌ كَحُرمَةِ يومِكُم هذا في شَهرِكُم هذا في بَلَدِكُم هذا إنَّ اللهَ حَرَّمَ الغِيبَةَ كَمَا حَرَّمَ المَالَ والدَّمَ»**[١].

وكفى بقباحة الغيبة ما ورد في الحديث القدسي أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران: **«مَنْ ماتَ تَائِباً مِنْ الغِيبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدخُلُ الجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِراً عَلَيها فَهُوَ أولُ مَنْ يَدخُلُ النَّارَ»**[٢].

وقال رسول الله ﷺ بهذا الشأن: **«مَنْ مَشىٰ في غِيبَةِ أخِيهِ وَكَشَفَ عَورَتَهُ كَانَ أولُ خُطوةٍ خَطَاهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ»**[٣].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦٢/٩.
٢. جامع السعادات ٣٠٢/٣؛ بحار الانوار ٢٥٧/٧٢.
٣. جامع السعادات / ٣٠٣.

كما قال ﷺ: «**مَا عَمَرَ مَجلِسٌ بِالغِيبَةِ إلّا خَرِبَ بِالدِّينِ**»[١].

وكثيرة هي الأحاديث التي وردت بهذا الخصوص والتي لا يسع المجال ذكرها، ونكتفي هنا بذكر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: ونحيل من أراد المزيد إلى المجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن في مبحث الغيبة وكتاب جامع السعادات المجلد الثاني والمجلد الثامن من وسائل الشيعة، حيث قال: «**الغِيبَةُ حَرامٌ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ وَأَنَّها تَأكُلُ الحَسَناتِ كَمَا تَأكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»[٢].

والحقيقة هي أنّ الإسلام يرى حرمة ماء وجه المسلم والتي تعدل حرمة دمه، وقد اقترن العرض بالدم في الروايات والأخبار الإسلامية وبناءاً على ما تقدم فانّ من إغتاب شخصاً آخر وانتهك حرمته الاجتماعية وأراق ماء وجهه فكأنه قتله، ومن هنا تواترت الروايات التي أكدّت الثمن الباهض الذي سيدفعه صاحب الغيبة يوم القيامة وما سيؤخذ منه حسنات بسبب ما اقترف من غيبة فتضاف إلى حسنات من إغتابه، فانّ لم يكن له من حسنات، أُخذت من سيئات من إغتابه وأُضيفت إلى سيئات صاحب الغيبة.

نعم، الغيبة حق الناس على غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهذا فلو إلتفت المؤمنون إلى تبعات السيئة لهذه الذنوب والتي صورتها الروايات الإسلامية لما سعى لمقارفة هذه السيئة، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للإتيان بعدّة أدلة منطقية لبيان الآثار السيئة لهذه السيئة وقد حذر الجميع من مقارفتها، ويبدو بحث موضوع الغيبة من الأبحاث الواسعة كما صورها علماء الأخلاق ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور بهذا الشأن:

١ ـ لابدّ أن نتّجه قبل كل شيء نحو دوافع الغيبة وذلك لأنّه يمكن الاستدلال على قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغيبة غالباً هوالحسد وحبّ الذات والغرور والتكبر والحقد والرياء وحبّ الدنيا والثأر والسخرية والاستهزاء بالآخرين وما شاكل ذلك، حيث يحاول الأفراد الملوثون بهذه الأمراض بلوغ أهدافهم السيئة عن طريق الغيبة وبالنظر إلى أنّ الداوفع المذكورة جميعاً من الكبائر فانّه يمكن الوقوف على قباحة الغيبة.

---

١. بحار الانوار ٢٥٩/٧٥.

٢. جامع السعادات ٣٠٥/٣.

٢ ـ إنّ أهم أرصدة المجتمع وسنده الأصل والذي من شأنه توحيد الأفراد ويدفعهم باتّجاه الأهداف النبيلة هو الثقة المتبادلة وممّا لا يشك فيه أنّ أولى النتائج السيئة للغيبة تتمثل بالقضاء على هذا السند، وذلك لأنّ كل فرد في الغالب ينطوي على عيب أو عيوب فانّ بقيت خفية لن تنعكس سلباً على الآخرين ويبقى التفاؤل ثقة الأفراد بعضهم بالبعض الآخر قائمة، أمّا كشف هذه العيوب عن طريق تحريها والبحث عنها وممارسة الغيبة وذم كل فرد آخر إنّما يحيل المجتمع إلى جهنم محرقة بحيث يسيىء كل فرد الظن بالآخر وينفر منه، بالنتيجة تزعزع النظام العام للمجتمع وتعرّضه للقلق والاضطراب.

وبعبارة أخرى كما يتهدد الأمن العام للمجتمع بفعل نهب الأموال وسفك دماء الأبرياء، فانّ سلب ماء الوجه وسرقته من الآخرين عن عن طريق الغيبة إنّما يشيع تلك الفوضى ويقضي على الأمن، وذلك لأنّه كما ورد في الرواية المذكورة عن رسول الله ﷺ فانّ التعرض لحيثيات الآخرين بمثابة التعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يمكن كتمان الغيبة عادة وتفشي على صاحبها فتشتعل فيهم نيران الحقد والكراهية، الحقد الذي يمهد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبة أحد أسباب إشاعة الفحشاء وعامل مهم من عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تجعل الآثم جريئاً في ذنوبه، لأنّ المذنب الآثم يراعي عادة جانب الاحتياط إن بقيت معصيته خفية مستورة، فان هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

٣ ـ الغيبة حق الناس، والمسألة المهمّة بشأن الغيبة أنّها ليست معصية بين الإنسان وربّه تبارك وتعالى يمكن غسلها بماء الندم فتحصل التوبة، بل كما لا يمكن تلافي الخسائر الناجمة عن سفك الماء وغصب الأموال دون القصاص أو الدية ودفع التعويضات المالية، فانّه لا يمكن غفران إزالة ماء وجه الآخرين دون تعويض، سيّما إن توفي من أغتيب ولم يكن هناك من سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامة، يعني حين لا يكون هنالك من سبيل للتعويض سوى إضافة حسناته إلى ذلك الفرد أو تقبل سيئاته، وهذه بحدّ ذاته مصيبة كبرى.

٤ ـ إنّ أفضل علاج للغيبة يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أميرالمؤمنين علي ﷺ في الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقة وهى إن رأى الإنسان عيباً ومنقصة في شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر الله، الشكر الذي يصده عن تحري عيوب الآخرين، وإن قارف معصية وقد إرتكبها مثله، فلا ينبغي له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن إرتكب الصغيرة وجب عليه أن يفكر في أنّ كبيرة غيره ربّما غفرت ولم يغفر له، بل جرأته على تقصي عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلك فكما أنّ الأمراض البدنية لن تعالج بصورة تامة ما لم تزول جذورها فانّ الأمراض الروحية كالغيبة لابدّ من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبة في مقارفتها.

٥ ـ استماع الغيبة أحد الذنوب ـ كما سيأتي شرح ذلك في الخطبة القادمة ـ ذلك لأنّ السامع شارك في إراقة ماء وجه مسلم فهو شريك في الجرم، سيّما إن إستمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبة.

٦ ـ لا يقتصر سبيل التوبة عن الغيبة على الاستغفار، بل لابدّ من محاولة تعويض من أغتيب وأُريق من ماء وجهه إلى جانبي الندم والتوسل إلى الله تعالى في طلب العفو الرحمة، فان أمكن مناشدته إبراء الذمّة، وأمّا إن تعذّر ذلك بسبب ترتب مفسدة، أو توفى الشخص، فلابدّ من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاعة الغيبة وصعوبة التخلص من تبعاتها، ومن أراد المزيد بشأن المسائل المتعلقة بالغيبة ومن ذلك موارد الاستثناء عليه مراجعة الجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن[1].

---

١. للمؤلف.

الخطبة ١٤١ [1]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ

في النهي عن سماع الغيبة وفي الفرق بين الحقّ والباطل

نظرة إلى الخطبة

يبدو أنّ هذا الكلام مواصلة للخطبة السابقة، فقد ورد الحديث في الخطبة السابقة عن نهي الناس عن الغيبة، وجرى الكلام هنا في النهي عن سماع الغيبة، كما أكد ﷺ عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصية الآخرين، فالخطأ جائز حتى على الصادقين.

وإختتم ﷺ الخطبة بوصيّة الجميع بعدم تصديق الشيء ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس في السماع.

---

١. سند الخطبة:
نقلها القاضي القضاعي في كتاب «دستور معالم الحكم»، كما نقل جزءاً منها علي بن هذيل في كتاب «عين الأدب والسياسة»، وكذلك المرحوم الصدوق في «الخصال» وابن عبد ربه في «العقد الفريد». (مصادر نهج البلاغة ٣١٥/٢)

«أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ ٱلرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي ٱلرَّامِي، وَتُخْطِئُ ٱلسِّهَامُ، وَيُحِيلُ [يُحيك] ٱلْكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فَسُئِلَ، ﷺ، عَنْ مَعْنَى قولِهِ هٰذَا، فجمع أَصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: ٱلْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَٱلْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!».

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق الباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضي، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أنّ الهدف من الخطبتين واحد هو حفظ ماء الوجه وإشاعة أجواء الثقة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السيئة للغيبة وتحري العيوب.

فقد بيّن الإمام ﷺ في الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادىء ذي بدء: «**أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ**[1] **طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ ٱلرِّجَالِ**».

فالواقع هو أنّ الإمام ﷺ قد أبطل بهذه العبارة القصيرة ومن خلال عدّة طرق الآثار

---

١. «سداد»: بمعنى الصحيح من الكلام والعمل وتستعمل هذه المفردة كمصدر واسم مصدر، ويبدو أنّها قريبة من مادة سد بمعنى الجدار المحكم الذي يقام ضد السيول وما شابه ذلك، لأنّ للكلام الحق استحكام خاص.

السيئة للغيبة في المستمع، وأول تلك الطرق ما ورد في العبارة المذكورة، لانّ الإنسان إن عرف أحداً بحسن السيرة والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفة، لأنّ الموارد المشكوكة غالباً ما تحمل على الموارد المعلومة وعلى حدّ التعبير المشهور: «**الظَّنُّ يَلحَقُ الشَّيءَ بِالأَعَمِّ الأَغلَبِ**»، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يعني قبولنا لغيبة الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقة، بل الهدف مضاعفة التأكيد بالنسبة للأفراد من ذوي السوابق الحسنة، بحيث لا ينبغي التصديق مطلقاً بما يقال بشأن أُولئك.

ثم أشار الإمام ﷺ إلى نقطة أخرى وهي لو فرضنا أنّ المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنّه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا ينبغي تصديق المقابل بكل سهولة في ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقة الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي ٱلرَّامِي، وَتُخْطِئُ ٱلسِّهَامُ**»، أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام ﷺ: «**وَيُحِيلُ**[1] **[يُحيك] ٱلْكَلامُ، وَبَاطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ**[2]**، وَٱللّٰهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ**»، في إشارة إلى أنّ أغلب الناس لا يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغي قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطلة التي تنسب إلى الأفراد دون تريث.

ثم أشار ﷺ إلى نقطة مهمّة أخريس فقال: **أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ**».

وفي هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين: «**عَنْ مَعْنَى قولِهِ هٰذَا، فجمع أصابِعَهُ وَوَضعهَا بين أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثمَّ قَالَ: اَلْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَٱلْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!**».

فالعبارة في الواقع إشارة إلى الشائعات التي تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا أساس لها، وقد قال ﷺ لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على السؤال الذي

---

١. «يحيل»: من مادة «إحالة» كل تغير أو حركة تخرج عن الحق والاستقامة وتحيل إلى الانحراف والاعوجاج.

٢. «يبور»: من مادة «بوار» تعني في الأصل شدّة كساد الشيء، وحيث يبعث ذلك على الفساد حسبما ورد في المثل كسد حيا فسد فقد اطلقت هذه المفردة على الفساد ومن ثم الهلكة.

أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة ومفاده: إنّ الآيات القرآنية والوحي السماوي وسنّة النبي الأكرم ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم ببطلانها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقاة والأحاديث المتواترة والمستفيضة التي وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفي والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام: «**أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً**»[1].

وزبدة الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأنّ العين قد تخطىء أحياناً، وليس كل كما يسمعه باطل، وذلك لأنّ المتكلم قد يكون فرداً عادلاً وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أمّا الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هذا هو أنسب التفاسير للعبارة المذكورة، بينما أورد البعض من شرّاح نهج البلاغة تفسيراً آخر خلاصته أنّ العبارة: «ليس بين الحق والباطل إلّا أربع أصابع» إشارة إلى العيوب التي تقال في حق الأفراد، أغلب هذه العيوب ناشيء من سوء الظن وعدم التحقيق والحسد، والحقد والكراهية وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكذب والباطل في هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأنّ العيوب الفلانية في الشخص الفلاني إن رآها بعينه.

درس أخلاقي رفيع

لو وضع الناس نصب أعينهم واستحضروا على الدوام وفي كل مكان عبارة الإمام عليه السلام ليس بين الحق ولباطل إلّا أربع أصابع وعملوا بها في حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بدل سوء الظن والثقة والاعتماد بدل عدمها والمحبّة بدل البغض والكراهية، وسوف تبهت الإشاعات ولا يكون لها ذلك الصدى والتأثير وبالتالي سوف لن يبلغ أصحابها

١. بحار الانوار ٧٢/١٩٦.

ما يرومونه من أهداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أنّ الشائعات في الوقت الحاضر قد جاوزت الأفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألقت بظلالها الوخيمة على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفلة عن الفارق بين الحق والباطل التي أشير إليها في كلام الإمام عليه السلام، وإننا لنلمس الثمن الباهظ الذي يدفعه العالم بسبب عدم التزامه بهذا الأمر.

٭٭٭

الخطبة (١٤٢)[١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

المعروف في غير أهله

نظرة إلى الخطبة

تدور هذه الخطبة حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبية للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثاني: الموارد المؤهلة لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخرة.

---

١. سند الخطبة:
ذكرها المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» (مصادر نهج البلاغة ٣٠٢/٢)، والمرحوم الشيخ المفيد والشيخ الطوسي في الأمالي وابن قتيبة في كتاب «الإمامة والسياسة»، والجدير بالذكر أنّه يستفاد من بعض المصادر المذكورة مثل كتب الكافي أنّ هذه الخطبة هي استمرار للخطبة ١٢٦ (مصادر نهج البلاغة ٢٨٢/٢ بتصرف).

القسم الأول

«وَلَيْسَ لِوَاضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ ٱلْحَظِّ فِيمَا أَتَىٰ إِلاَّ مَحْمَدَةُ ٱللِّئَامِ، وَثَنَاءُ ٱلْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ ٱلْجُهَّالِ، مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ ٱللّٰهِ بَخِيلٌ!

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ ٱللّٰهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ ٱلْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ ٱلضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ ٱلْأَسِيرَ وَٱلْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ ٱلْفَقِيرَ وَٱلْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَىٰ ٱلْحُقُوقِ وَٱلنَّوَائِبِ، ٱبْتِغَاءَ ٱلثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ ٱلْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ ٱلدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ ٱلْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ».

الشرح والتفسير

المعروف في موضعه

كما ورد سابقاً هذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبرة جزء من الخطبة رقم ١٢٦، والتي اعترض فيها بعض الجهّال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس في العطاء من بيت المال المسلمين، فكلّموه لم لا تزيد في عطاء أشراف القبائل ليطروه ويثنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أمّا الإمام عليه السلام فقد وبّخهم في هذه الخطبة في أنّ البذل والعطاء في غير موضعه لا يوجب غضب الله وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبية حتى في الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام: «**وَلَيْسَ لِوَاضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ ٱلْحَظِّ فِيمَا أَتَىٰ إِلاَّ مَحْمَدَةُ**[1] **ٱللِّئَامِ، وَثَنَاءُ ٱلْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ ٱلْجُهَّالِ**».

---

١. «محمدة»: بمعنى الحمد والثناء وهو ضد الذم.

أضف إلى ذلك فانّ هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرّد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لذلك المدح ولاثناء، هذا في الوقت الذي يكون فيه بخيلاً عن البذل في سبيل الله تعالى: «**مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: مَا أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ اللهِ بَخِيلٌ!**».

وقد جربنا كلام الإمام ﷺ مراراً في حياتنا والذاكرة البشرية تحتفظ بالكثير من ذلك طيلة التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع وقد أغدقوها على المتملقين من الأشرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بالمرّة عن معاناة المحرومين وآلام المساكين، فان دارت عليهم الدوائر وتنكرت لهم الدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عند هذا الحدّ، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سارعوا للتمرد عليهم وأعدوا أنفسهم للإنسجام مع من يخلفونهم من الحكّام، وهذه هي عاقبة من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق بركب النفعيين.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ أنّه قال: «**مَنْ طَلَبَ مَحامِدَ النَّاسِ بِمعاصِي اللهِ عادَ حـامِدُهُ مِنهُم ذامّاً**»[١]. وعن المفضل عن الامام الصادق ﷺ أنّه قال: «**إذا أَرَدتَ أَنْ تَعلَمَ إِلى خَيرٍ يَصيرُ الرَّجُلُ أم إِلى شرٍّ؟ أُنظُر إِلىٰ أَينَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ؟ فَإنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِندَ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ يَصِيرُ إِلى خَيرٍ وَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعرُوفَهُ عِندَ غَيرِ أَهلِهِ فاعلَم أَنَّهُ لَيسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**»[٢].

---

١. بحار الانوار ١٧٨/٧٤.
٢. منهاج البراعة ٤٣٩/٧.

القسم الثاني

«فَمَنْ آتَاهُ ٱللّٰهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ ٱلْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ ٱلضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ ٱلْأَسِيرَ وَٱلْعَانِيَ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ ٱلْفَقِيرَ وَٱلْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَىٰ ٱلْحُقُوقِ وَٱلنَّوَائِبِ، ٱبْتِغَاءَ ٱلثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ ٱلدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ ٱلْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ».

الشرح والتفسير

عرض الإمام ﷺ بالذم الشديد لصانع المعروف في غير أهله كما ورد ذلك في المقطع الأول من الخطبة والذي كان يمثل الجانب السلبي من القضية، أمّا في هذا القسم فقد تعرض إلى جانبها الإيجابي فبيّن الموارد الطبيعة التي تستحق الانفاق والبذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً في العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال: «**فَمَنْ آتَاهُ ٱللّٰهُ مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ ٱلْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ ٱلضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ ٱلْأَسِيرَ وَٱلْعَانِيَ**[1]**، وَلْيُعْطِ مِنْهُ ٱلْفَقِيرَ وَٱلْغَارِمَ**[2]».

فقد أشار الإمام ﷺ إلى ستة موارد للانفاق والبذل وفي مقدمتها القرابة من ذوي الحاجة، فما لا شك فيه أنّ هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد في الخبر المروي عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فقال ﷺ: عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**»[3]، ثم ركز الإمام على قضية الضيافة وهي الأمر الذي يؤدّي إلى إشاعة أجواء المودّة

---

١. «العاني»: من ماد «عنى» بمعنى الشدّة والتعب، وعدها البعض من شرّاح نهج البلاغة مرادفة لأسير، ويبدو أنّ معناها واسع يشمل كل إنسان يعيش التعب والإرهاق.

٢. «الغارم»: من مادة «غرامة» من عليه الديون.

٣. الكافي ٤/١٠.

والمحبّة بين الأصدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطد العلاقات العاطفية والاجتماعية وقد أولى الإسلام هذه المسألة الإنسانية والأخلاقية أهميّة قصوى حتى ورد في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه: «**أَتُحِبُّ إِخوانَكَ يا حُسَين؟ قُلتُ: نَعم، قالَ: تَنفَعُ فُقَرائَهُم؟ قُلتُ: نَعم، قالَ: إِنَّهُ يَحُقُّ عَلَيكَ أَنْ تُحِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللهَ، أَمَا وَاللهِ لا تَنْفَعُ مِنهُم حَتّىٰ تُحِبَّهُ، أَتدعُوهُم إِلى مَنزِلِكَ؟ قُلتُ: نَعم، مَا أَكُلُ إِلّا وَمَعِي مِنهُم الرَّجُلانِ والثَّلاثَة وَالأَقَلُّ وَالأَكثَرُ، فَقالَ أَبُو عَبدِاللهِ عليه السلام: أَمَ إِنَّ فَضْلَهُم عَلَيكَ أَعظَمُ مِنْ فَضلِكَ عَلَيهِم، فَقُلتُ: فِداكَ أُطعِمُهُم طَعامِي وَأُوطِئُهُم رَحلِي وَيَكُونُ عَلَيَّ فَضلُهُم عَلَيَّ أَعظَمُ؟ قَالَ: نَعم، إِنَّهُم إِذا دَخَلُوا مَنزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغفِرَتِكَ وَمَغفِرَةِ عِيالِكَ، وإِذا خَرَجُوا مِنْ مَنزِلِكَ خَرَجوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيالِكَ**»[1].

ولمّا كان دفع الحقوق الواجبة والمستحبة وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال: «**وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَىٰ ٱلْحُقُوقِ وَٱلنَّوَائِبِ**[2]**، ٱبْتِغَاءَ ٱلثَّوَابِ**».

وبناءاً على هذا فالتعبير بالحقوق يشمل الواجبة والمستحبة، والنوائب جمع نائبة والحادثة الأليمة، وتشير هنا إلى جميع الأمور التي تتضمن الخسارة المالية، سواء كان من جانب ظلم الظلمة وحكّام الجور، أو الحوادث غير المتوقعة التي تصيب الإنسان طيلة حياته.

والعبارة «**ابتغاء الثواب**» إشارة إلى أنّ الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه في الموارد المذكورة لابدّ أن يكون لله تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختتم كلامه بالإشارة إلى الآثار العظيمة لهذا البذل فقال عليه السلام: «**فَإِنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ ٱلْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ ٱلدُّنْيَا، وَدَرْكُ فَضَائِلِ ٱلْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ**»، فالحقّ أنّ البذل في الموارد الستة المذكورة يؤدّي إلى حسن سمعة الإنسان في المجتمع، كما يوجب فوزه في الحياة الآخرة، وأفضل شاهد على ذلك ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ جَادَ سَادَ**»[3]، وقد أصبحت هذه العبارة مثل يضرب لتأكيد المعنى المذكور، وكذلك ما روي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال:

---

١. المصدر السابق ٢/٤٠١، ح٨.

٢. «النوائب»: جمع «النائبة» تعني الحوادث الأليمة التي تصيب الإنسان، ولكن فسّرها بعض أرباب اللغة بمطلق الحوادث سواء المطلوبة منها أو غير مطلوبة.

٣. كشف الغمة ٢/٢٤٢.

«**وَأَحسن إلىٰ مَنْ شِئتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ**»[١]، بل يؤيد ذلك ما نلمسه في حياتنا اليومية، وهذا على مستوى الدنيا.

أمّا من حيث الآخرة فانّ البذل من أهم أسباب النجاة ولاسيّما إعانة المحتاجين، فقد قال الإمام الصادق ؑ: «**أَوَّلُ مَنْ يَدخُلُ الجَنَّةَ المَعرُوفُ**»[٢].

والتعبير بـ«**فوزاً**» بصيغة النكرة يفيد حقيقة في أنّ هذا البذل وإن كان قليلاً فانّه يوجب عزّة الدنيا ورفعة الآخرة.

---

١. الإرشاد ٣٠٣/١؛ وبحار الانوار ٤٣٣/٧٤.

٢. ميزان الحكمة، ١٢٦١١.

الخطبة ١٤٣ [1]

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

في الاستسقاء

وفيه تنبيه العباد على وجوب استغاثة رحمة الله إذا حبس عنهم رحمة المطر

نظرة إلى الخطبة

الخطبة كما ورد في عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلى الله سبحانه في طلب نزول الأمطار، وهى الخطبة الثانية من خطب نهج البلاغة في باب الاستسقاء (الخطبة الأُولى رقم ١٥٥)، وتتألف هذه الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يشير إلى هذه الحقيقة في أنّ السماء والأرض مطيعة لأمر الله فان شاء أخرج بركاتهما إلى الناس، وبناءاً على هذا فانّ الذي ينبغي التوجه إلى قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثاني: ناظر إلى هذا المطلب وهو أنّ أعمال السوء والذنوب والمعاصي تؤدّي إلى إغلاق أبواب الخير والبركة بأمر الله تبارك وتعالى، ومفاتحها الاستغفار من الذنوب والإنابة إلى الله تعالى.

---

١. سند الخطبة:
وردت هذه الخطبة حسب تصريح صاحب مصادر نهج البلاغة في كتاب «أعلام النبوة» للديلمي عن الإمام الصادق عليه السلام عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام، وفي «النهاية» لابن الأثير في مادة بطن بمناسبة المفردة بطنان التي وردت في آخر الخطبة. (مصادر نهج البلاغة ٣١٩/٢) كما وردت في بحار الانوار، ج٨٨ عن «أعلام» النبوة للديلمي، لكن لم يتضح على وجه الدقة في أي قرن عاش الديلمي مؤلف الكتاب.

القسم الثالث: يعرض إلى رفع الإمام ﷺ يده بالتوسل إلى الله سبحانه في مراسم صلاة الاستسقاء حيث يطلب نزول المطر بعبارات دقيقة رائعة عميقة المعنى، والأمطار المفعمة بالبركة والتي تروي الأرض وتسقي الأشجار والثمار وتسرّ الناس.

القسم الأول

«أَلَا وَإِنَّ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي تُقِلُّكُمْ [تحملكم]، وَٱلسَّمَاءَ ٱلَّتِي تُظِلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَىٰ حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا».

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التي وردت بصورة موسعة في الكتب الفقهية الوصيّة بصلاة الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على الله تبارك وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً في الإتيان بهذه الصلاة ونزول الرحمة الإلهيّة، ويبدو أنّ الإمام ﷺ قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبة المليئة بدروس التوحيد والتهذيب والتربية، فقد قال ﷺ باديء الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى الله تعالى الذى يمثل مصدر الخير والبركة والعطاء: **«أَلَا وَإِنَّ ٱلْأَرْضَ ٱلَّتِي تُقِلُّكُمْ**[1] **[تحملكم]، وَٱلسَّمَاءَ ٱلَّتِي تُظِلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ».**

ثم قال ﷺ: **«وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلٰكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمَتَا عَلَىٰ حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا»،** والتعبير بالسماء إشارة إلى الغيوم المحلية، لأنّ العرب تستعمل السماء بمعنى الجانب العلوي،

---

١. «تقلكم»: من مادة «اقلال» بمعنى حمل الشيء وأخذه، ولمّا كان الإنسان يعيش على الأرض فكأنّها تحمله على أكتافها، وقد وردت تحملكم بدلاً من تقلكم في أغلب شروح نهج البلاغة والتي تفيد نفس المعنى.

فتطلقه أحياناً على موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحياناً أخرى على موضع الشمس والقمر، وأخيراً على موضع السحب والغيوم وحتى الموضع الذي يضم الغصون المرتفعة للأشجار، ومن ذلك الآية القرآنية: ﴿**أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[1].

٭٭٭

درس في التوحيد والأخلاق

هذا الكلام يشتمل على درس مهم في التوحيد والأخلاق، فقد قال الإمام عليه السلام من جانب أنّ الله أمر السماء والأرض بمنافعكم، وكأنّ السماء أشبه بالأب والأرض بالأُم اللذان يتحدان لتزويد الإنسان بما يحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومركب دون التمييز بين المطيع والعاصي والمؤمن والكافر، لأنّهما مظهر رحمانية الحق.

الطريف في الأمر أنّ المائدة الإلهيّة لا تنضب فالأجيال متعاقبة في الذهاب والإياب وهما قائمان على خدمتهم، ومن جانب آخر فانّ السماء والأرض ورغم تقديمها لكل هذه الخدمات فهما لا يرجوان أي عوض من الإنسان، بل يخدمان بكل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان يشدّه إلى خدمة الآخرين بعيداً عن الأجر والثواب.

٭٭٭

---

١. سورة ابراهيم / ٢٤.

القسم الثاني

«إِنَّ ٱللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسَّيِّئَةِ بِنَقْصِ ٱلثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ ٱلْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ ٱلْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ ٱلِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ ٱلرِّزْقِ وَرَحْمَةِ ٱلْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) فَرَحِمَ ٱللَّهُ ٱمْرَءاً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَٱسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!».

الشرح والتفسير

الذنب وقلّة البركة

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى نقطة مهمّة من أجل إعداد الناس لصلاة الاستسقاء فقال: «**إِنَّ ٱللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ ٱلْأَعْمَالِ ٱلسَّيِّئَةِ بِنَقْصِ ٱلثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ ٱلْبَرَكَاتِ، وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ ٱلْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ**».

ثم إعتمد الإمام ﷺ بعد ذلك أسلوب الطبيب الماهر الذي يصف العلاج بعد تشخيص المرض فقال: «**وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ سُبْحَانَهُ ٱلِاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ**[1] **ٱلرِّزْقِ وَرَحْمَةِ ٱلْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ**

---

١. «درور»: من مادة «درّ» على وزن جرّ بمعنى تقاطر الحليب من الثدي، ثم استعملت في المطر وأمثاله، و«درور الرزق» بمعنى نزول الرزق من الله تعالى.

بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾».

وأخيراً يخلص إلى نتيجة: «**فَرَحِمَ اللّٰهُ امْرءاً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ**[١] **خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!**». نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهيّة بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنصوح.

والجدير بالذكر أنّ الإمام ﷺ وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدلّ بأنسب آية قرآنية، وهي الآية التي وردت على لسان نبي الله نوح ﷺ حين خاطب قومه باستغفار الله والتوبة إليه والذي يؤدّي إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفة الأرصدة المادية والمعنوية وتقوية الوجود الإنساني وتحسين الأوضاع الاقتصادية والزراعية.

والعبارة **وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!**»، إشارة إلى أنّ التوبة لا تقتصر على بلوغ الرفاه المادي في الحياة الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاة في الآخرة، وذلك لأنّ الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحة الموت، كان مفتاح النجاة بيده في الدار الآخرة.

❧

جانب من فلسفة البلاء

لقد قيل الكثير في فلسفة البلاء، والذي يستفاد من أغلب الآيات القرآنية والروايات الإسلامية هو أنّ الذنوب والمعاصي تشكل أحد علل الآفات والحوادث الصعبة في الحياة البشرية، حيث تحدث عدّة آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذي يترتب عليه، على سبيل المثال فانّ الزنا وعدم العفة وشرب الخمر والتطفيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدّي إلى سلب نعمة معينة كما أشار إلى ذلك الحديث النبوي الشريف، من ذلك روى أبي حمزة عن الإمام الباقر أنّه قال: «**وَجَدنا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إذا ظَهَرَ الزِّنا مِنْ بَعدِي كَثُرَ مَوتُ**

---

١. «استقال»: من مادة «إستقالة» بمعنى معونة من وقع على الأرض للقيام، ثم اطلقت على فسخ المعاملة أو طلب العفو على الذنب.

الفُجأة، وإذا وإذا طَفَفَ المِكيالَ وَالمَيزانَ أَخَذَهُم اللهُ بِالسِّنِينِ وَالنَّقصِ إذا مَنَعُوا الزَّكاةَ مَنَعَتْ الأرضُ بَرَكَتَها مِنَ الزَّرعِ وَالثِّمارِ وَالمَعادِنِ كُلُّها، إذا جارُوا فِي الأحكامِ تَعاوَنُوا عَلَى الظُّلمِ والعُدوانِ، إذا نَقَضُوا العَهدَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِم عَدُوَّهُم، إذا قَطَعُوا الأرحامَ جُعِلَتْ الأَموالُ فِي أَيدِي الأشرارِ إذا لَم يَأمرُوا بالمَعرُوفِ وَلم يَنهُوا عَنِ المُنكَرِ وَلَم يَتَّبِعُوا الأخيارَ مِن أَهلِ بَيتِي سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِم شِرارَهمُ فَيَدعُوا خِيارَهُم فَلا يُستَجابُ لَهُم»[1]

والدليل العقلي يؤكد هذا الأمر على أنّ هناك إرتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض الله يتوقف على الاستعداد والاستحقاق، فان قارف الإنسان الذنب وأفضح عن عدم استعداده كان من الطبيعي أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهي.

أضف إلى ذلك فالذي يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هناك هدفاً مهمّاً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادتهم إلى الله تبارك وتعالى، حتى صرّحت بعض الآيات بأنّ البلاء يعمّ الأقوام المشركة حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل أمامهم لقبول الدعوة ومن ذلك الآية ٩٤ من سورة الأعراف التي قالت: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾**.

وهكذا فانّ القضية التربوية تشكل أحد الأهداف المهمّة للبلاء والحوداث الأليمة، على كل حال فانّ مفتاح الأبواب الموصدة وإخماد جذوة أمواج البلاء إنّما يكمن في العودة إلى اللّه سبحانه كما صرّح بذلك القرآن الكريم إذ قال: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[2].

وهكذا سائر الآيات، وورد في الخبر أنّ شخصاً قال لأميرالمؤمنين علي عليه السلام لقد أسرفت في المعاصي فادعوا الله أن يغفر لي، قال علي عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قلّة الماء، فادعوا الله أن يرسل علينا المطر، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قلّة ثمار البستان فنصحه عليه السلام بالاستغفار، وشكى

---

١. الكافي ٢/٣٧٤، ح٢.
٢. سورة الأعراف / ٩٦.

السادس من جفاف الآبار وعيون الماء فقال له ﷺ عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التي تختلف عن غيره، فقال ﷺ أولم تسمع إلى القرآن والآيات ١٠، ١١، ١٢ من سورة نوح إذ قال: **﴿وَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾**[1].

---

١. تفسير نهج الصادقين ١٩/١٠ (بتصرف، وقد ورد هذا الحديث بصورة مختصرة عن الإمام المجتبى عليه السلام) (مجمع البيان ٣٦١/١٠).

القسم الثالث

«اَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ اَلْأَسْتَارِ وَاَلْأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ اَلْبَهَائِمِ وَاَلْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ. اَللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ اَلْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ اَلسُّفَهَاءُ مِنَّا) يَا أَرْحَمَ اَلرَّاحِمِينَ. اَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا اَلْمَضَايِقُ اَلْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا اَلْمَقَاحِطُ اَلْمُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا اَلْمَطَالِبُ اَلْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ عَلَيْنَا اَلْفِتَنُ [اَلمحن] اَلْمُسْتَصْعِبَةُ. اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا [تناقشنا] بِأَعْمَالِنَا. اَللَّهُمَّ اُنْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً [نافعة] مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةَ اَلْحَيَا، كَثِيرَةَ اَلْمُجْتَنَىٰ، تُرْوِي بِهَا اَلْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ اَلْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ اَلْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ اَلْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ»».

الشرح والتفسير

إلهي أمطرنا مطراً مباركاً

بعد أن مهد الإمام ﷺ قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنابة إلى الله سبحانه في هذه الخطبة التي خطبها بمناسبة صلاة الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمة، كما فرض عدّة مطالب من خلال خمس عبارات يستهلها بالقول اللّهم، فقد قال بادىء ذي بدء: «**اَللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ اَلْأَسْتَارِ**

وَٱلْأَكْنَانِ[١]**، وَبَعْدَ عَجِيجِ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ**».

إشارة إلى أنّ خروجنا من المنازل وقدومنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاة الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فان كنّا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشية والأطفال العطاشى، وليس لنا من دافع في هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرّحت الروايات الإسلامية الواردة في باب آداب صلاة الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهيم العطاشى إلى الصحراء، بل وردت الوصيّة بتفريق الأطفال عن اُمهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على الله تبارك وتعالى[٢].

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر في إثارة عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذي يؤدّي إلى استجابة الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف الله ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسي فقال ﷺ: «**ٱللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ ٱلْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ**[٣]**، وَلَا تُؤَاخِذْنَا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ**»، أي وإن فعل فريق من الجهّال ما يوجب قطع الفيض الإلهي عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقة لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوك ورحمتك، ولما كان شرط استجابة الدعاء في إذعان الفرد بعجزه وأنّ الله على كل شيء قدير فقد قال ﷺ: «**ٱللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا ٱلْمَضَايِقُ ٱلْوَعْرَةُ**[٤]**، وَأَجَاءَتْنَا**[٥] **ٱلْمَقَاحِطُ**[٦] **ٱلْمُجْدِبَةُ**[٧]**، وَأَعْيَتْنَا ٱلْمَطَالِبُ ٱلْمُتَعَسِّرَةُ، وَتَلَاحَمَتْ**[٨] **عَلَيْنَا ٱلْفِتَنُ [ٱلمحن] ٱلْمُسْتَصْعِبَةُ**».

---

١. «الأكنان»: جمع «كن» على وزن «جن» بمعنى واسطة الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأكنان على الغيران.
٢. راجع الخطبة ١٥٥ بشأن آداب صلاة الاستسقاء.
٣. «السنين»: جمع «سنة» وإن استعملت مع مفردة الهلكة أو الأخذ عنت الجدب والقحط.
٤. «الوعرة»: بالتسكين كناية عن صعوبة الحياة.
٥. «أجاءت»: من مادة «مجيىء» من باب إفعال بمعنى ألجأته.
٦. «مقاحط»: جمع «مقحطة» من مادة «قحط» بمعنى سنين الجدب.
٧. «مجدبة»: من مادة «جدب» على وزن جعل قلّة النعمة، وعليه المجدبة تطلق على السنين التي يعاني فيها الناس من الشدّة في أرزاقهم.
٨ «تلاحمت»: من مادة «تلاحم» بمعنى الاتصال.

فقد أشار الإمام ﷺ بهذه العبارات إلى مسألة وهي إننا إن عددنا حاجاتنا ومشاكلنا الواحدة بعد الأخرى لا على أساس إنّك لا تعلمها، بل لأنّك تحبّ أن يطرح العباد مشاكلهم بألسنتهم ويقرون بعجزهم وسعة حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشترك في أخرى وهي: صعوبات الحياة والجدب والقحط و الرغبات التي يتعذر نيلها في الشرائط العادية، وأخيراً الفتن الصعبة والمزعجة، وهي المشاكل التي لا يرجى حلّها إلّا من الله تبارك وتعالى، ورد في حديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ حَاجَتَكَ وَما تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَن تَبُثَّ إِلَيهِ الحَوائِجَ**»[1].

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه فقال: «**اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلاَّ تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلاَ تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ**[2]**، وَلاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلاَ تُقَايِسَنَا [تناقشنا] بِأَعْمَالِنَا**».

فليس هنالك من سبيل للنجاة إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن يحملنا على لطفك وكرمك وألّا نرجع خائبين من بابك، والطبع فانّ هذه الأدعية وإن اشتملت على الطلبات المؤكدة من الله تبارك وتعالى، فهي تنطوي على الدروس العميقة المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعة أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعية التي تردنا عن المعصومين ﷺ على هذه الأمور التربوية.

وأخيراً طرح طلبه النهائي قائلاً: «**اَللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَاقِعَةً [نافعة] مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً**[3]**، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا**[4]**، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَىٰ، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ**[5]**، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ»**»[6].

٨٠٠٣

١. في ظلال نهج البلاغة ٣١٩/٢.
٢. «واجم»: من مادة «وجم» على وزن نجم من اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.
٣. «معشبة»: من مادة «عشب» على وزن شرف نمو النبات.
٤. «الحيا»: بمعنى المطر ووفرة النعمة.
٥. «القيعان»: جمع «قاع وقاعة» الأرض السهلة الواسعة كما تطلق أحياناً على الأرض التي تتجمع فيها المياه.
٦. والجدير بالذكر قد نزلت الآن (حين كتابتي لهذه السطور في العاشر من رمضان عام ١٤٢٣ هـ) أمطار مفعمة بالبركة والخير بعد جفاف طويل، ويبدو أنّ هذا المطر ينطوي إن شاء الله تعالى على جميع الصفات التي ذكرها الإمام ﷺ في هذه الخطبة.

سل الله كل شيء

تحدثنا باسهاب في ذيل الخطبة ١٥٥ عن صلاة الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا في الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام ﷺ الصفات المذكورة في المطر حين استغاثته بالله سبحانه في نزوله (حيث ذكر في هذه الخطبة تسع صفات وفي الخطبة السابقة عشرين صفة) والحال الله عليم بكل هذه الصفات ولا داعي من شرحها؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلى أنّ شرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من الله تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضرورة سؤال الناس من الله عزّ اسمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأنّ هذه الأدعية تفيد مدى حاجة الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس لله سبحانه، ومن جانب أخر لابدّ أن يعلموا كم هو حيوي المطر النافع وأي بركات وخيرات فيه.

٨٠٧٣

الخطبة[1] ١٤٤

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ ﷺ

مبعث الرسل

نظرة إلى الخطبة

تحدث الإمام ﷺ في هذه الخطبة عن ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: الذي بيّن فيه بعض الأمورالمهمّة بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.

المحور الثاني: الذي تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت ﷺ وأفضليتهم على من سواهم.

المحور الثالث: الذي يتضمن إشارات عميقة المعنى إلى نهج الضالين وعاقبة أمرهم

---

١. سند الخطبة:
أورد الآمدي جانباً من هذه الخطبة في كتابه «غرر الحكم» وفيها إضافات لما في نهج البلاغة مما يدلّ على أنّه استقاها من مصدر أخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ٣٢٢/٢).

القسم الأول

«بَعَثَ ٱللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ ٱلْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ ٱلْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ ٱلصِّدْقِ إِلَىٰ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ. أَلَا إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ كَشَفَ ٱلْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلٰكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» فَيَكُونَ ٱلثَّوَابُ جَزَاءً، وَٱلْعِقَابُ بَوَاءً».

الشرح والتفسير

فلسفة الإمتحان الإلهي

يعتقد جمع من شرّاح نهج البلاغة أنّ دافع الإمام ﷺ من هذه الخطبة بيان الرد القاطع على المغرضين الذين ينكرون فضائل الإمام ﷺ، والطبع فانّ جانباً من الخطبة قد عالج هذا الأمر، وإن إشتملت سائر الأقسام على إبعاد كلية.

وعلى كل حال فقد أشار الإمام ﷺ في المقطع الأول من هذه الخطبة إلى أمرين: هما فلسفة بعثة الأنبياء وفلسفة الامتحان الإلهي، فقال ﷺ: «**بَعَثَ ٱللَّهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ، لِئَلَّا تَجِبَ ٱلْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ ٱلْإِعْذَارِ**[1] **إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ ٱلصِّدْقِ إِلَىٰ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ**».

فهذه العبارة تشير إلى نقطة مهمّة وردت كراراً في الآيات القرآنية وهى عدم مؤاخذة الله سبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهيه سبحانه عن طريق الوحي، فقد جاء

---

١. «الاعذار»: مصدر باب إفعال من مادة «عذر» بمعنى إتمام الحجة.

في الآية ١٥ و١٦ من سورة الاسراء: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾**، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد في هذه الخطبة والآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل. فالحجة تتم على الإنسان من خلال العقل الذي يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول في الإجابة عن هذا السؤال صحيح أنّ هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادة الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذة العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التي تعين عن طريق الوحي.

ومن هنا تتضح عدم الحاجة للإجابة التي ذكرها بعض شرّاح نهج البلاغة حيث صرّحوا بأنّ هذه الآية في حكم العموم الذي يخصص في المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إنّ الله تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحي سوى في المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام في مطلب آخر في إطار مواصلة لكلامه والذي يتمثل بفلسفة الإمتحان الإلهي فقال: «**أَلَا إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً؛ لَا أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلٰكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً» فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً**[1]».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسألة مهمّة حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبة لله بالشكل الذي تعارف على العباد. فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإبهام، لمعرفة الأشياء و التعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهادة والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهي هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسألة استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابة الفرد أو معاقبته على ما يضمره من نيّات حسنة أو سيئة، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها النيّات، وهذا ما بيّنه

---

١. «بواء»: تعني في الأصل العودة والنزول ثم أطلقت على العقوبة المستمرة والمتواصلة وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.

الإمام عليه السلام في إحدى قصار كلمات في تفسير للآية القرآنية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾[١]، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد... «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ»[٢].

فلم يرد في الفقه ولا في دستور أي بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نيّة القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيّته الحسنة في الخدمة، وإن شمل مثل هؤلاء الأفراد بنوع من التكريم تفضلاً بسبب تلك النيّات وقد تظافرت الروايات التي صرّحت بجزاء الخير تفضلاً منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنّه لايعاقب على نيّة الشرّ كما ورد في الحديث: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ... وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَم تُكتَبْ عَلَيهِ»[٣].

---

١. سورة الانفال / ٢٨.
٢. نهج البلاغة، قصار الكلمات ٩٣.
٣. وسائل الشيعة ١/٣٦، من أبواب مقدمة العبادات، الباب ٦، ح٦.

القسم الثاني

«أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا اللّٰهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هٰذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ».

الشرح والتفسير

منزلة الولاية

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في الرد على التخرصات في مجال العلم والمعرفة الإسلامية تجاه أهل البيت عليهم السلام ويقدمهم على أنّهم أعلم من غيرهم بكذبهم، وأنّ الساسة المحترفين آنذاك كانوا يثيرون تلك التخرصات بهدف النيل من مسألة خلافة وإمامة أهل البيت عليهم السلام فقال: «أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا».

وأضاف عليه السلام أينهم أُولئك ليروا كيف رفعنا الله تعالى وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرمهم وأدخلنا في سعة رحمته وأخرجهم منها: «أَنْ رَفَعَنَا اللّٰهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ».

في إشارة إلى أنّ إتّباع أهل البيت عليهم السلام في معارفهم والإسلامية ووقوفهم على القرآن والوحي والسنّة النبوية الشريفة ليس بالشيء الخفي على أحد، فهم كهف الأُمة الذي كان يلوذ به حتى الخلفاء في ما يعترضهم من مشاكل وصعوبات، وهذا من البديهيات التي لا يختلف عليها إثنان، وأمّا أُولئك الذين تدفعهم القضايا السياسية والحب والبغض الناشيء من العلاقات المادية بانكار هذه الحقيقة فإنّما يفضحون أنفسهم.

ثم قال عليه السلام: «**بِنَا يُسْتَعْطَى اَلْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى اَلْعَمَى**»، والشواهد التاريخية المستفيضة والأحاديث النبوية القطعية إنّما تؤيد هذا الكلام، وهذا ما سنتعرض له في البحث القادم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى الحديث النبوي الشريف بشأن اقتصار الإمام على قريش وبني هاشم فقال: «**إِنَّ اَلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هٰذَا اَلْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَىٰ سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ اَلْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ**».

فالإمام بإشارته إلى الحديث النبوي المعروف: «**إِنَّ اَلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ**»، ومن ثم حصرها في بني هاشم أوضح بأنّ أدعياء الخلافة من غير بني هاشم لا يستحقون هذا المقام ولابدّ من التحري عن بني هاشم في كل زمان للعثور على الإمام الحق.

٨٠٠٣

قبسات من علم علي عليه السلام

لقد عمد تجّار السياسة بهدف نيل أهدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أوضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصحابة الأفضلية على علي عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه في التفسير والذي كان يفخر بذلك هو ابن عباس[١]، وزيد بن ثابت في العلم بأحكام الميراث وأبي بن كعب في القراءة، ولم ينسبوا للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حديثاً بهذا الشأن، في حين تظافرت مصادر الفريقين (الشيعة والسنّة) التي تؤكد أعلميّة علي عليه السلام على سائر الصحابة قاطبة بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

١ ـ حديث الثقلين وهو من أشهر الأحاديث التي روتها مصادر العامّة ـ وقد استشهدنا به سابقاً[٢] ـ بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترقون عنه والكل يعلم بأنّ القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

---

١. نقل الدكتور الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» عن ابن عباس: «مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ القُرآنِ إِلَّا مِنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ» ج ١، ص ٨٩ كما روي عن ابن عباس أنه قال: «وَمَا عِلْمِي وَعِلْمُ أَصحَابِ مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ عَلِيٍّ إِلَّا كَقَطرَةٍ فِي سَبعَةِ أَبحُرٍ» (الغدير ٤٥/٢ في شرح ديوان حسان).

٢. ذكرنا أسناد حديث ثقلين في نفحات القرآن ٦٢/٩ ـ ٧١.

٢ ـ الحديث المعروف «**أقضاكُم عليّاً**»[1]، هو الشاهد الآخر على هذا الأمر، وذلك لأنّ القضاء واصدار الأحكام الإسلامية يتطلب إحاطة علمية بأصول الإسلام وفروعه، ومن كان الأعلم كان هو الأقضى.

٣ ـ الحديث المروي عن علي عليه السلام أنّه قال: «**عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ أَلفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلفَ بَابٍ**»[2]، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الأمّة من يماثله في العلم والمعرفة وذلك لأنّ هذا الحديث لم يرد في شخص سواه.

٤ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير الآية: «﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[3] **إنّما هو علي**»[4].

لابدّ من الإلتفات هنا إلى أنّه طبق الآية ٤٠ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا: ﴿**الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ...**﴾، من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدرة من لديه علم بكل الكتاب.

٥ ـ الكلام المشهور لعلي عليه السلام حين قال: «**سَلُونِي قَبلَ أَنْ تَفقِدُونِي**» والذي صرّح كبار علماء العامّة أنّ شخصاً غير علي عليه السلام لم يقل ذلك إلّا افتضح[5].

٦ ـ العارفون بتاريخ الإسلام في عصر الخلفاء يعلمون أنّ عليّاً عليه السلام كان الكهف العلمي الحصين للأمة حتى قال الخليفة الثاني كراراً ومراراً: «**لولا علي لهلك عمر**»، وقال في عبارة أُخرى: «**اللّهمّ لا تُبقِنِي لِمعضلَةٍ لَيسَ لَها ابن أَبِي طالبٍ**»، وقال: «**لا أَبقَانِي اللهُ بِأَرضٍ لَستَ فِيها (يا) أَبا الحَسن**»[6].

وهذا المطلب على درجة من الوضوح حتى أصبح المثل يضرب به بين الناس، فكلما

---

١. روى هذا الحديث جمع من حفاظ العامّة كابن عبد البر في «الاستيعاب»، والقاضي في «الموقف»، وابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»، وابن طلحة الشافعي في «مطالب السئول»، (الغدير ٦٩/٣، وابن عساكر في (التاريخ المختصر لدمشق ٣٠١/١٧).

٢. ورد هذا الحديث في كنزل العمال ١١٤/١٣، ح ٣٦٣٧٢.

٣. سورة الرعد / ٤٣.

٤. انظرو مصادر هذا الحديث في كتب العامّة في إحقاق الحق ٢٨٠/٣، كما وردت روايات بهذا الخصوص في شواهد التنزيل للحسكاني ٣٠٧/١ ـ ٣١٠.

٥. ذكرنا شرح هذا الموضوع في المجلد الرابع من هذا الكتاب ذيل الخطبة ٩٣.

٦. المرحوم العلّامة الأميني أورد هذه العبارات بمصادر دقيقة من كتب العامّة (الغدير ٩٧/٣) تحت عنوان آراء الصحابة بعلي عليه السلام.

عصيت قضية على أحد ولم يكن هنالك من يحلّها قالوا: «**قَضِيةٌ وَلا أَبَا حَسَنٍ لَها**»[١].

رواية أنّ الأئمّة من قريش

نشير في الخطبة إلى هذه النقطة وهي أنّ الأئمّة من قريش ومن بني هاشم وليس للآخرين صلاحية الخلافة والإمامة وينسجم هذا الكلام مع عدّة روايات التي وردت في أشهر مصادر العامّة ومنها:

١ـروي عن جابر بن سمرة في صحيح مسلم أنّه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزالُ الإسلامُ عَزيزاً إلى إثني عَشَرَ خَلِيفة ـثُم قال كلمة لم أفهمها ـفقلتُ لأبِي مَا قَالَ؟ قال: فقال: كُلُّهُم مِن قُرَيش**»[٢]، وقد وردت هذه الروايات بعبارات مختلفة.

والجدير بالذكر إننا نقرأ في أحد طرق هذا الحديث في صحيح مسلم أنّ جابراً قال في ذيل الحديث «**فَقَالَ ﷺ كَلِمةً أَصَمنِيها النَّاسُ فَقُلتُ لأَبِي مَا قَالَ؟ قَالَ: كُلُّهُم مِن قُرَيشٍ**»، كما ورد عنه ﷺ أنّه قال: «**لا يَزالُ الدِّينُ قَائِماً حَتّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَو يَكُونَ عَلَيكُم إثنا عَشَرَ خَلِيفَةً كَلُّهُم مِن قُرَيشٍ**».

٢ـجاء في صحيح البخاري عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**يَكُونُ إثني عَشَرَ أَمِيراً فَقَالَ كَلِمَةً لَم أسمَعها فقَالَ: أَبِي أَنَه قَالَ: كَلُّهُم مِن قُرَيشٍ**»[٣].

٣ـوورد مثل هذا المضمون في صحيح الترمذي مع اختلاف طفيف وقال فيه: «**هذا حديثٌ حسَنٌ صَحيحٌ**»[٤].

٤ـكما ورد نفس هذا المضمون في صحيح أبي داود ويفيد تعبير الحديث أنّ النبي ﷺ قاله في جماعة، حيث جاء في الخبر أنّ النبي ﷺ حين قال: «**لا يَزالُ الإسلامُ عَزِيزاً إلى إثني عَشَرَ خَلِيفةٍ كَبَّرَ النَّاسُ بِأعلَىٰ أصواتِهِم**»[٥].

---

١. التفسير والمفسرون ٨٩/١.
٢. صحيح مسلم ١٤٥٣/٣؛ طبع بيروت دار التراث العربي.
٣. صحيح البخاري ١٠١/٣، جزء ٩، طبع دار الجيل بيروت.
٤. صحيح الترمذي ٥٠١/٤ طبع دار التراث الاحياء العربي بيروت.
٥. صحيح أبي داود ١٠٦/٤ (كتاب المهدي).

٤ ـ كما ورد الحديث في عدّة موارد في مسند أحمد بن حنبل[١].

وقد ذهب بعض المحققين إلى أنّ عدد طرقه في مسند أحمد ٣٤ طريق[٢].

لقد أسهب علماء العامّة بشأن تفسير الأحاديث المذكورة والتي وردت في أشهر مصادرهم، إلّا أنّهم لم يقدموا تفسيراً قانعاً حول الإثني عشر خليفة أو أمير، وذلك لأنّهم يعتقدون بعدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا يمكن تفسيره إلّا على ضوء اعتقاد أتباع أهل البيت عليهم السلام.

منزلة بني هاشم في الإسلام

أُشير في الخطبة إلى منزلة بني هاشم في قريش، والذي أقتبس في الواقع من كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما روي عن عائشة في كتاب «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل قالت: قَال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«قَالَ لِي جِبرَائيلُ يَا مُحَمَّد قَلَّبتُ الأَرضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَم أَجِدْ وُلْدَ أَبٍ خَيْرَاً مِنْ بَنِي هَاشِم»**[٣].

ومن الواضح أنّ المقصود ليس جميع بني هاشم، والحديث يبدو ناظراً إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

---

١. مسند أحمد ٥/ ٨٩ـ ٩٠ ـ ١٠١.

٢. انظر كتاب منتخب الأثر /١٢؛ إحقاق الحق /١٣.

٣. فضائل الصحابة ٢/٦٢٨، ح ١٠٧٣.

القسم الثالث

منهَا: «آثَرُوا عَاجِلاً وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ ٱلْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَاحَرَّقَ!».

الشرح والتفسير

هؤلاء الجفاة يحرقون الأخضر واليابس

أشار الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة إلى الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمّة الحق وقد ولوا ظهورهم للحق من أجل الحكومة لبضعة أيّام فقال: «**آثَرُوا عَاجِلاً وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً وَشَرِبُوا آجِناً**[1]**؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ ٱلْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِئَ بِهِ**[2] **وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ**[3]».

ثم قال مواصلة لكلامه ﷺ: «**ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً**[4] **كَالتَّيَّارِ**[5] **لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْهَشِيمِ**[6] **لَا يَحْفِلُ**[7] **مَاحَرَّقَ!**».

---

١. «آجن»: من مادة «اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحة.

٢. «بسىء به» من مادة بسوء ألفه وإستأنس به.

٣. «خلائق»: أحياناً جمع «خلق» بمعنى المخلوق وأخرى جمع «خليقة» بمعنى الخلق والملكة وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٤. «مزبد»: من مادة «زبد» رغوة الماء وما شابه ذلك ومزبد اسم فاعل.

٥. «تيار»: يعني في الأصل الموج الشديد الذي يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً على مطلق الموج.

٦. «الهشيم»: من مادة «هشم» تطلق على النباتات الجافة المتكسرة.

٧. «يحفل»: من مادة «حفول» بمعنى الاعتناء بالشيء وعليه فلا يحفل تعني لا يهتم.

هنالك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة بشأن الضمير وعودته في هذه العبارات، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بعض الصحابة الذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشارة إلى بني أُمية، ويبدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنّهم آثروا الدنيا على الآخرة جهرة وقد تنكروا للحق وسقطوا في مستنقع الدنيا العفن، وبناءاً على هذا فالمراد بالعبارة «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ فَاسِقِهِمْ**»، هو عبدالملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بني أُمية، وقد إرتكب الكثير من الجرائم وباشرها بنفسه، وما أبشع الجنايات التي إرتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقد كان كالنار الملتهبة التي تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شيء، والعبارة كأنّي انظروا إلى فاسقهم إشارة إلى فرد يظهر في المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له ﷺ إلّا مع تكلّف.

القسم الرابع

«أَيْنَ ٱلْعُقُولُ ٱلْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ ٱلْهُدَى، وَٱلْأَبْصَارُ ٱللَّامِحَةُ إِلَىٰ مَنَارِ ٱلتَّقْوَى! أَيْنَ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَىٰ طَاعَةِ ٱللَّهِ! ازْدَحَمُوا عَلَىٰ ٱلْحُطَامِ، وَتَشَاحُّوا عَلَىٰ ٱلْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ ٱلْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَىٰ ٱلنَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ ٱلشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».

الشرح والتفسير

دعاة الحق وأتباع الشيطان

تحدّث الإمام ﷺ في المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقية ومطيعة للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال: «**أَيْنَ ٱلْعُقُولُ ٱلْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ ٱلْهُدَى، وَٱلْأَبْصَارُ ٱللَّامِحَةُ**[1] **إِلَىٰ مَنَارِ ٱلتَّقْوَى! أَيْنَ ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي وُهِبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَىٰ طَاعَةِ ٱللَّهِ!**»، إشارة إلى أنّ جماعة عظيمة من الناس سلكت سبيل المخالفة، وقد قل الصالحون وكأن الإمام ﷺ يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق ﷺ إلى الفئة الثانية التي تهافتت على الدنيا فقال: «**ازْدَحَمُوا عَلَىٰ ٱلْحُطَامِ**[2]، **وَتَشَاحُّوا**[3] **عَلَىٰ ٱلْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ ٱلْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ،**

---

١. «لامحة»: من مادة «لمح» على وزن لمس تعني في الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنى النظرة الخاطفة، كما وردت بمعنى النظر إلى الشيء وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٢. «حطام»: الشيء المكسور الفاني الذي لا قيمة له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.

٣. «تشاحوا»: من مادة تشاح واصلها الشح بمعنى البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول على الشيء.

وَأَقْبَلُوا إِلَىٰ ٱلنَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا[١] وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ ٱلشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!».

يبدو أن الفئتين اللتان أشار إليهما الإمام ﷺ في هذا المقطع من الخطبة، هما تلك الفئتان اللتان ذكرتا سابقاً، فئة سلمت لأئمّة الهدى وانقادت لهم، وأخرى تمردت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهي فئة أخلدت إلى الدنيا ولم تهتم بالحلال والحرام وتتسابق فيما بينها من أجل تبعية الشيطان وطاعته.

꧁꧂

١. «نفروا»: من مادة «نفر» و«نفور» بمعني الابتعاد عن الشيء والفرار منه.

الخطبة[1] ١٤٥

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

فناء الدنيا وذم البدع

نظرة إلى الخطبة

الخطبة ناظرة إلى موضوعين:

الموضوع الأول: إشارة إلى تقلب الدنيا وزوال نعمها، حيث يتعرف الإنسان أكثر فأكثر على حقيقة هذا العالم المتغير حين يتأمل هذه العبارات التي تضمنت مواعظ توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثاني: حول ذم البدع حيث تتغيب سنة كلّما شاعت بدعة بين الناس.

---

١. سند الخطبة:
أورد ابن شعبة الحراني في كتابه «تحف العقول» جانباً من هذه الخطبة ضمن خطبة تعرف باسم الوسيلة، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الارشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسي في الأمالي وأشار أبو العتاهية في أشعاره إلى مضمون بعض عبارات هذه الخطبة ويحتمل أنّه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبة في الكلمات القصار في كلمة رقم ١٩١. (مصادر نهج البلاغة ٣٢٣/٢)

القسم الأول

«أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ ٱلْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسير

تضارب نعم الدنيا

أشار الإمام ﷺ في هذا القسم من الخطبة إلى أفات الدنيا التي تهدد الإنسان من كل ناحية وقد عكس هذه الآفات بثلاث عبارات عميقة المعنى فقال: «**أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا غَرَضٌ**[1] **تَنْتَضِلُ فِيهِ ٱلْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ**[2]**، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ!**[3] **لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى**»، فهي تشير من جانب إلى الآفات المميتة التي تشمل الفردية من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعة الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعية كالزلازل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب أخر ذكر اقتران كل نعمة بنقمة وكل نصر ونجاح بهزيمة وفشل، أهونها ما ورد في عبارة الإمام ﷺ حين قال:

---

١. «غرض»: الهدف الذي يرمى بالسهام.
٢. «شرق»: له معنى مصدري يعني الاختناق بالماء.
٣. «غصص»: له معنى مصدري ويعني الاختناق بالطعام.

«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ! لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى»، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذّته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال واحدة حتى تفارقه أخرى، مثلاً يحرم من نعمة الولد فيهبه الله الولد لكنه يسلبه الهدوء والراحة، أو أنّه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه الله المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفية التصرف به لا تدع له مجالاً للراحة. ليس لديه وسيلة نقلية فهو يعاني من المصاعب وما إن يحصل عليها حتى يعاني من مشاكل جديدة من قبيل إنفاق المال عليها وكيفية المحافظة عليها، وهكذا فهو لا يحصل على نعمة إلى بفراق أخرى.

والعبارة تنتضل بالنظر إلى أنّها تستعمل بشأن الأفراد الذين يشتركون في مسابقات الرمي فهي تشير إلى آفات الدنيا وكأنّها تتسابق لاستهداف حياة الإنسان، والعبارة منايا جمع منية بمعنى الموت إشارة إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفردية أو الجماعية والتي اُشير إليها في الخطبة، قد يتصور أحياناً أنّ العبارة **«لَا تَنَالُونَ مِنْهَا...»**، تعبير آخر عن الجملة **«مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ...»**، والحال العبارتان مختلفتان، فالعبارة مع كل جرعة شرق إشارة إلى أنّ بانتظار كل نعمة آفة كامنة، وأمّا العبارة لا تناولوا منها... فهي تشير إلى أنّه لو لم يكن هنالك من آفة فانّ النعم لا تجتمع، فلا تنال واحدة إلّا بمفارقة أخرى.

ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بشرح رائع للعبارة السابقة حين قال لا تنالون نعمة إلّا بفراق أخرى، فبيّن خمسة نماذج واضحة في خمس عبارات فقال: **«وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ، إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلاَّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ[١] لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلاَّ وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ[٢]»**.

نعم، للإنسان حيوية خاصة حين الطفولة فان انتقل إلى مرحلة الشباب ودبّ فيه نشاطه تزوال عنه حيوية الطفولة، فان اتّجه نحو مرحلة الشيخوخة وأصبح وجوده مجموعة من

١. «يخلق»: من مادة «خلوق» بمعنى يبلى ويخلق من مادة خلق المراد المعنى الأول في الخطبة.
٢. «محصودة»: من مادة «حصد و حصاد» على وزن غضب بمعنى حصاد الشيء.

التجارب والخيرات فقد نشاط الشباب، وهكذا يمنح الله الإنسان نعمة الولد ولا تمضي مدّة حتى يفقد أباه ويتعرف على أصدقاء جدد، في حين يسلب القدماء من أصدقائه، وهكذا يحصل على نعمة ويفقد أخرى، وهذه هي طبيعة الحياة الدنيا والنعم المادية، فهي لا تجتمع لأحد في أي زمان ومكان فلا تنال نعمة إلى بفراق نعمة أخرى، وهذا بحدّ ذاته إنذار لكافة الناس بعدم التعلق بنعم الدنيا وربط القلب بها، والعبارة «**وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ...**»، إشارة إلى أنّ الإنسان إن خلّف بعض الآثار ـ سواء كانت هذه الآثار علمية أم خيرية ذات النفع العام ـ فانّه يفقد قطعاً من أجلها طاقة من حيث الفكر والبدن، والعبارة «**وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ...**»، يمكن أن تكون إشارة إلى نعمة الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدريج قرابتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشارة إلى كل نمو وتقدم، مثلاً يغرس الإنسان بذور جديدة في جانب من بستانه في حين يعاني جانب أخر من ذبول الأشجار وموتها الواحدة بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام ﷺ كلامه بالقول: «**وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!**»، فقد ذهب أباؤنا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغي لنا إنتظار البقاء، لأنّ الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءاً على هذا سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً.

٭٭٭

لقد رسم الإمام ﷺ صورة واضحة ودقيقة في هذا القسم من الخطبة عن الدنيا، نعم، فلهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، أفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن نقترب منها حين نصطدم بصورتها القبيحة، فالإنسان من جانب ـ كما أشار الإمام ﷺ ـ هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعة، ومن جانب أخر فإلى جانب كل نعمة مصيبة وإلى جانب كل وردة شوكة وأخيراً لا ننال نعمة حتى نفقد أخرى، نعيش حياة متواضعة، لكنّها مفعمة بالاستقرار، نتمنى سعة هذه المعيشة، إلّا أننا إن نلنا منيتنا طالعتنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروة بحدّ ذاته مشكلة كبيرة، إلى جانب عين الحسّاد التي تصوب نحوه وأماني الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانة الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التي تصب على رأسه من كل حدب وصوب والتي تقضي على استقراره بصورة تامة، ناهيك عن مختلف الأمراض

التي تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إننا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وآنذاك يسعنا الاستفادة الصحيحة من الأموال بينا أيدينا خالية، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفادة منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والوثوق بها؟ يقال إنّ أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعة ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه بشعرة، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقعت عينه على الخنجر وأنّه معلق بشعرة فارتعش، لأنّه ظن سيقع عليه في كل لحظة، فلمّا همّ بالهروب قيل له لم تنتهي ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّة وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطة من جمال فهي تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقربيه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود في الحياة الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّا السير نحو الآخرة، وكما قال آخر خلفاء بني أُمية «**لَمّا حَلا لَنا الدَّهرُ خَلا مِنّا**»[١].

---

١. في ظلال نهج البلاغة ٣٨٩/٤.

القسم الثاني

منها: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا ٱلْبِدَعَ وَٱلْزَمُوا ٱلْمَهْيَعَ. إنَّ عَوَازِمَ ٱلْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا».

الشرح والتفسير

موت السنن بظهور البدع

يعالج هذا الكلام من الخطبة قضية مهمّة وهي قبح البدع، وعلى ضوء عدم الإرتباط الواضح بين هذا القسم والذي سبقه فالذي يبدوا أنّ بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضي ﵀، ولابدّ من تغير مفردة البدعة على أساس اللغة والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبة: فالبدعة لغوياً تعني كل تجدد والذي يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرّح به أرباب اللغة: «البدعة إنشاء أمر على غير مثال سابق».

أمّا المعنى السائد بين الفقهاء العلماء ـ كما ذكرنا ذلك في شرح الخطبة السابعة عشرة ـ إدخال شيء في الدين أو إخراجه دون قيام دليل معتبر على ذلك، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالدة ونازلة عن طريق الوحي فكل بدعة كبيرة، وإليها تعود كل فرقة واختلاف أصاب الأمة الإسلامية، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام ﵇ فقد قال: «**وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ**».

ثم نصح باجتناب البدع وضرورة السير على النهج المستقيم فقال ﵇: «**فَاتَّقُوا ٱلْبِدَعَ**

وَٱلْزَمُوا ٱلْمَهْيَعَ[١]. إِنَّ عَوَازِمَ[٢] ٱلْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا[٣] شِرَارُهَا».

فقد اتضحت حقيقة ما قيل في هذه العبارة في كيفية ترك سنّة حين ظهور بدعة، وكيف تكون البدعة شرّ الأمور، لأنّه لو سمح للأفراد أن ينقصوا من الدين شيئاً أو يضيفوا له شيئاً على ضوء ذوقهم وفكرهم القاصر، لما بقي من أحكام الدين وتعاليمه شيئاً خلال مدّة وجيزة ولإنقلب كل شيء رأساً على عقب، وفقد اعتباره وأصالته، ولإستبدلت التعاليم الأصلية للدين بسلسلة من الأفكار المنحرفة والواهية ولحل السراب محل العين الزلال، طبعاً إن كان التجدد وليد البحث والتحقيق والدقيق في أدلة أحكام الشرع وكشف حقائق حديثة من خلال الكتاب والسنّة والدليل القاطع للعقل، فليس هذا من البدعة في شيء فحسب، بل سيكون سبب رفعة الدين وإزدهاره.

وبعبارة أخرى: فانّ الكشف شيء جديد، أمّا المكشوف فهو موجود سابقاً في الدين، أمّا إن كان الذوق الشخصي والاستحسان الظني هو دعامة وأساس التجدد فليس له من نتائج سوى الظلال ومسخ الصورة الحقيقية الناصعة للدين ويتضح ممّا مرّ معنا عدم صواب ما أورده شرّاح نهج البلاغة للعبارة المذكورة من أن كلّ بدعة خلاف لسنّة النبي الأكرم ﷺ الذي حرم البدعة، وعليه فالسنّة تترك بظهور البدعة، بل المراد أنّ لكل موضوعه في الإسلام حكم، وكل بدعة تعارض ذلك الحكم، إذن فبظهور البدع تترك الأحكام الأصلية للدين ـ كما تبيّن جسامة خطأ ما أورده بعض شرّاح نهج البلاغة مثل ابن أبي الحديد الذي قسم البدع إلى حسنة وسيئة، فاعتبر مثلاً صلاة التراويح (تلك الصلاة المتسحبة التي كان يصليها الناس فرادا على عهد رسول الله ﷺ في ليالي رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلى جماعة) من البدع الحسنة، وذلك لأنّه بهذه البدعة ترك سنّة، وترك سنّة استحباب الإفراد في الصلاة المستحبة، وعليه فليس لدينا بدعة حسنة، وإن أقررنا البدعة الحسنة كان ذلك الإقرار بأنّ السنّة قد تكون

١. «المهيع»: من مادة «هيع» على وزن رأي بمعنى الطريق الواسع والواضح.

٢. «عوازم»: جمع «عازمة أو عوزم» على وزن جوهر تعني في الأصل المسن من الإنسان أوالحيوان وتطلق على كل شيء قديم، وتعني هنا الأمور التي كانت موجودة منذ زمان النبي وأصالتها ثابتة في الدين.

٣. وردت حدثات بكسر الدال في النسخة المعروفة لصبحي الصالح فلها معنى اسم الفاعل، ووردت مفتوحة في أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هوالصحيح.

حسنة وقد تكون سيئة، كما اتضح المعنى الذي أراده بعض العلماء للبدعة حين أجروا عليها الأحكام الخمسة من أن بعض البدع واجبة وبعضها محرمة، فـإنّما أرادوا المعنى اللغوي لا الشرعي باضافة أو طرح أشياء من الدين وأحكامه ومن هنا ورد في الحديث عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال: «**ألّا وَكُلُّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ، ألا وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»[1].

ومن أراد الوقوف على المزيد بشأن البدعة فليراجع المجلد الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة السابعة عشرة.

ﮰﮱ

١. ورد مثل هذا المعنى في الأمالي للشيخ المفيد، ص١٨٨ مع اختلاف طفيف كما ورد في مصادر العامة (الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤/٨).

الخطبة[1] ١٤٦

وَمِنْ كلامٍ لهُ ﷺ

وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظرة إلى الخطبة

هناك خلاف بين المؤرخين في أنّ هذه الاستشارة بخصوص الحضور في معركة نهاوند أو القادسية، ويرى الطبري حسب قول ابن أبي الحديد أنّها في معركة نهاوند، بينما يراها المدائني في كتاب «الفتوح» بشأن معركة القادسية[2]. وخلاصة ما ورد في تاريخ الطبري أنّ عمر حين عزم على الشخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشورة الصحابة فتقدم طلحة والزبير وقالا رأيهما، إلّا أنّ عمر استشار علياً ﷺ فأشار ﷺ بعدم الشخوص بنفسه كما في الخطبة. قال المرحوم الشيخ المفيد ﵀ في «الإرشاد»، ورد عن أبي بكر الهذلي أنّ من بين الأمور التي نقلت عن أميرالمؤمنين علي ﷺ في إرشاد الناس لما فيه مصلحتهم ولولا إرشاده لكان فسادهم أنّ فريقاً من أهل همدان والري وإصفهان ودامغان ونهاوند تكاتبوا بينهم وبعثوا الرسل فرأوا أنّ الإسلام قد فقد زعيمه (النبي الأكرم ﷺ) وخلفه من لم يستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

---

١. سند الخطبة:
روى جانباً من هذه الخطبة أبو حنيفة الدينوري في كتاب «الأخبار الطوال» وأحمد بن أعثم الكوفي في كتاب «الفتوح» والطبري في تاريخه والمعروف في حوادث عام ٢٧ هـ (الصحيح عام ٢١ هـ كما ورد في تاريخ الطبري) وذكرها الشيخ المفيد﵀ في «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغة ٣٢٥/٢).
٢. شرح ابن أبي الحديد ٩٧/٩.

هجم على مدننا وإنّه لن يتركنا ما لم نخرجه، فلمّا بلغ عمر الخبر فقدم إلى المسجد وأطلع الصحابة بالخبر، فقال كل رأيه، فأشار علي عليه السلام (كما ورد في هذه الخطبة) بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، قال الشيخ المفيد: انظر كيف بيّن الإمام عليه السلام رأيه الصائب في تلك الظروف الحساسة وأنقذ المسلمين[1]، على كل حال فانّ هذه الخطبة تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أنّ حضور رئيس الدولة في الحرب في بعض الظروف أمر خطير جدّاً من شأنه أن يؤدّي إلى مشكلتين، أحدهما إتحاد أفراد العدو فيما بينهم وبذل قصارى جهدهم من أجل قتله، فيضطرب الجيش ويختل نظمه، والأخرى على فرض عدم حدوث مثل هذا الخطر فلعل إخلاء الجبهة الداخلية يشجع العدو على الهجوم على المراكز الأصلية للبلاد من كافة الجهات فتنجم من جراء ذلك الأخطار الشديدة التي تهدد كيان الإسلام والمسلمين، وتشير هذه الخطبة بوضوح إلى أنّ علياً عليه السلام أنّه كان يقف حتى إلى جانب أعدائه إذا اقتضت ذلك مصالح الإسلام والمسلمين حرصاً على الدين وكيانه.

طبعاً هذا الكلام لا يعني أنّ رئيس الدولة لا ينبغي أن يشخص بنفسه قط في ميدان القتال فقد شخص أمير المؤمنين علي عليه السلام بنفسه في معارك الجمل وصفين والنهروان، وأعظم من ذلك حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الغزوات، فالشرائط متفاوتة تماماً بحيث كانت تتطلب عدم حضور الخليفة الثاني في الميدان.

والجدير بالذكر أنّ المعارك قد تقع أحياناً بالقرب من البلاد الإسلامية وفي المناطق القريبة منه فانّ حضور المعركة من قبل رئيس الدولة لا يترتب عليه أية مخاطر في مثل هذه الظروف، في حين تبرز مثل هذه المخاطر في المناطق البعيدة وتجاه عدو قوي يمتلك جيشاً كبيراً، وقد تحدثنا في مثل هذا الأمر في شرحنا للخطبة ١٣٤.

---

١. إرشاد المفيد، ص ١٢٠ بتصرف.

القسم الأول

«إِنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ ٱللّٰهِ، وَٱللّٰهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ. وَمَكَانُ ٱلْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ ٱلنِّظَامِ مِنَ ٱلْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلنِّظَامُ تَفَرَّقَ ٱلْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً. وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاِجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْباً، وَٱسْتَدِرِ ٱلرَّحَىٰ بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

الالتصاق بمركز الدولة

صرّح الإمام عليه السلام في البداية بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثرة جيوش العدو في تلك المعركة القاسية، سيّما ما ذكرته بعض التواريخ من أنّ رأي عثمان حين أشار عليه الخليفة الثاني كان مقبولاً، فقال: «**إِنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا بِقِلَّةٍ. وَهُوَ دِينُ ٱللّٰهِ ٱلَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ**»، في إشارة إلى أننا كنّا دائماً قلّة مقابل العدو في الحروب التي خضناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا الله برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثرة العدو وامضوا بعد التوكل على الله تعالى.

والعبارة هذه تذكّر بنصر المسلمين في بدر والأحزاب وأمثالها.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أنّ العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقة نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الأُولى إشارة إلى المناطق التي نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التي ذاع فيها صيت الإسلام وشع عليها بما يمهد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أنّ العبارة الأُولى إشارة إلى قوّة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعة الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام: «**وَنَحْنُ عَلَىٰ مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ**»، إشارة إلى الآية الشريفة: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**[1]. والآية: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾**[2].

نعم، فقد وعدنا في ظل الإيمان بالنصر في الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحي للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلي للمشورة في حضور عمر بنفسه في المعركة فقال: «**وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ**[3] **مِنَ الْخَرَزِ**[4] **يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ**[5] **أَبَداً**»، يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزلة خيط المسبحة أو القلادة بفضله رمز الوحدة وإنسجام والأمّة، كما تحمل الزعيم قضية في أن يتحلى بسعة الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم في كتلة متحدة.

ثم خاض الإمام ثانية في رفع معنوياتهم على أنّ العرب اليوم هم الكثرة رغم قلّتهم وما

---

١. سورة التوبة / ٣٣.

٢. سورة غافر / ٥١.

٣. وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلي لكنّها تعني هنا السلك ينظم فيه الخرز.

٤. «خرز»: بمعنى حبات السبحة وتكون نفيسة، كما تكون عادية ويصنع منها المسبحة وأصلها «الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شيء أخر.

٥. «حذافير»: جمع «حذفور و حذفار» على وزن مضمار بمعنى جانب الشيء وناحيته وحذافير بمعنى جميع الجوانب.

ذلك إلّا بالإسلام فقهم عزيزون ومقتدرون في ظل اجتماعهم واتفاقهم في ظل هذا الدين: «وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ!».

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية: «فَكُنْ قُطْباً، وَٱسْتَدِرِ ٱلرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ[1] دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ».

ثم ذكر دليل ذلك فقال ﷺ: «فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ[2] مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ[3] أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ»، إشارة إلى أنّ الإسلام في بداياته لحدّ الآن، وما زال المنافقون وسليلوا عصر الجاهلية في صفوف العرب وهم يتربصون الفرصة لطعن المسلمين من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفياء إلى نقطة بعيدة يكون الميدان قد خلي للمفسدين والمنافقين، ولعلهم يسببون بعض الأخطار التي تفوق أخطار العدو الخارجي، أضف إلى لذلك فلو اصطدم الجيش بمشكلة في الجبهات، كان بإمكان القائد إن استقر في المركز أن يعبيء جيشاً جديداً ويبعث به إلى ميدان القتال، بينما ينهار سند الجيش إن حضر بنفسه الميدان.

والجدير بالذكر أنّ العرب في العبارة «وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ...» تختلف عن العرب في العبارة «ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ...» فالمراد بالأولى المخلصون من المؤمنين، والثانية المنافقون الذين يظهرون الإيمان، أو المسلمون الضعاف.

❀❀

١. «اصل»: من مادة «صلي» على وزن سعي بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت في باب الأفعال عن القذف في النار، والعبارة إشارة إلى أنّ الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.

٢. «شخصت»: من مادة «شخوص» على وزن خلوص تعني في الأصل الخروج من المنزل أو المدينة، ولما كان الإنسان يظهر حين الخروج فقد أطلقت على قامة الإنسان والمرتفعات التي تلوح من بعيد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبيّن حين دخوله المدينة، وتطلق هذه المفرادة على كل شيء مرتفع.

٣. «عورات»: جمع «عورة» تعني في الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآلة الجنسية مدعاة للعيب والعار فقد اطلقت عليها العرب العورة، ولكن لهذه المفردة معنى أوسع وأشمل وهي النقطة التي يمكن اختراقها وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حدود كل بلد من المناطق التي يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقة فقد استعملت بهذا المجال، إلّا أنّها لا تعني الحدود خلافاً لما أورده أغلب شرّاح نهج البلاغة، والمراد بها النقاط المضطربة داخل البلد الإسلامي والتي يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجي لا يبقى خلفه سوى الجبهة الداخلية للبلاد.

فائدة

ما يستفاد من هذه العبارات دورس مهمّة في مجال الإدارة والقيادة وتصريف شؤون البلاد:

أولاً: حفظ القائد والزعيم للأمّة لا من منظار شخصي بل كونها قضية اجتماعية تعدّ من أهم الواجبات، وذلك لأنّه رمز وحدة الأمة وتماسكها، ومن هنا لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جميع التدابير للازمة من أجل حفظه ودفع أي احتمال يمكنه أن يشكل خطراً عليه، سيّما أنّ العدو ومن خلال الاطلاع على هذا الموضوع يسعى لاستهداف شخص القائد قبل كل شيء، وقد دلت التجربة التاريخية أنّ أقصر طريق لهزم جماعة يتمثل بدك موقع القيادة واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر في قضية بني اسرائيل وقتالهم لجالوت التي عرضها القرآن الكريم حيث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهزم الجيش إثر ذلك.

ثانياً: على القائد أن ينظر باحدى عينيه إلى العدو الخارجي وبالأخرى إلى الاعداء في داخل البلاد، حتى ورد في هذه الخطبة وكما دلّت التجارب التاريخية الكثيرة على خطر العدو الداخلي الذي يفوق الخطر الخارجي، وذلك لأنّ الذي يأتي من الخارج معروف، بينما يتمثل العدو الداخلي عادة بالمنافقين الذين يتخفون بين أبناء المجتمع، فانّ سنحت لهم أدنى فرصة سددوا سهام حقدهم وضربوا ضربتهم، إضافة إلى أنّهم على علم تام بمواقع الخلل في الداخل وكيفية التسلل إلى المناطق، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعة بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.

80 03

القسم الثاني

«إِنَّ ٱلْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَىٰ بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَٱلْمَعُونَةِ!».

الشرح والتفسير

الكثرة لا تسبب النصر

هذا المقطع من الخطبة في الواقع تأييد وتأكيد للقسم الأول، وقد أشار إلى ثلاث نقاط.

الأولى: الدليل الذي أقامة الإمام ﷺ على عدم حضور الخليفة في ميدان الحرب فقال: «**إِنَّ ٱلْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غداً يَقُولُوا: هٰذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ[1] عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ**».

الثانية: «**فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَىٰ قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ ٱللّٰهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ**»، وتشير العبارة إلى أنّ عمر قال سابقاً بأنّ الأعاجم قد زحفوا نحونا وينوون قتالنا وهذا يدلّ على ما يرونه في أنفسهم من قوّة، ولعل الأمر كان كذلك حسب الظاهر وما تفيده الشواهد التاريخية، إلّا أنّ الإمام ﷺ ذكر بقدرة الله الخاصة من أجل رفع معنوياته وهو الأمر الذي لمسه المسلمون كراراً في غزواتهم، ومن

---

1. «كلب»: بمعنى الأذى.

الطبيعي أن يتعقد الأمر لو بقي المسلمون في ديارهم وهجم عليهم العدو فما أمراهم لو توكلوا على الله وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالثة: أنّ الخليفة الثاني كان يخشى عدم التكافىء وموازنة القوى بين المسلمين والأعداء، فرد عليه الإمام ﷺ بالقول: «**وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!**»، فقد كان عمر يرى قوّة العدو واقتداره في أمرين، أحدهما كثرتهم وزيادة عددهم، والآخر حركتهم وهجومهم على بلاد الإسلام.

وقد صرح الإمام ﷺ إننا لم نقاتل العدو وننتصر عليهم بهذه القوّة الظاهرية، وقد أيدنا الله بنصره ومدده العيني في جميع مواقف القتال، وقد انتصرنا رغم قلّة العدد وكثرة العدو وهجومه علينا، وهكذا شجعه الإمام ﷺ على مواجهة العدو، وأكد وأيضاً عدم حضوره شخصاً في الحرب، واستجاب له عمر وكان النصر حليف المسلمين.

ﷻ

معركة القادسية ونهاوند

وقعت معركتان مهمتان بين المسلمين والساسانيين على عهد عمر القادسية[1] في عام ١٤ هـ ومعركة نهاوند عام ٢١ هـ وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقد مرّ علينا في الخطبة أنّ الإمام ﷺ منعه من ذلك بعد ذكره للأدلة المحكمة، بينما أشار عليه الآخرون بالحضور، فقبل من الإمام ﷺ وبقي في المدينة، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هذه المشورة كانت في معركة نهاوند، على كل حال حين عزم عمر على عدم الحضور في القادسية ولى سعد بن أبي وقاص إمرة الجيش، بينما نصب يزدجرد الساساني رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلى يزدجرد، فعنفه حيث لم يتوقع ذلك من العرب آنذاك وقال له لولا أنّك رسول لقتلتك، ثم أمر بذر التراب على رأسه وطرده من المدائن، وقال له أنّ رستم سيدفن قائد عسكركم في خندق القادسية، فلما عاد النعمان إلى سعد، فقال سعد، ابشر أن وضعوا التراب على رأسك فاننا سنملك بلدهم، والعجيب أنّ رستم كان يخشى قتال المسلمين رغم تعداد جيشه الذي بلغ

١. القادسية كانت من المدن الإيرانية الغربية ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفة (ذكر البعض أنّها تبعد تسعين كليومتراً) وهي الآن من مدن العراق.

١٢٠ ألف بينما كان عدد جيش المسلمين بضع وثلاثين ألف.

وأخيراً تقاتل الجيشان، وفي اليوم الأول هجم الساسانيون بفيلهم على المسلمين، ولكن المسلمين تمكنوا من قطع خراطيمها وقد قتل من العدو في ذلك اليوم ٢٠٠٠ ومن المسلمين ٥٠٠، وفي اليوم الثاني تقدم أبوعبيدة الجراح بجيش من الشام لنصرة سعد بن أبي وقاص فقتل من الساسانيين عشرة آلاف بينما قتل ألفان من المسلمين، وفي اليوم الثالث إشتد القتال واستمر القتال حتى اليوم الرابع فبان الضعف على العدو، فهبت ريح شديدة فهجم المسلمون على خيمة رستم، فحاول الهرب لكنه صرع تحت حوافر الخيل، فانهزم الجيش الساساني فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقيب العدو وأن تستقر الجيش هناك فبقي سعد هناك في الكوفة فعلاً فبنى مسجداً وباشر بناء الكوفة. أمّا معركة نهاوند[١]. فقد ذكر الطبري أنّ عمر أراد أنّ يشخص لقتال الجيش الساساني في نهاوند فأشار عليه الصحابة حتى خطب الإمام عليه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمرّ النعمان الذي كان والي البصرة، فواجهة لقتال الفيروزان قائد جيش كسرى في نهاوند، فان قتل خلفه حذيفة ومن بعده نعيم، كما وجه معه طلحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب العارفين بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان في المعركة، فحمل الراية حذيفة حتى قتل الفيروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم كثيرة فبعثوا بها إلى عمر، فلما رآى عمر الغنائم بكى فسألوه عن ذلك، قال: أخشى خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخين: أنّ هذه المعركة حدثت عام ٢١ هـ لسبع سنوات بعد القادسية وقد انهزم الساسانيون ودخل المسلمون ايران، فما كان من الايرانيين المعروفين بالفطنة إلّا أنّ تعرفوا على الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلامية.

والجدير بالذكر أنّ مقاومة الايرانيين تركزت في القادسية ونهاوند، بينما كانوا يستقبلون المسلمين حين دخلوا من سائر المدن، ولم يبدو أية مقاومة، فقد كانوا يعانون من الساسانيين من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم في الإسلام[٢].

80 03

١. نهاوند مدينة معروفة غرب ايران وهي الآن تابعة لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩٦/٩ـ١٠٢؛ وتاريخ الطبري ٢٠٢/٣.

الخطبة ١٤٧[1]

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ عليه السلام

في الغاية عن بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وأهميّة القرآن، والإخبار عن المستقبل

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من عدّة أقسام:

القسم الأول: إشارة إلى أهداف بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودور القرآن في هداية الناس.

القسم الثاني: يخبر فيه الإمام عليه السلام عن الفتن القادمة ويتحدث عن وقت يغرق الناس فيه بالذنوب والمعاصي وينسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذكير بعاقبة الأقوام السابقة التي صب عليها البلاء.

القسم الرابع: بين فيه الإمام عليه السلام بعض المواعظ المؤثرة والمفيدة وقد دعى الناس إلى إتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام من أجل النجاة من الفساد.

---

١. سند الخطبة:
نقلها قبل السيد الرضي باختلاف طفيف المرحوم الكليني في كتاب روضة الكافي، وقد أُشير في الخطبة ٢٣٧ إلى جزء من هذه الخطبة كما وردت إشارة إلى جانب منها في قصار الكلمات، الكلمة ٩٨ (مصادر نهج البلاغة ٣٣١/٢).

القسم الأول

«فَبَعَثَ ٱللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ ٱلْأَوْثَانِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ ٱلشَّيْطَانِ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ ٱلْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّىٰ لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ، وَٱحْتَصَدَ مَنِ ٱحْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!».

الشرح والتفسير

تجلي الله لعباده في القرآن

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة ـ كما ذكر ذلك الشارح البحراني ـ إلى بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ثم شرح أهداف البعثة، ثم أشار إلى الوسيلة التي اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهي القرآن الكريم فقال: «**فَبَعَثَ ٱللَّهُ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ ٱلْأَوْثَانِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ ٱلشَّيْطَانِ إِلَىٰ طَاعَتِهِ**» يالها من عبارة بليغة رائعة وقصيرة بشأن الهدف من بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي تستند إلى ركنين:

الأول: ترك عبودية الأصنام والتمسك بالتوحيد في العبادة، أي عبادة الله.

الثاني: التحرر من طاعة الشيطان والاقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى.

لا شك أنّ طاعة الشيطان نوع من الوثنية، وعليه فهي داخلة في مفهوم العبارة الأُولى يعني عبادة الأوثان، إلّا أنّ تقابل هاتين العبارتين يفيد أنّ العبادة قد استعملت في معناها الخاص، والمراد طاعة الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فانّ للأوثان والشيطان في هاتين

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير الله سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءاً على هذا يدخل في مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعة أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعية، وهذا هو هدف البعثة والذي يتمثل بالتحرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكليني في الكافي العبارات المذكورة بهذه الصيغة: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعالىٰ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالحَقِّ لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَة عِبَادِهِ إلىٰ عِبَادَتِه وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إلىٰ عُهُودِهِ وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إلىٰ طَاعَتِهِ وَمِنْ وِلَايَةِ عِبَادِهِ إلىٰ وَلَايَتِهِ**»[1].

وهكذا بيّن الإمام الهدف الأصلي لبعثة النبي الأكرم ﷺ والذي تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصرة وقد أماط كل إبهام.

ثم أشار ﷺ إلى الوسيلة اللازمة لتحقيق هذا الهدف السامي فقال: «**بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ**».

لا شك أنّ مشركي العرب كانوا يؤمنون بالله ويعترفون بوجوده وأنّه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعائهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أية قيمة، وقد بعث الله نبيّه الأكرم ﷺ ليطهّر أرواحهم وأفكارهم من أدران الشرك والوثنية ويشدهم نحو التوحيد والعبودية الخالصة، وهذا في الواقع وظيفة كافة الأنبياء والمرسلين في تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال ﷺ في تعريفه للقرآن وآثاره البنّاءة في الفكر والعمل: «**فَتَجَلَّىٰ**[2] **لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ**».

والعبارة إشارة إلى آيات التوحيد وبيان أسماء الله وصفاته والتي تفعل مثل هذا الفعل في الإنسان حين يتأملها وكأنّه يرى الله سبحانه وتعالى جهرة، نعم يراه ولكن بالبصيرة لا

---

١. الكافي ٣٨٦/٨.

٢. «تجلى»: من مادة «تجلي» وأصل جلو على وزن دلو بمعنى الظهور والبروز، وتجلى الله بمعنى أنّ آياته على درجة من الوضوح وكأنّه يمكن رؤيته من خلالها.

بالبصر، احتمل البعض أنّ المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات الله سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا[١]، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارة السابقة التي أشير فيها إلى القرآن في العبارة اللاحقة إلى الإنذار الإلهي، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلي الله بواسطة الآيات القرآنية قد يوهم إمكانية رؤية الله بالعين، فقد صرّح عقيب ذلك مباشرة بأنّ هذا التجلي يحصل دون رؤية بالبصر.

وأشار في العبارة القادمة إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهي آيات الإنذار والتخويف، فقال ﷺ: «**وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ**»، ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمة للأقوام السابقة وما تنطوي عليه من دروس وعبر فقال: «**وَكَيْفَ مَحَقَ**[٢] **مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاتِ**[٣]، **وَاحْتَصَدَ**[٤] **مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!**».

وأخيراً مازال هناك احتمال في تفسير العبارات المذكورة في أنّ الله تعالى قد تجلى في كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدرة والتخويف من السطوة والقصص الأليمة للأقوام العاصية).

٭٭٭

كيفية تجلى الله في القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمة الله وقدرته في آيات الآفاق والأنفس وفي السماوات والأرض وفي أكثر المنظومات والكرات السماوية وفي أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأنّ كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهيّة متجلية في القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته في السموات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونقم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهرة في الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهرة متجلية في كل هذه الآيات وقد قال

---

١. قال الشاعر:

وله في كل شيء آية تدلّ على أنّه واحد

٢. «محق»: من مادة «محق» على وزن خلق بمعنى المحو الكامل أو إزالة بركة الشيء.

٣. «المثلات»: جمع «مثلة» على وزن عضلة بمعنى العقوبة.

٤. «احتصد»: من مادة «حصد» بمعنى القطف.

بعض الأعلام أنّ أغلب المكاشفات تتم حين تلاوة القرآن الكريم والتدبير في مفاهيمه. أجل لا يمكن رؤية الله سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنية. فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفي أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين في الكتاب التدوين، حقّاً لو كان لنا مئة ألف عين لشاهدنا مئة ألف تجلي من تجليات الحق تبارك وتعالى.

القسم الثاني

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ ٱلْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكَذِبِ عَلَىٰ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي ٱلْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ ٱلْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ فِي ٱلنَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ ٱلضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ ٱلْهُدَى، وَإِنِ ٱجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ ٱلْقَوْمُ عَلَىٰ ٱلْفُرْقَةِ، وَٱفْتَرَقُوا عَلَىٰ ٱلْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ ٱلْكِتَابِ وَلَيْسَ ٱلْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا ٱسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَىٰ ٱللَّهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي ٱلْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ ٱلسَّيِّئَةِ».

الشرح والتفسير

لا يبقى من القرآن سوى اسمه

تحدّث الإمام ﷺ في القسم المذكور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثة النبي الأكرم ﷺ والآثار العظيمة للقرآن في الهداية، ثم واصل ﷺ كلامه في هذا القسم بالحديث عن زمان لا يبدو بعيداً وسيشهد تغيراً تاماً في الأوضاع بما يهدد بالخطر جهود النبي ﷺ فينذر كافة المؤمنين بالالتفات إلى الأخطار التي تتربص بهم، فاستهل ﷺ كلامه ببيان الوضع في ذلك الزمان بسبع عبارات قصيرة بليغة فقال: «**وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ**

شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ ٱلْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكَذِبِ عَلَىٰ ٱللهِ وَرَسُولِهِ»، كما ليست لدى الناس من سلعة أبور من القرآن الكريم آنذاك إن فسّر وتلي حق تلاوته، بينما يزداد الإقبال عليه إن حرّف عن معناه الحقيقي: «**وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ سِلْعَةٌ**[١] **أَبْوَرَ**[٢] **مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ**[٣] **مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي ٱلْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ ٱلْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ**[٤] **حَفَظَتُهُ**».

نعم، ستظهر غيوم الجاهلية ثانية في سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوّة والقرآن فيتغير كل شيء وتنطمس حقائق الإسلام ويستولي سليلوا أئمّة الكفر والشرك والوثنية على الحكومة الإسلامية فتعاني الأُمة من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أي زمان هذا الذي أشار إليه الإمام ﷺ؟ هل المراد زمان معين؟ أم الحكومة مفهوم عام ويشمل مختلف الأزمنة حتى زماننا الحاضر؟ هناك خلاف بهذا الشأن بين شرّاح نهج البلاغة، ولكن بالنظر إلى العبارة «سيأتي» التي تفيد عادة الإخبار عن المستقبل القريب والتعبير بـ«عليكم» ومن بعدي التي تشير إلى درك مخاطبيه له، يبدو أنّه إشارة إلى زمان سيطرة بني أُمية ومعاوية ويزيد وسائر حكامهم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذين كتموا الحق وقطعوا رقبة كل من تعصب له، إلى جانب ذلك فقد إتسق سوق الكذابين والوضاعين والمتملقين لبني أُمية ممن اندفع في مدحهم والثناء عليهم، فقد ظهرت المنكرات في كل مكان وضاع المعروف.

طبعاً لا ننكر أنّ هذا الأمر حدث ويحدث في سائر الأزمنة وحتى في عصرنا، مع ذلك فمراد الإمام ﷺ من هذه العبارات العصر المظلم لبني أُمية.

ثم خاض الإمام ﷺ في وضع القرآن وأصحابه في ذلك الزمان المظلم وشرح علّة بؤس الناس آنذاك والتي تتمثل بابتعادهم عن القرآن: «**فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ**[٥] **مَنْفِيَّانِ**[٦]،

---

١. «سلعة»: المتاع والبضاعة.
٢. «أبور»: من مادة «بوار» شدّة كساد الشيء والأرض البائر والبوار الميتة الخالية من النبات.
٣. «أنفق»: فعل تفضيل من مادة «نفاق» لها معاني مختلفة وأُريد بها هنا غلاء السلعة ورواجها.
٤. «تناسا»: من مادة نسيان.
٥. «طريدان»: مثنى «طريد» من مادة طرد ومعناها معروف.
٦. «منفيان»: من مادة «نفي» بمعنى الابعاد.

وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا[1] مُؤْوٍ».

ثم أكّد ﷺ قائلاً: «**فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ!**»، فهم يتلون القرآن في دورهم وعلى منابرهم، ويقبّلونه ويتبركون به، بينما ليس هنالك أدنى أثر لتعاليمه ومفاهيمه في حياتهم الفردية والاجتماعية، فقد اكتفوا من القرآن بغلافه وتركوا مضمونه، إنهمكوا بالألفاظ وأهملوا المعاني.

ثم خاض ﷺ في الدليل قائلاً: «**لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنِ اجْتَمَعَا**». نعم، فالضالون في وادي والهدى وأتباعه في وادي آخر، وإن كانوا معاً في الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم: «**فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ**»، بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدّت هذه الفرقة إلى أن يفسّر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأي، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التي تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلاً من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجّه لضلالهم، فيزدادوا ضلالاً وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورة واضحة عن مصير القرآن في ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارة فقال ﷺ: «**فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ**[2]»، فقد يسطر القرآن بخطوط غاية في الجمال وتذهب صفحاته وغلافه ويبتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدي القرآن ويتلى في المساجد بمختلف الأصوات بصورة فردية وجماعية، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافي الذي يوضع في زجاجة جميلة تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون في ذلك الزمان؟ كأنّ الإمام ﷺ أجاب في

---

١. «يؤوي»: من مادة «ايواء» بمعنى الملاذ والملجأ.

٢. «زبر»: بالفتح الكتابة (وقد جاء بالمعنى المصدري واسم المصدر).

العبارة الأخيرة على هذا السؤال فقال: «**وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا**[١] **بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَىٰ اللّٰهِ فِرْيَةً**[٢]**، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ**».

فالعبارة إشارة إلى التاريخ الأسود لبني أُمية الذين مثلوا بالصالحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاوية ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا نرى من حاجة لاستعراض تلك الفاجعة التي إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره في كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز[٣]، وهكذا أخمدوا كل دعوة حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأمّلان

١ـ أبشع عصور الإسلام

لا شك إنّ عصر حكومة بني أُمية من أبشع العصور التي شهدتها الأُمة الإسلامية، ويشترك حكام بني أُمية من معاوية حتى أخرهم الذي بعرف بمروان الحمار في ثلاث خصال هي: الجلافة والقسوة المتناهية وحبّ الحكومة والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معاني الحق والعدل والشرف والإنسانية من أجل حكومتهم المقيتة فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله في التاريخ، وقد أذاقوا دعاة الحق وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الأمرّين بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفي وصلب وحصار في البيت من أجل تلك الحكومة، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في عباراته الأخيرة من هذا القسم

١. «مثلوا»: من مادة «تمثيل» وأصلها «المثلة» بمعنى التنكيل والتشنيع.

٢. «فرية»: من مادة «فري» على وزن فرد تعني في الأصل القطع، ولما كان قطع الشيء يؤدّي إلى فساده غالباً، فهي تطلق على كل خلاف ومنه الكذب والتهمة.

٣. روى ذلك المرحوم العلّامة الحلي في كتاب «كشف الحق» عن كتاب «الهاوية» (شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئي ٧٠/٩).

من الخطبة، إلّا أنّ أهم كهف كانت تلوذ به الأُمة الإسلامية والذي يشكل أكبر عقبة تعترض طريقهم إنّما هو القرآن، القرآن الذي أعلن الحرب ضد الظلمة، والطغاة وهدد دائماً عروش الغاشمين، وكان المعيار لتميز الحكومة الإسلامية من الحكومالت الغاصبة والظالمة والكافرة. فما كان من أُولئك الطغاة إلّا أن وظفوا أشباه العلماء ووعاظ السلاطين ويهدف إزالة تلك العقبة عن طريقهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم، في أنّ آياته تشهد بحقانية أُولئك الغرباء على القرآن والبعيدين عن الحق تبارك وتعالى، كما منعوا من يرون تلاوة القرآن حق تلاوته، وهكذا لم يبق من القرآن سوى اسمه ورسمه فحكم عليه بأن يصبح كالسجين الذي أودع زنزانة إنفرادية مخيفة ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذي أشار إليه الإمام ﷺ في هذه الخطبة.

فقد جاء في الخبر أنّ معاوية حين قدم المدينة مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأواه قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهى صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصرته)، فقال معاوية: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتلة عثمان، قال معاوية: المسلمون. قال ابن عباس: فهذه عليك لا لك.

قال معاوية: لقد أمرنا بعدم ذكر فضائل علي وأهل بيته فاحفظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءة القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاوية: بلى، لك القراءة دون التأويل، وإن كان ولابدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لابن عباس بمئة ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسكات ابن عباس)[1]. ومن أراد المزيد بشأن جنايات بني أُمية والتعرف عليهم بدقّة على ضوء القرآن وأخبار العامّة والأعمال التي قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسلامية وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

ഇഇ

١. بحار الانوار ١٢٤/٤٤.

٢ـ التاريخ يعيد نفسه

ما أورده الإمام ﷺ في هذه الخطبة بشأن العصر المظلم للحكومة الأُموية بأنّ لا يبقى من القرآن إلّا اسمه لا يقتصر على ذلك الزمان، والمؤسف له أنّ ذلك الأمر قد تكرر في مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومة بني أُمية، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى في عصرنا.

وقد وردت للإمام ﷺ عبارة أشمل في قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال: «**يَأتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبقَىٰ فِيهِن مِنَ القُرآنِ إلّا إِسمُهُ وَمِنَ الإسلامِ إلّا إِسمُهُ وَمَسَاجِدُهُم يَومَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ البِنَاءِ خَرَابٌ مِنَ الهُدىٰ، سُكَّانُها وَعُمَّارُها شَرُّ أهلِ الأَرضِ مِنهُم تَخرُجُ الفِتنَةُ وَإلَيهِم تَأوِي الخَطِيئَةُ**».[١]

٨٠٠٣

---

١. بحار الانوار ١٢٤/٤٤.

القسم الثالث

«وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ ٱلْمَوْعُودُ ٱلَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ ٱلْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ ٱلتَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ ٱلْقَارِعَةُ وَٱلنِّقْمَةُ».

الشرح والتفسير

أسباب شقاء الإنسان

أنذر الإمام ﷺ الجميع في هذا المقطع من الخطبة ودعاهم لتأمل تاريخ الأمم السابقة ويفكروا في أسباب بؤسهم وشقائهم فيعتبروا بذلك حيث قال: «**وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ ٱلْمَوْعُودُ**»، المراد بالهلك في قوله إنّما هلك حسب ما ذهب إلى جمع من شرّاح نهج البلاغة الهلاك المعنوي يعني الضلالة التي ينتج عنها العذاب الأُخروي، ولكن لا يبعد أن تشمل الهلاك المعنوي والأُخروي وكذلك المادي والدنيوي، أي أنّ طول الأمل ونشيان أجل الحياة والغرق في الشهوات، إنّما يفسد الآخرة ويحط من قدر وعظمة الإنسان في الدنيا، وبالتالي تعرضهم لأنواع العذاب الدنيوي من قبيل طوفان قوم نوح وزلزلة قوم لوط والصواعق السماوية التي أصابت الأقوام الأُخرى.

نعم، فتغيب الآجال أحد آثار طول الأمل والذي يعد من أعدى أعداء سعادة الإنسان، لأنّه يلقي بحجاب ضخم على بصيرة العقل ويجعل الهوى حاكماً عليه ويقذف بالإنسان في مستنقع الذنوب والمعاصي، وهذا ما ورد عن النبي الأكرم ﷺ وأمير المؤمنين علي ﷺ: «**وَأَمّا طُولِ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ**»[1]، ويفهم من العبارة: «**حَتّىٰ نَزَلَ بِهِم المَوعُودُ**»، أنّ أُولئك

1. الخطبة ٤٢؛ بحار الانوار ٩١/٧٠.

الأفراد يفيقون في تلك اللحظة، أجل يفيقون، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك، ولذلك قال الإمام عليه السلام: «**اَلَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ اَلْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ اَلتَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ اَلْقَارِعَةُ[1] وَاَلنِّقْمَةُ[2]**».

نعم، فمصدر كل تلك الجنايات والمخالفات التي ورد الكلام عنها في القسم السابق من الخطبة إنّما يكمن في حبّ الدنيا وطول الأمل ونسيان الأجل، الأجل الذي لا رجعة فيه ولا يمكن تدارك ما فرط من الإنسان فيه.

---

١. «قارعة»: من مادة «قرع» على وزن فرع بمعنى ضرب شيء بآخر وتطلق القارعة على كل حادثة مهمّة ومهلكة.

٢. «النقمة»: تعني في الأصل استقباح الشيء بحيث تحصل أحياناً باللسان وأخرى بصورة عقوبة علمية، ومن هنا غالباً ما تستعمل هذه المفردة بمعنى العقوبة.

القسم الرابع

«أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللَّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جَارَ ٱللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَجْرَبِ، وَٱلْبَارِي مِنْ ذِي ٱلسَّقَمِ. وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا ٱلرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ. هُمُ ٱلَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَا يُخَالِفُونَ ٱلدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ».

الشرح والتفسير

سبيل النجاة

تحدّث الإمام ﷺ في هذا القسم السابق عن فئة ضالة ومستبدة غيرت جميع الحقائق وإرتكبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها ولم تتب إلى ربّها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام ﷺ في هذا المقطع سبيل النجاة حتى لا يبتلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال: «**أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللَّهَ وُفِّقَ، وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)**»، نعم، هذه هي الخطوة الأولى من أجل الإهتداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلّ على ذلك بقوله: «**فَإِنَّ جَارَ ٱللَّهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ**».

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهيّة ويبعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر الله: «**وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللّٰهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلَامَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ**»، في إشارة إلى أنّ أُولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة الله سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدرة الله تعالى، أمّا من عرف الله وقدرته فهو يدرك أنّه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعي لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج: «**فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلْأَجْرَبِ، وَٱلْبَارِي**[١] **مِنْ ذِي ٱلسَّقَمِ**»، إشارة إلى أنّ سعادتكم وفلاحكم وسلامتكم في إتباع الحق، وأنّ النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنّه يفر من مرض معدي، أو حسب تعبير القرآن الكريم: ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**﴾[٢].

ثم عرض الإمام ﷺ في الخطوة التالية سبيلاً واضحاً بهدف هداية مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال: «**وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا ٱلرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا ٱلَّذِي نَبَذَهُ**»، والواقع هذا هو أحد طرق معرفة الحق والباطل والذي ينطوي تحت القاعدة المعروفة: «**تعرَفُ الأشياءُ بِأضدادها**»، فالإنسان يجهل معنى العافية ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمة، فقد اعتبر الإمام ﷺ ـ في هذا المقطع من الخطبة كما ورد في العبارة المذكورة ـ التعرف على تاركي الحق ومخالفيه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف: طائفة تركت الحق، وطائفة نقضت ميثاق القرآن، والطائفة الثالثة التي نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوة على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهود الله ومواثيقه، والذي وردت الإشارة

---

١. «الباريء»: من مادة برء على وزن قفل لها معنيان: الأول: بمعنى الخالق والايجاد ومن هنا يقال لله الباريء، والآخر: بمعنى الابتعاد عن الشيء ولذلك تستخدم بمعنى العافية والبعد عن المرض وهذا هو المعنى المراد بها في عبارة الخطبة.

٢. سورة المدثر / ٥٠ ـ ٥١.

إليه في الآية القرآنية الشريفة: **﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ...﴾**[1]، والآية صادقة على الآخرين وإن كانت في الظاهر في بني اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفة هؤلاء التاركين للحق والناقضين لمواثيق الله والمحقرين لكتاب الله، ومعرفة المبادىء التي تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر في آخر قسم من هذه الخطبة من زيادة الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عترة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبي في الأُمة، فقال عليه السلام: «**فَالْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ**».

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام في هذه العبارات القصيرة والعميقة المعنى بأوصاف منها: «**فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ...**»، حيث عندهم علم الله تعالى وسنّة النبي صلى الله عليه وآله، فأينما يحلّون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أوالحكم بمعنى كافة وصاياهم وبيانهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام في أغلب الموارد)، وظاهر على قدر من الرزانة والإخلاص والطهر بحيث يعكس طهارة ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون في تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلومهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقة الدين والقرآن وروحها، في حديث الثقلين: «**...إنّهما لن يفترقا (العترة والقرآن) ما إن تمسّكتم بهما فلن تضلوا...**».

❊❊❊

١. سورة الأعراف / ١٦٩.

تأمّل

معرفة الأشياء بأضدادها

كثيرة هي طرق معرفة الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفة الحق ويتجه قدماً بشجاعة ـ وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام ﷺ في هذه الخطبة والذي يتمثل بمطالعة الأضداد.

فانّ رأى الإنسان المصير الأسود لجماعة تسبح في بحر من الأخطاء والزّلات، أدرك ببساط أنّ الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلي عن الاصول التي اعتمدتها تلك الجماعة، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والطهر من المدنيين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد في عبارة أخرى للإمام ﷺ قالها للحارث الهمداني: «**إنّ دِينَ اللهِ لا يُعرَفُ بِالرّجالِ بَل بِآيَةِ الحَقِّ فَاعرفْ الحقَّ تَعرِفُ أَهلَهُ**»[1]، لكن الطريقان صحيحان، كل في محلّه، فان عرف الحق بوضوح في موضع كان لابدّ من معرفة شخصية الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيىء الطالح، فهنا نعرف الاشخاص بمعيار الحق. وان كان الأفراد معروفين والحق خفي كان لابدّ من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبي جهل، فاننا ندرك بسهولة أنّ عماراً على الحق وأبي جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفة الأشخاص ومعرفة الحق، فهنا ننظر إلى حاشية وأصدقاء أُولئك الأشخاص، فرضاً شككنا في شخص معاوية ورأينا بطانته وحاشيته جماعة من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص وممن طردهم رسول الله ﷺ ومن تبق من أقطاب الجاهلية آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزبدة الكلام هناك عدّة طرق لمعرفة الحق والباطل ولابدّ من استفادة ما يناسب كل مورد من طريق.

80C3

---

١. بحار الانوار ١٧٩/٦.

الخطبة[1] ١٤٨

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عليه السلام

في ذكر أهل البصرة

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبة عن طلحة والزبير واللذان قد إتحدا في الظاهر واتفقا على قتال علي عليه السلام في الجمل، فقد كشف الإمام عليه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنّها وإن اتحدا ظاهرياً، إلّا أنّ ذلك الاتحاد مرحلي ومؤقت، فان تسلّط أحدهما أسقط الآخر، وأشار عليه السلام في المقطع الثاني إلى فتنة البصرة وأصحاب الجمل، وقد دعى الناس للعمل على إخماد نار هذه الفتنة، كما حذر في الختام من ضرورة مراقبة التحركات المشبوهة لناقضي المواثيق (طلحة والزبير وأعوانهما).

---

١. سند الخطبة:
قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة روى هذه الخطبة قبل السيد الرضي أبو مخنف في كتاب «الجمل»، كما رواها باختلاف «لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الاختلاف ليس بقليل) المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغة ٣٣٢/٢)

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو ٱلْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمُتَّانِ إِلَىٰ ٱللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَٱللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا ٱلَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هٰذَا نَفْسَ هٰذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هٰذَا عَلَىٰ هٰذَا. قَدْ قَامَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ ٱلْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ ٱلسُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ. وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ. وَٱللَّهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ ٱللَّدْمِ، يَسْمَعُ ٱلنَّاعِيَ وَيَحْضُرُ ٱلْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!».

الشرح والتفسير

الإتحاد الظاهري والعداء الباطني

كشف الإمام ﷺ في القسم الأول من هذه الخطبة النقاب عن حقيقة في عدم وجود دافع شرعي لطلحة والزبير ـ اللذان أثارا معركة الجمل ـ وليس لهما من همّ سوى الدنيا والاستيلاء على الحكومة، ومن هنا فانّ تحقق لهما ما يريدان سعى كل منهما لإزالة الآخر لينفرد بالحكومة فقال: «**كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو ٱلْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ**».

ثم استدلّ ﷺ على ذلك بالقول: «**لَا يَمُتَّانِ**[1] **إِلَىٰ ٱللَّهِ بِحَبْلٍ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ**[2] **لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!**»، والضبّ هو الحيوان المعروف، وتعتقد العرب بأنّه خالٍ من العاطفة إلى جانب حماقته حتى أنّه ليأكل فراخه ومن هنا ضرب به المثل في العقوق، وقد استشهد الإمام ﷺ بذلك المثل في قوله: «**حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ**»، فهي عبارة غاية في الروعة لمدى العداوة والبغضاء التي يخفيها كل منهما لصاحبه.

---

١. «يمتان»: من مادة «مت» على وزن خط تعني في الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هو المعنى المراد بها في الخطبة.

٢. «ضبّ»: لها عدة معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.

ثم قال ﷺ: «**وَٱللّٰهِ لَئِنْ أَصَابُوا ٱلَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هٰذَا نَفْسَ هٰذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هٰذَا عَلَىٰ هٰذَا**»، والطريف أنّ ما أورده الإمام ﷺ في العبارة السابقة بشأن طلحة والزبير يصدق على جميع الأفراد الذين يتحدون من أجل نيل السلطة دون أن يكون لهم أي دافع إلهي، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ينتصروا، فبمجرّد الانتصار يسعى كل واحد منهم للقضاء على الآخر والتفرد بالسلطة، وشواهد ذلك كثيرة على مرّ العصور وفي كل زمان ومكان، والحال لو كانت الدوافع إلهيّة لدام الإتحاد وربّما اقترح كل السلطة على غيره، وقد إتضحت حقيقة كلام الإمام ﷺ بشأن طلحة والزبير حتى قبل شروع معركة الجمل وتنازعهما على الزعامة، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله في البحث القادم، ولما كانت هذه الخطبة قبل معركة الجمل فقد دعى الإمام الناس إلى الوقوف بوجه ناقضي العهد الذين حملوا رايات معركة الجمل فقال: «**قَدْ قَامَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ، فَأَيْنَ ٱلْمُحْتَسِبُونَ**[1]**! فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ ٱلسُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ**».

والعبارة الفئة الباغية إشارة إلى كل جماعة تقوم بوجه الحق وحكومة العدل، كما يصدق هذا الكلام على أصحاب الجمل، وعلى أعوان معاوية أيضاً، لأنّهم وقفوا جميعاً ضد الحق، ومن هنا جاء في الحديث النبي الأكرم ﷺ لعمّار الذي استشهد في صفين وقتله أعوان معاوية: «**يَا عَمَّارُ تَقتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**»[2].

والمفردة «المحتسبون» إشارة إلى الأفراد الذين يجاهدون حسبة لله ولا ينتظرون سوى ثوابه وأجره.

والعبارة «**فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ ٱلسُّنَنُ...**»، إشارة إلى أنّ سنن النبي الأكرم ﷺ قد عرضت السبل اللازمة للقيام ضد البغاة والعصاة.

العبارة: «**وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ**»، إشارة إلى حديث النبي الأكرم ﷺ لصحبه: «**تُقَاتِلُونَ النَّاكِثِينَ والقَاسِطِينَ والمَارِقِينَ**»[3]، بناءاً على هذا وبالنظر إلى اتضاح الضلال بالنسبة لتلك

---

١. «المحتسب»: من مادة «حسبة» بمعنى الإتيان بالعمل حسبة لله وإرادة الثواب منه سبحانه، ووردت مفردة المحتسب بمعنى المأمور الذي يكلف من الحكومة للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنّه يقوم بالعمل لله، أو أنّ هدفه حساب عمل الناس.

٢. وردت هذه الرواية في أغلب مصادر العامّة ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد ومصادر أخرى (انظر إحقاق الحق ٤٢٢/٨).

٣. تاريخ بغداد ١٨٧/١٣ طبع دار الفكر.

الفئة واتضاح سنن النبي الأكرم ﷺ تجاه مثل هؤلاءالأفراد والنبوءة السريعة التي طرحها النبي الأكرم ﷺ فلم يبق هنالك من مجال للإبهام ولابدّ لكل مؤمن مخلص أن يقف في وجه الباطل.

ثم قال الإمام ﷺ: «**وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ**»، قطعاً لم يرد الإمام ﷺ بها الكلام توجيه الأعمال القبيحة والطائشة لطلحة والزبير، بل يريدالإشارة إلى هذه الحقيقة إلى أن الظلال ليس عبثياً، وعادة ما تكون علّته اختيارية، فالعلّة الأصلية لأغلب الظلال تتمثل في هوى النفس وحبّ الدنيا والجاه والاستبداد والكبر والغرور والحسد، وهذا المعنى واضح تماماً بالنسبة لطلحة والزبير.

والعبارة: «**وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ**»، إشارة إلى أنّ كل ناكث لعهد عادة ما يخلق لنفسه ذريعة ليخدع العوام ويجرهم إليه، كما تذرع طلحة والزبير بدم عثمان على أنّه الخليفة الذي قتل مظلوماً، فيثيروا طائفة من العوام ضد علي ﷺ فيتمكنا من تحقيق أهدافهما المغرضة، بينما كانا من العناصر التي قتلت عثمان، كما مرّ معنا في الخطبة ١٣٧ خيث قال الإمام بشأن طلحة والزبير ومعاوية: «**وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ**».

والعبارة «**ناكث**» إشارة إلى طلحة والزبير حيث بايعا علياً ﷺ في البداية ثم نقضوا البيعة.

ثم إختتم الإمام الخطبة بالإشارة إلى نقطة مهمّة وهى المراقبة وعدم الغفلة عن العدو فقال: «**وَٱللّٰهِ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ ٱللَّدْمِ**[1]**، يَسْمَعُ ٱلنَّاعِيَ وَيَحْضُرُ ٱلْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!**»، إشارة إلى أنّ الزعيم اليقظ لا يسمع أنين المظلومين وتعبئة قوى الشياطين، وقد مضى شبيه هذا المعنى في الخطبة السادسة: «**وَٱللّٰهِ لاَ أَكُونُ كالضَّبُعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إلَيْها طَالِبُهَا، وَيَخْتِلَهَا رَاصِدُها، وَلٰكِنِّي أضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ**».

١. «اللدم»: تعني في الأصل ضرب الشيء بأخر دون شدّة الصوت.

تأمّل

أصدقاء الأمس وأعداء اليوم

العبارة أعلاه تبيّن حقيقة وهى أنّ أصحاب الباطل وإن إتّحدوا في بادىء الأمر من أجل تحقيق أهدافهم، إلّا أنّهم ما إن ينتصروا ويتمكنوا حتى يسعى كل منهم لإزالة الآخر والتفرد بتناول ثمرة شجرة النجاح والنموذج البارز لذلك الإتحاد طلحة والزبير في معركة الجمل والذي يشكل الموضوع الرئيسي لهذه الخطبة. والطريف في الأمر أنّ بوادر هذه المنافسة الهدامة قد لاحت حتى قبل شروع المعركة.

فقد نقل ابن أبي الحديد عن المؤرخين أنّ خلافاً وقع بينهما قبل الجمل بشأن إمامة العسكر، ولمّا إشتد النزاع بينهما تدخلت عائشة فأمرت أن تصلي يوماً محمد بن طلحة وآخر عبدالله بن الزبير حتى تنتهي المعركة[١].

من جانب آخر سأل طلحة عائشة أن يسلم عليه الناس بصفته أميرالمؤمنين، كما سألها الزبير ذلك، فسلّمت عائشة عليهما بأميرالمؤمنين، كما اختلفا في إمرة الجيش فقد أراد طلحة الإمرة، بينما رأى الزبير نفسه الأجدر بها[٢]، وكل هذه الأمور شواهد حيّة على ما أخبر به الإمام عليه السلام في هذه الخطبة حين قال كل واحد منهما يرجو الأمر له ويفكر في القضاء على صاحبه، فليس هناك من دافع إلهي، ولا تؤدّي الدوافع النفسانية سوى إلى الاحتكار دائماً.

---

١. ورد هذا المعنى في مروج الذهب في شرح معركة الجمل وأضاف المسعودي ولم يتم تقسيم صلاة الجماعة بهذه البساطة، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحة والزبير (مروج الذهب ٣٦٧/٢ طبعة دار المعرفة بيروت).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٠/٩.

الخطبة[1] ١٤٩

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ ﷺ

قبل شهادتة ﷺ

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في أسناد الخطبة فانّ الإمام ﷺ خطبها حين كان على أعتاب الشهادة، فقد أوردها على سبيل الوصية إلى جانب النصح والمواعظ، والواقع أنّ الخطبة تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذي لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثاني: وصيّة قصيرة وبليغة عظيمة المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق في المستقبل.

القسم الثالث: الدروس التي ينبغي للناس تعلمها من شهادة الإمام ﷺ كما يشير ﷺ إلى هذه الحقيقة وهى إنني إن رحلت عنكم وخلّفني غيري آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائري؟

ﮏﮐ

---

١. سند الخطبة:
رواها المرحوم الكليني في الكافي ٢٩٩/١؛ والمسعودي في مروج الذهب بصورة مختصرة، وابن عساكر في كتاب مقتل أمير المؤمنين، ويتفق الجميع على أنّ الخطبة بعد ضربة ابن ملجم وقبل شهادة الإمام ﷺ، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغة أسناد الخطبة في قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبة في الرسالة رقم ٣٣ (مصادر نهج البلاغة ٣٤٧/٢).

القسم الأول

«أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، كُلُّ ٱمْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. [وَ] ٱلْأَجَلُ مَسَاقُ ٱلنَّفْسِ؛ وَٱلْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ ٱلْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ، فَأَبَىٰ ٱللّٰهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!».

الشرح والتفسير

إستحالة الهروب من الموت

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة أنّ الفرار من الموت مستحيل، وأبعد من ذلك فانّ الإنسان يستقبل الموت حين فراره، فقال: «أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، كُلُّ ٱمْرِئٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. [وَ] ٱلْأَجَلُ مَسَاقُ[1] ٱلنَّفْسِ؛ وَٱلْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ».

هناك عدّة تفاسير لشرّاح نهج البلاغة للعبارة الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض: المراد من هذه العبارة أنّ الأجل إذا حلّ وجاء أمر الله سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطي نتيجة معكوسة، فما كان مشفياً في الأحوال العادية يصبح سبباً للموت، وقيل في تفسير العبارة أنّ الزمان الذي يصرفه الإنسان من أجل العلاج في مثل هذه الحالات إنّما يقرّبه من آجله[2].

وبعبارة أخرى، فقد شوهد كثيراً وقوع الإنسان في ما يخافه ويحذره، ويدركه ما هرب منه، وعلى ضوء هذا التفسير فانّ الحكم المذكور حكم غالبي وليس كلي.

---

١. «مساق»: مصدر ميمي أو اسم مكان من مادة «سوق» بمعنى الغاية التي يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني، ومنهاج البراعة للخوئي.

ثم قال ﷺ: «**كَمْ أَطْرَدْتُ[١] ٱلْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هٰذَا ٱلْأَمْرِ، فَأَبَى ٱللّٰهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!**».

سؤال

هنا يبرز هذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأنّ الله وحده العالم بالآجل ولا يعلمه أحد[٢]، بينما تظافرت الأخبار التي وردت عن أميرالمؤمنين علي ﷺ أنّه كان يعلم بزمان وفاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولده على الدوام في ليلة شهادته، بل أشار بعبارات مختلفة إلى زمان شهادته حتى خلال شهر رمضان الذي استشهد فيه، وقد ورد في الكافي أنّ الطيور في بيت الإمام ﷺ كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاستناد إلى بعض الروايات[٣]، أنّ حالات المعصومين ﷺ وأولياء الله تعالى مختلفة، فأحياناً يعلمون كل شيء بإرادة الله تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة الله تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتة، فقد شم نبي الله يعقوب رائحة قميص يوسف من مساحة بعيدة (مصر) بينما لم يراه في بئر كنعان، وهناك احتمال أخر ما ذكره الإمام ﷺ قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمة حياة جميع الأفراد، إلّا أنّ هذا القانون الكلي كسائر القوانين الكلية له استثناءات، فما المانع أن يعلم أولياء الله وباذن الله وتعليمه بلحظة موتهم.

وهناك نقطة أخرى هي: إنّ علوم المعصومين ﷺ بالنسبة لمسائل المستقبل على أساس لوح المحو والإثبات وهو قابل للتغيير، أو ما يصلح عليه بالعلم بالمقتضيات، لا العلم بالعلة التامة التي تأبى التغيير، لأنّ ذلك القسم الذي يسمى باللوح المحفوظ مختص بالله تبارك وتعالى، مثلاً جاء في قصة السيد المسيح ﷺ أنّه أخبر عن موت عروس في ليلة زفافها، بينما لم يقع ذلك، وذلك لأنّها تصدقت وحالت الصدقة دون وقوع تلك المصيبة.

وسنتناول شرح هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

---

١. «اطردت»: من مادة «طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيّام طويتها واحداً بعد الآخر.
٢. اصول الكافي، ج ١ باب «أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون» الحديث ٤.
٣. المصدر السابق.

القسم الثاني

«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللّٰهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِـهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هٰذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ ٱلْـمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ ٱلْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا ٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ ٱللّٰهُ لِي وَلَكُمْ!».

الشرح والتفسير

وصيّة الإمام عليه السلام

بيّن الإمام عليه السلام في القسم من الخطبة وصيّته وقد صبّ الإمام عليه السلام فيها عصارة روحه وفكره في تلك اللحظة الحساسة والصعبة التي يوشك فيها على الرحيل فقال: **«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللّٰهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِـهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هٰذَيْنِ ٱلْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ ٱلْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ[1] مَا لَمْ تَشْرُدُوا».**

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمة والذي يشمل الشرك في الذات والصفات وكذلك الشرك في الأفعال، وبعبارة أخرى، كل ميل لما سوى الله سبحانه سواء في العقيدة أو العمل، وكذلك أُريد بالسنّة معناها الواسع الذي يشمل جميع البرامج العبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والواقع هو أنّ العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادة الإنسان،

---

١. «خلاكم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أنّ أول من قال هذه العبارة (قصير بن سعد) غلام (خزيمة) (أحد ملوك العرب) والذي قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقة الملك خذ بثأر حزيمة، فقال: أنّي لي به وإنّه لأسرع من العقاب، فقال له قصير: (اطلب وخلاك ذم)، (شرح نهج البلاغة للبيهقي من علماء القرن السادس، ص٢٣٩ ذيل الخطبة التي نبحثها).

فالإنسان لم يتعلق بما سوى الله ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبّق كافة تعاليم النبي الأكرم ﷺ على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبّه الإمام هذين الاثنين بعمودي الخيمة إن أُقيما فانّ الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبّهها بمصباحين على جانبي الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهي ألا يبقى مجالاً للظلالة مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام ﷺ في مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص في دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصلة الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنّة، والواقع هو أنّ جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت في هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الأُصول العقائدية وحفظ سنة النبي الأكرم ﷺ يشمل جميع التعاليم العلمية والأخلاقية، وإن قال ﷺ أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامة التوحيد وسنّة النبي ﷺ في جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوي القدرات الفكرية والجسمية، فقد قال ﷺ: «**حُمِّلَ كُلُّ آمْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ آلْجَهَلَةِ**»، وهو ذات الأمر الذي أُشير إليه كراراً في الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا...**﴾[١]، وقال في موضع آخر: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا...**﴾[٢].

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق ﷺ أنّه قال: «**يُغفَرُ لِلجَاهِلِ سَبعُونَ ذَنباً قَبلَ أَنْ يُغفَرَ لِلعَالِمِ ذَنبٌ وَاحِدٌ**»[٣]. كما ورد عن الإمام الباقر ﷺ: «**إِنّما يُداقُ العِبادُ فِي الحِسابِ يَومَ القِيامَةِ عَلَىٰ قَدَرِ مَا آتَاهُم مِنَ العُقُولِ فِي الدُّنيا**»[٤]، والواقع أنّ هذا هو مقتضى العدالة في أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسمية للأفراد بنظر الاعتبار في تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام ﷺ: «**رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ**».

---

١. سورة البقرة / ٢٨٦.
٢. سورة الطلاق / ٧.
٣. اصول الكافي ٤٧/١، ح ١.
٤. المصدر السابق /١١.

والواقع هو أنّ كافة أسباب السعادة في ظل هذه الثلاث، فالله سبحانه رحيم قد فتح كافة أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذي أتى به نبي الإسلام ﷺ يتمتع برسوخ لا مثيل له، والإمام ﷺ الذي نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمة الإمام هنا إلى شخص النبي الأكرم ﷺ أو علي ﷺ أو جميع أئمة الإسلام من النبي الأكرم ﷺ حتى آخر الأئمة الإمام المهدي (سلام الله عليهم أجمعين)، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلّف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام ﷺ في الختام إلى نقطة مهمّة ليكمل بها القسم الأول والثاني فقال: «**أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا ٱلْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ ٱللّٰهُ لِي وَلَكُمْ!**»، إشارة إلى أنّكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيرة، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكلة عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خيبر وقلعت بابها، ودافعت عن رسول الله ﷺ في ميادين القتال حين تظافرت علينا الأعداء، وكنت أجندل الأبطال في الجمل وصفين والنهروان، لكنني اليوم لكم عبرة بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم،، سوف ترون مكاني خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبرة لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق في المعنى.

أمّا بشأن المراد من العبارة «**وَغَداً مُفَارِقُكُمْ...**»، هل هو الإخبار عن شهادته في ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذي ورد التعبير عنه في العبارات المتداولة بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شرّاح نهج البلاغة، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفة وسائر كلمات الإمام ﷺ في تلك الحادثة الأليمة وقبلها أنّ المراد الخبر القطعي عن المستقبل القريب، ولا يتنافي ذلك مع العبارة: «**إن تَثبُتِ الوطأةُ...**»، لأنّ مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصة واعتيادية، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿**أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...**﴾[1]. والحال يعلم الله سبحانه أنّ نبيّه ﷺ لا يقتل، فهدف الإمام ﷺ هنا بيان هذا المطلب، أنّي لو بقيت لعفوت عن ضاربي.

---

١. سورة آل عمران / ١٤٤.

القسم الثالث

«إِنْ تَثْبُتِ ٱلْوَطْأَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ ٱلْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، ٱضْمَحَلَّ فِي ٱلْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي ٱلْأَرْضِ مَخَطُّهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً: سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي،وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْبَلِيغِ وَٱلْقَوْلِ ٱلْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ ٱمْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي».

الشرح والتفسير

معرفتي بعد موتي

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة مصيره على فراش الشهادة كما بيّن وضع المسلمين بعده فقال: «**إِنْ تَثْبُتِ ٱلْوَطْأَةُ**[1] **فِي هٰذِهِ ٱلْمَزَلَّةِ**[2] **فَذَاكَ. وَإِنْ تَدْحَضِ**[3] **ٱلْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ**[4] **أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ**[5] **رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، ٱضْمَحَلَّ فِي ٱلْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا**[6]**، وَعَفَا**[7] **فِي**

---

١. «وطأة»: بمعنى محل القدم وتأتي بصيغة كناية بمعنى الضغط الشديد.
٢. «مزلّه»: من مادة «زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.
٣. «تدحض»: من مادة «دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.
٤. «أفياء»: جمع «فيىء» على وزن شيء بمعنى الظل.
٥. «مهاب»: من مادة هبوب بمعنى حركة الرياح ومهاب جمع مهب محل هبوب الرياح.
٦. «متلفق»: بمعنى القطع المتصلة من مادة لفق على وزن لفظ الجمع.
٧. «عفا»: من مادة «عفو» بمعنى ترك، ولكن ماكان ترك الشيء يؤدي إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت في هذه العبارة وأمثالها بمعنى الإندراس.

ٱلْأَرْضِ مَخَطُّهَا[١]». فتاريخ البشر وتجاربنا اليومية تكشف هذه الحقيقة في أنّ الحياة كظلال الأشجار والقدرات كظلال الغيوم تمرّ بشرعة وتزول آثارها إلى الأبد، لكن العجيب عدم التفات الإنسان رغم رؤيته لكل هذه الأمور وكأنّه غير مشمول بهذا القانون.

ثم بيّن هذا المعلم الرباني إثر ذلك وبالنظر إلى علمه بمفارقة الدنيا عاجلاً بعض الدروس والعبر التي يمكن للآخرين الاستفادة منها والتي من شأنها إيقاظهم من غفلتهم فقال: «**وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً**[٢] **سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ**[٣]**، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ**».

ثم استنتج مباشرة: «**لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي**[٤]**، وَخُفُوتُ**[٥] **إِطْرَاقِي**[٦]**، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْبَلِيغِ وَٱلْقَوْلِ ٱلْمَسْمُوعِ**».

حقّاً أنّ الأمر كذلك فالمتحكمون مهما كانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما كانوا صاغين ولكن هناك فارق كبير بين النظر والسماع، فيا لها من عبرة أن ترى ذلك الرجل الشجاع الذي ذاع صيته في الأرجاء وهو الآن طريح الفراش جثة هامدة لا يقوى حتى على تحريك جفن عينيه، كما لا تقوى شفتاه على الحركة وهذا ما ينطوي على أعظم درس وعبرة حيث يشاهد الإنسان بعينه أفول القوة والقدره فيغرق في هالة من التفكير، وهل لواعظ القدرة على إبراز هذا التأثير؟

وأخيراً إختتم الوصيّة بتوديع الناس، ذلك الوداع الأليهم فقال: «**وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ ٱمْرِئٍ مُرْصِدٍ**[٧] **لِلتَّلَاقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي**».

نعم، فحين رحل مظهر العدل ذلك الزعيم الشفيق والرؤوف، وحين غادر الناس تلك

---

١. «مخط»: من مادة «خط» بمعنى محل الخطوط.
٢. «خلاء»: بمعنى خالية.
٣. «حراك»: وحركة لها معنى واحد.
٤. «هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرة على الحركة.
٥. «خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركة.
٦. «اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.
٧. «مرصد»: من مادة «ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.

الكنوز العلمية التي كانت تجري على لسان الإمام ﷺ وحل محلّه جبابرة بـني أُمـية الذي لا يجيدون سوى لغة الظلم والجور ولا يفكرون سوى بأهوائهم وغرائزهم الحيوانـية وأراقـوا دماء الأبرياء، آنذاك فهم المسلمون من فقدوا، وأية خسارة تكبدوا.

وبناءاً على تقدم فالتعبير بغد لا يثير حسب ظاهر العبارة إلى لعالم البرزخ ولا القيامة (كما ذهب إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة)، بل إشارة إلى الأيّام السوداء والمريرة التي مرّت على المسلمين بعد شهادة أميرالمؤمنين عليﷺ.

والعبارة «**مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي**»، سواء كانت بمعنى لقاء ملائكة الموت أو الله سبحانه فهى تفيد عدم تعلق روحه المقدّسة سلام الله عليه بهذا العالم المادي الزائل، بل كان متعلقاً بالعالم العلوي والملائكة والذات الإلهيّة المقدّسة، وضربة ابن ملجم كانت المقدمة لذلك الفوز العظيم ولقاء ربّ الكعبة، والشاهد الناصع على ذلك قوله ﷺ حين ضرب: «**فُزتُ وَرَبُّ الكَعبَةِ**».

8003

الخطبة[1] ١٥٠

وَمِنْ خُطبَةٍ لهُ ﷺ

يومي فيها إلى الملاحم ويصف فئة من أهل الضلال

نظرة إلى الخطبة

تتألف الخطبة في الواقع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن فئة ظلت الطريق القويم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامة أهل البيت ﷺ الذين يرون الفتن بمصابيح الهداية وينهضون بهداية الأُمة، الإمامة والزعامة التي تذلل الصعاب وتحرر الأمم.

القسم الثاني: تحدث عن ضعاف الإيمان الذين يسبحون في الفتن والظلال إثر إتباع أهواء النفس، فئة أخرى راسخة الإيمان وهي تجابه الكفر والشرك وقد نالت القرب الإلهي.

القسم الثالث: الذي أشار إلى الأفراد الذين تراجعوا القهقري بعد رسول الله ﷺ وقطعوا أواصر الإيمان وجانبوا أولياء الله سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا أُسس الولاية وحولوها إلى غير موضعها.

---

١. سند الخطبة:
السند الوحيد الذي ورد في كتاب مصادر نهج البلاغة هو كتاب المسترشد للطبري الذي نقل أقساماً من أخر هذه الخطبة باختلاف، ويفهم من رواية الطبري أنّ هذه الخطبة أطول مما نقل المرحوم السيد الرضي وقد إكتفى السيد الرضي ﷺ حسب طريقته ببعض مقاطعها (مصادر نهج البلاغة ٣٣٧/٢).

القسم الأول

«وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ ٱلْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ ٱلرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ ٱلْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ ٱلْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمِ، هٰذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَا تَعْرِفُونَ. أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَىٰ مِثَالِ ٱلصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ عَنِ ٱلنَّاسِ لَا يُبْصِرُ ٱلْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ ٱلْقَيْنِ ٱلنَّصْلَ تُجْلَىٰ بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَىٰ بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ ٱلْحِكْمَةِ بَعْدَ ٱلصَّبُوحِ!».

الشرح والتفسير

إنتظام كل شيء في ظل وجوده

كما ورد سابقاً فانّ هذه الخطبة بالمجموع تتكهن بحوادث المستقبل وتفيد القرائن والعبارات الواردة فيها، أنّ الإمام ﷺ قد أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدي ﷺ ومن ثم قيامه المبارك.

فقد قال الإمام ﷺ: «**وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ ٱلْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ ٱلرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ[1]، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ ٱلْغَدُ**».

---

١. «مرصد»: من مادة رصد على وزن «صمد» تعني في الأصل مراقبة الشيء، ويطلق المرصد على الشيء الذي يراقب وينتظر.

ثم خاض الإمام ﷺ في ذكر الدليل لترك الاستعجال فقال: «**فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ ٱلْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ**[١] **غَدٍ**»، إشارة إلى الانتصارات الموعودة بعد الفتن (لاسيّما ظهور المهدي ﷺ الذي وردت الوعود الصريحة في عصر النبي بشأن بسط العدل والقسط في كافة أنحاء العالم)، وفي عدم استعجالها وذلك لأنّ لكل شيء زمان وشرائط، وما لم تحصل الشرائط فهى كالثمار الخام وتقطف من الشجرة فلا يؤدّي ذلك سوى إلى الندم.

ثم خاطب الناس قائلاً بأنّ الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطة الظلمة وزيادة الضغط على المظلومين): «**يَا قَوْمِ، هٰذَا إِبَّانُ**[٢] **وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَا تَعْرِفُونَ**».

ثم تحدّث بصورة أوضح عن هذا الظهور العظيم فقال: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو**[٣] **فِيهَا عَلَىٰ مِثَالِ ٱلصَّالِحِينَ**»، ثم تطرق في مواصلته لحديثه إلى برامج ذلك المصلح الكبير بعبارات قصيرة عميقة المعنى، فقال: «**لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً**[٤]**، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقّاً، وَيَصْدَعَ**[٥] **شَعْباً**[٦]**، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ عَنِ ٱلنَّاسِ لَا يُبْصِرُ ٱلْقَائِفُ**[٧] **أَثَرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ**».

فهذه العبارات تنطبق تماماً على قضية ظهور المهدي ﷺ، لأنّه يقطع أغلال الأسر ويطلق المظلومين ويكسر شوكة الظالمين ويفرق جمعهم، فهو يعيش لسنوات في الخفاء بحيث يعجز أعظم الباحثين عن العثور عليه، وقد أورد البعض من شرّاح نهج البلاغة عدّة تفاسير

١. «تباشير»: بمعنى البشارة وأوائل كل شيء (والذي يشير في الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.
٢. «أبان»: بمعنى بداية ووقت كل شيء.
٣. «يحذو»: من مادة حذو على وزن حذف بمعنى الاتباع.
٤. «ربق»: بكسر فسيكون حبل فيه عدّة هرا،كل عروة ربقة تشدّ فيه البهم.
٥. «يصدع»: من مادة «صدع» تعني في اللغة مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكمة، كما وردت بمعنى الاظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق.
٦. «شعب»: بمعنى جماعة عظيمة من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الأمّة.
٧. «قائف»: من مادة «قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشيء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أوالأفراد، وهذا هو معنى معرفة القيافة.

للعباره، وحيث لا يجدر الالتفات إليها فاننا نعزف عن ذكرها.

والجدير بالذكر أنّ شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعروف بتعصبه بالنسبه لأغلب المسائل المرتبطة بالإمامة، صرّح في شرحه للعبارة المذكورة: «**وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ**»، إلى أنّ المراد بها مهدي آل محمد ﷺ، كما ترى إنطباق سائر الصفات المذكورة عليه، وإن كان اعتقاد العامّة بالنسبة للإمام المهدي ﷺ أنّه يولد في آخر الزمان[1].

ثم أشار في ختام هذا المقطع من الخطبة إلى أصحاب الإمام المهدي ﷺ وأوصافهم: «**ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ[2] فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ[3] النَّصْلَ تُجْلَىٰ بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَىٰ بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ[4] كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ!**».

ويستفاد من العبارات إلى أنّ أصحاب الإمام المهدي ﷺ هم من الرجال الشجعان والعلماء الذين أعدوا سلفاً وعملية بنائهم مستمرة متواصلة، وقلوبهم نابضة بآيات القرآن وتفسير كلمات ا سبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون إستعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذي أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلك بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذة الذين أمروا باعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحة لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنّهم أفراد أعدوا للمساعدة في هذه الثورة العظيمة حتى وصفهم ابن أبي الحديد بالعرفاء، فمن جمع فيهم الزهد والحكمة والشجاعة فهم أصحاب ولي الله الذي إصطفاه[5].

ويفهم ممّا مرّ معنا في هذا القسم من الخطبة أنّالإمام ﷺ قد بشّر المسلمين بفجر مضيء بعد تلك الظلمات، وهو الفجر الذي يأتي به ولده الميمون المهدي (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٨/٩.
٢. «ليشحذن»: من مادة «شحذ» تعني في الأصل حدّ السكين، إلّا أنّها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.
٣. «القين»: بمعنى الحداد، ولهذه المفردة معنى مصدري يعني الحدادة والإعداد.
٤. «يغبقون»: من مادة غبوق بمعنى يسقو بالماء في مقابل صبوح بمعنى يشرب وقت الصباح ومصدرها غبق على وزن غبن.
٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٩/٩.

تأمّل

قطعية قيام المهدي الموعود ﷺ

وردت في هذه الخطبة الشريفة في الفصل الشابق ـ كسائر خطب نهج البلاغة ـ البشارة بظهور الإمام المهدي ﷺ، البشارة التي وصلتنا من خلال الروايات المتواترة عن رسول الله ﷺ، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكري، حتى سطر أبرز علماء العامّة كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدي ﷺ [1].

ويستفاد من هذه الخطبة كأغلب روايات النبي الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت ﷺ أمران:

الأول: أنّ هذا الظهور المقدّس بهدف إزالة بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون في زمان يعم فيه الفساد العالم، أي يملّ الناس الظلم والجور وتغلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشرية فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلك الحكومة الإلهيّة.

الثاني: أنّ أصحاب المهدي ﷺ وبهدف إجراء هذا المشروع العالمي الإنساني العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لإمتثال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري في مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّى تَمتَلأَ الأَرضُ ظُلمَاً وَعُدواناً، قال: ثُمَّ يَخرُجُ رَجلٌ مِنْ عِترَتِي أَو مِن أهلِ بَيتِي يَملأُها قِسطاً وَعَدلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلماً وَعُدواناً**» [2].

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف في سنن أبي داود [3].

ﮂﮃ

١. ومن ذلك كتاب للعالم المعروف الشوكاني تحت عنوان التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر (راجع كتاب نفحات القرآن ٤٢٣/١٠).

٢. مسند أحمد ٣٦/٣.

٣. سنن أبي داود ١٥٢/٤.

القسم الثاني

منها: «وَطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ؛ حَتَّى إِذَا ٱخْلَوْلَقَ ٱلْأَجَلُ، وَٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَىٰ ٱلْفِتَنِ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَىٰ ٱللّٰهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي ٱلْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ ٱلْقَضَاءِ ٱنْقِطَاعَ مُدَّةِ ٱلْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَىٰ أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ».

الشرح والتفسير

خصائص أنصار النبي ﷺ

اختلف شرّاح نهج البلاغة في هذا القسم من الخطبة وذلك لأنّ الضمائر التي وردت في هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمة، ومن هنا قال بعض الشرّاح بوجود تقدير في العبارات، واعتقدوا بأنّ عدم الإنسجام هذا يرتبط إختيار السيد الرضي ﵀، فلعل عدم الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبة، على كل حال ما يبدو مناسباً في تفسير هذا القسم هو أنّ الإمام ﵇ نظر إلى ناس العصر الجاهلي ومن ثم عصر الظهور النبي الأكرم ﷺ، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون، وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى: «**وَطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ**[1]».

نعم، فأحياناً يترك الله الأفراد الذين يصرون على سلوك سبيل العصيان والطغيان ليبلغوا قمة الفضحية فيستوجبوا العقاب الإلهي.

---

1. «غير»: جمع «غيرة» بكسر ففتح بمعنى حوادث الدهر والتغيرات التي توجب تغير النعم، وقال البعض غير مفرد ولا جمع.

وقد أشارت الآشارت القرآنية إلى هذه الطائفة في عدّة موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدّث عن الطائفة الثانية والثالثة فقال: «**حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ**[1] **الْأَجَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ، وَأَشَالُوا**[2] **عَنْ لَقَاحِ**[3] **حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ**».

وهكذا ميّز هذه الطوائف الثلاث التي لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شرّاح نهج البلاغة إلى قسمين، والعبارة: «**وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ...**»، اعتبروها إشارة إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقية تجاه بعض الفتن في زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعبارة: «**لَمْ يَمُنُّوا...**» معطوفة عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شرّاح نهج البلاغة بشأن هؤلاء القوم ومن هم أولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفي أي وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك هو زمان بني أُمية الذين يتسلطون باديء الأمر على كافة البلاد الإسلامية ويطردون الأخيار الصالحين من الساحة ويختفون أصوات المظلومين، ولكن لا تمرّ مدّة حتى تقوم طائفة ضدهم وتطيح بسلطانهم وتقذف بهم في مزبلة التاريخ.

ويرى البعض الآخر أنّهم أنصار الإمام المهدي عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والإبتعاد عن الله سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلاً بعد أنّ تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد في المقطع الآخر يبدو أنّها إشارة إلى ناس يعيشون في الجاهلية وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثلة من الصالحين التي تهب لنصرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فتصحي بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام في كل مكان.

والعبارة: «**حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ...**»، تعبير غاية في الروعة تشير إلى أنّ الجهاد الإسلامي لابدّ أن يبتني على العلم والجهاد الثقافي مقدم على الجهاد العسكري.

---

١. «اخلولق»: من مادة «خلق» أحد معانيها القدم، وتعني هنا الانتهاء لأنّ لازمة القدم انتهاء العمر الشيء.
٢. «اشالوا»: من مادة «شول» على وزن قول تعني في الأصل رفع الشيء كرفع الحيوان لذيله، وتعني هنا الكف عن القتال.
٣. «لقاح»: تعني بداية الحرب.

القسم الثالث

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ ٱللّٰهُ رَسُولَهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ ٱلسُّبُلُ، وَٱتَّكَلُوا عَلَىٰ ٱلْوَلَائِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ ٱلرَّحِمِ، وَهَجَرُوا ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا ٱلْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي ٱلْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي ٱلسَّكْرَةِ عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ».

الشرح والتفسير

العودة إلى القيم الجاهلية

واصل الإمام ﷺ بحثه السابق عن العصر الجاهلي ومن ثم زمان قيام رسول الله ﷺ وإنبثاق الدعوة الإسلامية، ليتحدث هنا عن العصر الذي يعقب النبي الأكرم ﷺ حيث رسم صورة واضحة عنه وأزاح الستار ليكشف الحقائق فقال: **«حَتَّى إِذَا قَبَضَ ٱللّٰهُ رَسُولَهُ صَلَّى ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ[1] ٱلسُّبُلُ، وَٱتَّكَلُوا عَلَىٰ ٱلْوَلَائِجِ[2]، وَوَصَلُوا غَيْرَ ٱلرَّحِمِ، وَهَجَرُوا ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ».**

المراد من العبارة: **«رَجَعَ قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلْأَعْقَابِ»**، العودة إلى الجاهلية وإحياء سنن ذلك الزمان والذي ظهر للأسف في المجتمع الإسلامي بعد رسول الله ﷺ، فقد استحوذ الطالحون على

1. «غالتهم»: من مادة «غول» على وزن قول تعني في الأصل الفساد الذي ينفذ في الشيء بصورة خفية، ومن هنا يقال غيلة للأغتيال والقتل السري، ووردت هذه المفردة بمعنى الهلكة والتضاد بعوامل خفية، ولما كانت الضلالة بمعنى الهلكة المعنوية فقد جاءت بهذا المعنى وهو المراد في العبارة.
2. «ولائج»: جمع «وليجة» بمعنى نظير ومثيل وشبه وخاصة الرجل من أهله.

مختلف المناصب وأقصى الصالحون وبرز حبّ الدنيا وأصبح بين المال العائد لجميع المسلمين تحت تصرف طبقة معينة.

والعبارة: «**وَغَالَتْهُمُ ٱلسُّبُلُ**»، إشارة إلى اختلاف الآراء الذي ظهر بعد النبي الأكرم ﷺ وقد فسّر العديد من الأفراد محكمات الإسلام على ضوء ميولهم ومنافعهم الشخصية، وهذا ما أدّى إلى ضلالة الكثير من الناس، وهي الضلالة التي عبّر عنها الإمام بالهلكة.

والمراد بالعبارة: «**وَٱتَّكَلُوا عَلَىٰ ٱلْوَلَائِجِ**» أنّ جماعة من المسلمين قد إختارت المنافقين بطانة لها.

والعبارة: «**وَصَلُوا غَيْرَ ٱلرَّحِمِ**»، إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...**﴾[1].

والعبارة: «**وَهَجَرُوا ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ**»، تأكيد آخر على هذا المعنى في أنّهم مأمورون بمودة أهل البيت عليهم السلام واتّباع منهجهم، وإلّا أنّهم تركوهم واتبعوا غيرهم.

ثم خاض الإمام عليه السلام بصراحة أبعد بشأن الخلافة وتغيير أساسها فقال: «**وَنَقَلُوا ٱلْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ**[2] **أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ**»، رغم أنّ النبي الأكرم ﷺ عين خليفته مراراً صراحة وكناية فقال، تمسكوا بالقرآن والعترة، لكنّهم هدّموا هذا البنيان ونقلوه إلى موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى صفات العامل الأصلي وراء ذلك التغيير فقال: «**مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ**[3]. **قَدْ مَارُوا**[4] **فِي ٱلْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي ٱلسَّكْرَةِ عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ**».

فقد بيّن الإمام عليه السلام هذه الصفات الخمس لهم ليشير إلى انحراف أفكارهم وأعمالهم من

---

١. سورة الشورى / ٢٣.

٢. «رص»: بمعنى الصاق شيء بآخر ويطلق المرصوص على كل بناء محكم، ورص العبارة المذكورة بمعنى مرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبيل إضافة الصفة على الموصوف يعني الأساس المحكم للولاية.

٣. «غمرة»: من مادة غمز على وزن أمر بمعنى إزالة آثار الشيء، ثم اطلق على الماء الوفير الذي يغطي شيئاً ويزيل آثاره، وفي الخطبة إشارة إلى الأفراد الذين غطوا في الغفلة والضلالة.

٤. «ماروا»: من مادة «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعة والاضطراب.

الجذور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون في الدنيا ومجانبون لدين الحق، وقد شبّههم الإمام عليه السلام بآل فرعون، وأحدى صفات آل فرعون أنّهم قسموا المجتمع إلى قسمين: الأقباط والأسباط، أو بعبارة أخرى آل فرعون وبني اسرائيل، وقد تمتع الفريق الأول بكافة الامتيازات في البلاد (مصر) ومرغوا أنوف الفريق الثاني بالتراب، فكانوا يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وملأوا الأرض فساداً: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

فقد اعتمد خط النفاق الجاهلي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات السنة الفرعونية، فقد اقتصرت كافة إمتيازات البلاد الإسلامية على بني أُمية ولم يكن نصيب شيعة علي عليه السلام سوى القتل «تحت كل حجر ومدر» والتشريد والحبس والتعذيب، وقد ملؤا العالم الإسلامي بالفساد.

والعبارة: «مُنْقَطِعٍ إِلَىٰ الدُّنْيَا...»؛ إشارة إلى أنّ طائفة منهم قد أقبلت علانية على الدنيا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، كما ذكر ترفهم وبذخهم بحياة كسرى والقيصر، ويبدون أنّ من بين حاشيتهم ممن لا يبدي علاقة ظاهرية بالدنيا لكنه باع دينه بدنيا غيره ووضع له الأحاديث التي تصّرح بفضله ونسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ووجه أعماله القبيحة، ومصداق ذلك واضح للجميع.

تأمّل

مصير جاحدوا الولاية

تعدّ هذه الخطبة من أقوى الخطب التي تدافع عن ولاية أهل البيت عليهم السلام وإن مرّ عليها بعض شرّاح نهج البلاغة مرور الكرام، فقد أعلن الإمام عليه السلام صراحة وجود حركة رجعية بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأساسها إسقاط ولاية أهل البيت عليهم السلام وضرب الوصايا المؤكدة للنبي

---

١. سورة القصص / ٤.

الأكرم ﷺ بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها يتمثل بـ «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصايا النبي الأكرم ﷺ لمصلحة المسلمين، ولكن على كل حال فانّ مؤججي نيران تلك المعركة هي العناصر المعروفة في الجاهلية وخصوم الدعوة كأبي سفيان وأعوانه الذين نفذوا تدريجياً إلى الخلافة الإسلامية وتقدموا إلى الصفوف الأمامية بعد أن كانوا من المؤخرين، فسيطروا على كل شيء وإرتكبوا من المفضائع ما ليس له مثيل في التاريخ أو قل مثيله، لكن الخطبة تشير بصورة دقيقة إلى نهجهم ومسارهم وبالتالي عاقبتهم.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد المعروف بتعصبه في مسألة خلافة النبي الأكرم ﷺ والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحة ليقول بأنّ الإمام ﷺ قصد بهذه الخطبة مسألة الخلافة والإمامة غير أنّه سعى بتكلف ليراها مختصة بزمان بني أمية، ثم يفصل العبارة: «**حَتَّى إِذَا قَبَضَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ**» عن «**رَجَعَ قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلْأَعْقَابِ**»، ويفسّرها لما بعد أربعين سنة[1]، وهو الضعف الذي لا يخفى على أحد، وذلك لأنّ صريح كلام الإمام ﷺ هو أنّ هذه الحركة على الأعقاب قد بدأت مباشرة بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ، والتاريخ يشهد بأنّ الجنايات بني أُمية جذور في عصر الخلفاء والطريف في الأمر أنّ هذه الإشارة وردت في «صحيح البخاري» الذي يعتبر من المصادر الروائية المعتبرة لدى العامّة في أنّ النبي الأكرم ﷺ أخبر عن الحوادث الأليمة من بعده، حيث قال: «**يَرِدُ عَلَيَّ الحَوضَ رِجَالٌ مِنْ أَصحَابِي فَيُحَلَّؤونَ عَنْهُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصحَابِي، فَيَقُولُ، إِنَّكَ لا عِلمَ لَكَ بِمَا أَحدَثُوا بَعدَكَ إِنَّهُم إِرتَدُّوا عَلَى أَدبَارِهِم القَهقَرىٰ**»[2]. والعبارة إرتدوا جديرة بالتأمل.

والجدير بالذكر أنّه وردت عدّة روايات بهذا الخصوص وفي هذا الباب في صحيح البخاري والتي تدلّ جميعاً على قلق النبي الأكرم ﷺ بعد رحيله من أعمال طائفة من أصحابه، وهذا شاهد بيّن على ما ورد في هذه الخطبة بشأن الأحداث الأليمة بعد رحيل النبي ﷺ، والواقع هو أنّ النبي الأكرم ﷺ أراد بهذا البيان تحذير أصحابه في أن يراقبوا أنفسهم وأنّهم

---

١. يمكن الوقوف على شرح كلام ابن أبي الحديد واعترافاته وتوجيهاته الضعيفة في شرح نهج البلاغة ١٣٤/٩.

٢. صحيح البخاري ٢١٧/٨، ح ١٦٥ (باب ما جاء في حوض النبي).

مؤاخذون يوم القيامة على أي خلاف يصدر منهم فيسعوا لأن لا يكونوا من تلك الطائفة.

حسن الختام

انتهى المجلد الخامس من هذا الكتاب بالخطبة المأة والخمسين وهى نهاية رائعة حيث تتحدث عن ولاية أهل البيت عليهم السلام في أيّام الولاية، الولاية بفضلها الصراط المستقيم وسبيل النجاة والمانعة من كل انحراف وزلل.

اللّهم ثبتنا على ولايتهم، واحشرنا بولايتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنّك حميد مجيد، وبالإجابة جدير وعلى كل شيء قدير.

نهاية المجلد الخامس

محرم الحرام ١٤٢٤

الفهرس

الخطبة المأة وإحدى عشرة

نظرة إلى الخطبة ٥

القسم الأول: الدنيا الغرارة! ٧

القسم الثاني: الدنيا كل يوم بلباس ١١

القسم الثالث: الدنيا سند هش خاوي! ١٥

القسم الرابع: تأملوا الماضي قليلاً ١٩

القسم الخامس: الاعتبار بالموتى ٢٥

تأمّلان ٣٠

١ ـ سبل مواجهة التعلق بالدنيا ٣٠

٢ ـ الردّ على سؤال ٣٢

الخطبة المأة واثنتا عشرة

نظرة إلى الخطبة ٣٣

أينما تكونوا يدرككم الموت ٣٥

تأمّلان ٣٦

١ ـ ملك الموت أم ملائكة الموت ٣٦

٢ ـ كيفية قبض الأرواح ٣٧

الخطبة المأة وثلاثة عشرة

نظرة إلى الخطبة ٣٩

القسم الأول: التحذير من الدنيا ٤١

القسم الثاني: صفات الزهّاد في الدنيا ٤٥

القسم الثالث: العود على ذمّ أصحاب الدنيا ٤٩

الخطبة المأة وأربعة عشرة

نظرة إلى الخطبة ٥٣

القسم الأول: الثقة القيّمة ٥٥

تأمّل ٥٨

أُسس الموفقية والنجاة ٥٨

القسم الثاني: أعظم الفضائل ٥٩

القسم الثالث: العبر والاعتبار ٦٣

القسم الرابع: الحرص على الدنيا ٦٩

تأمّلات ٧٥

١ ـ غرور عن بعد ورعب من قرب ٧٥

٢ ـ الدنيا وآراء الناس ٧٦

٣ ـ كيف نبحث عن سعادة الآخرة في الدنيا؟ ٧٧

الخطبة المأة وخمسة عشرة

نظرة إلى الخطبة ٧٩

القسم الاوّل: الأمل بالله في القحط والجفاف ٨١

القسم الثاني: اللّهم أمطرنا بوابل رحمتك ٨٥

تفسير ما في هذه الخطبة من الغريب: ٨٨
تأمّلان ٨٩
١ ـ صلاة الاستسقاء ٨٩
٢ ـ الذنب وزوال البركة ٩٠

الخطبة المأة وسادسة عشرة

نظرة إلىٰ الخطبة ٩٣
القسم الاوّل: عدم التواني في الجهاد ٩٥
القسم الثاني: الآفات المظلمة من ورائكم ٩٧
مظلومية أمير المؤمنين علي عليه السلام ٩٩
القسم الثالث: الانتقام الإلهي ١٠١
من هو الحجاج؟ ١٠٣

الخطبة المأة وسبعة عشرة

نظرة إلىٰ الخطبة ١٠٥
الفكر والاعتبار ١٠٧

الخطبة المأة وثامنة عشرة

نظرة إلىٰ الخطبة ١٠٩
الأصحاب الأوفياء ١١١
الثناء على الأصحاب: ١١٢

الخطبة المأة وتاسعة عشرة

نظرة إلىٰ الخطبة ١١٥

القسم الأول: المخلّفون الضعفاء والجهّال ١١٧
القسم الثاني: لولا رجآء الشهادة ١٢١
القلوب الواعية ١٢٣

الخطبة المأة وعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٢٥
المواعظ القيمة ١٢٧

الخطبة المأة والحادي والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٣٣
القسم الأول: الداء وليس الدواء ١٣٥
القسم الثاني: إخوتي في الجهاد ١٣٩
القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان ١٤٣

الخطبة والثانية والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٤٥
القسم الأول: كيف وقعتم في فخ العدو ١٤٧
نبذة عن شخصية معاوية: ١٥١
القسم الثاني: بذلنا ما في الوسع من أجل الوحدة ١٥٣

الخطبة المائة والثلاثة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٥٥
القسم اول: شكر القدرة ١٥٧
الشهادة عرس الأبطال: ١٥٩

القسم الثاني: عاقبة السوء ١٦١

الخطبة المأة والرابعة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٦٣
القسم الأول: سبع وصايا في فنون القتال........ ١٦٥
ألقسم الثاني: الجنّة تحت ظلال السيوف ١٧١
القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو ١٧٥

الخطبة المأة والخامسة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٧٩
القسم الأول: الردّ على الخوارج........ ١٨١
قضية التحكيم:........ ١٨٣
القسم الثاني: لستم من أهل الجهاد ١٨٧
تأمّلان........ ١٩١
١ ـ عهد صفين ١٩١
٢ ـ حوار الإمام ﷺ مع الخوارج ١٩١

الخطبة المأة والسادسة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٩٥
المنصب والعدالة........ ١٩٧
بحث في اسلوب تقسيم العطاء:........ ١٩٩

الخطبة المأة والسابعة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٠٣

القسم الأول: العنف الهمجي للخوارج ٢٠٥
تأمّلات ٢٠٧
١ـ الخوارج وتكفير أهل الذنوب ٢٠٧
٢ـ جانب من جنايات الخوارج ٢٠٨
٣ـ الرد على سؤال ٢٠٩
القسم الثاني: شر الناس ٢١١
تأمّلات ٢١٤
١ـ الحذر من الإفراط والتفريط ٢١٤
٢ـ يد الله مع الجماعة ٢١٥
٣ـ شرار الخلق ٢١٥
القسم الثالث: انحراف الحكمين ٢١٩
تأمّل ٢٢١
دروس التحكيم ٢٢١

الخطبة المأة والثامنة والعشرون

نظرة إلى الخطبة ٢٢٣
القسم الأول: الفتنة المرعبة بالمرصاد ٢٢٥
تأمّل: قيام صاحب الزنج ٢٢٧
القسم الثاني: نبوءة أخرى ٢٣١
فتنة المغول ٢٣٣
القسم الثالث: الغيب لله ولكن... .... ٢٣٥
وهنا لابدّ من طرح هذه الأسئلة: ٢٣٧

علم الغيب في الآيات والروايات: ٢٣٨

الخطبة المأة والتاسعة والعشرون

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٤١
القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعي........ ٢٤٣
القسم الثاني: أين الأخيار؟........ ٢٤٧
شكوى أهل الزمان: ٢٥٠

الخطبة المأة والثلاثون

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٥١
القسم الأول: أبو ذر؛ بطل مقارعة الفساد........ ٢٥٣
تأمّلات........ ٢٥٥
١ ـ من هو أبو ذر؛ ٢٥٥
٢ ـ أبو ذر؛ والاشتراكية........ ٢٥٨
٣ ـ العاقبة المريرة لأبي ذر........ ٢٦٠
٤ ـ كلمات المودّعين لأبي ذر ٢٦١

الخطبة المأة والحادية والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٢٦٣
القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار........ ٢٦٥
العوامل الرئيسية للفشل ٢٦٧
القسم الثاني: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل ٢٦٩
القسم الثالث: شرائط حكّام العدل ٢٧٣

آفة الحكومات: ٢٧٥

الخطبة المأة والثانية والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٢٧٧
القسم الأول: صفات الله الخاصة ٢٧٩
القسم الثاني: نزول الموت؟ ٢٨١
القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا ٢٨٥
نتيجة الخطبة: ٢٨٦

الخطبة المأة والثالثة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٢٨٩
القسم الأول: انقياد ما في الدنيا لله ٢٩١
اسجام الآيات والروايات ٢٩٢
القسم الثاني: إعجاز القرآن ٢٩٥
القرآن الناطق ٢٩٦
القسم الثالث: رسالة خاتم الأنبياء ﷺ ٢٩٧
القسم الرابع: الدنيا غاية بصر الأعمى ٢٩٩
التعامل مع الدنيا ٣٠٠
القسم الخامس: أهميّة القرآن ودور عبادة الدنيا في الصراعات ٣٠٨

الخطبة المأة والرابعة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٣١١
الحضور الخطير ٣١٣

تأمّلات ٣١٥
١ـ الردّ على سؤال ٣١٥
٢ ـ شبهة أخرى ٣١٦
٣ـ الأمانة في الاستشارة ٣١٦
٤ـ إستنتاج خاطىء ٣١٧

الخطبة المأة والخامسة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٣١٩
أنت عاجز ٣٢١
سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق ٣٢٢

الخطبة المأة والسادسة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٣٢٣
أنصف المظلوم من الظالم ٣٢٥

الخطبة المأة والسابعة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٣٢٧
القسم الأول: الحاقدون الظالمون ٣٢٩
القسم الثاني: إصراركم على البيعة ٣٣٣
القاتل يطالب بالثأر ٣٣٤

الخطبة المأة والرابعة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٣٣٧
القسم الأول: خصائص الإمام المهدي عليه السلام ٣٣٩

القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبة آخر الزمان ٣٤١
القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموي ٣٤٣

الخطبة المأة والتاسعة والثلاثون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٤٧
تحذير من الحوادث المستقبلية ٣٤٩
جذور الفساد ٣٥١

الخطبة المأة والأربعون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٥٣
القسم الأول: التغابي عن عيوب الذات ٣٥٥
القسم الثاني: اقتفاء العيوب جحود عظيم ٣٥٧
الغيبة والبحث عن العيوب آفة المجتمعات الإنسانية ٣٥٨

الخطبة المأة والحادية والأربعون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٦٣
المسافة بين الحق الباطل ٣٦٥
درس أخلاقي رفيع ٣٦٧

الخطبة المأة والثانية والأربعون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٦٩
القسم الأول: المعروف في موضعه ٣٧١
القسم الثاني ٣٧٧

الخطبة المأة والثالثة والأربعون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٧٧

القسم الأول: درس في التوحيد والأخلاق ٣٨٠
القسم الثاني: الذنب وقلّة البركة ٣٨١
جانب من فلسفة البلاء ٣٨٢
القسم الثالث: إلهي أمطرنا مطراً مباركاً ٣٨٥
سل الله كل شيء ٣٨٨

الخطبة المأة والرابعة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٣٨٩
القسم الأول: فلسفة الإمتحان الإلهي ٣٩١
القسم الثاني: منزلة الولاية ٣٩٥
قبسات من علم علي عليه السلام ٣٩٦
رواية أنّ الأئمّة من قريش ٣٩٨
منزلة بني هاشم في الإسلام ٣٩٩
القسم الثالث: هؤلاء الجفاة يحرقون الأخضر واليابس ٤٠١
القسم الرابع: دعاة الحق وأتباع الشيطان ٤٠٣

الخطبة المأة والخامسة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٤٠٥
القسم الأول: تضارب نعم الدنيا ٤٠٧
القسم الثاني: موت السنن بظهور البدع ٤١١

الخطبة المأة والسادسة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٤١٥

القسم الأول: الالتصاق بمركز الدولة ٤١٧
فائدة: ٤٢٠
القسم الثاني: الكثرة لا تسبب النصر ٤٢١
معركة القادسية ونهاوند ٤٢٢

الخطبة المأة والسابعة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٤٢٥
القسم الأول: تجلي الله لعباده في القرآن ٤٢٧
كيفية تجلى الله في القرآن ٤٢٩
القسم الثاني: لا يبقى من القرآن سوى اسمه ٤٣١
تأمّلان: ٤٣٤
١ـ أبشع عصور الإسلام ٤٣٤
٢ـ التاريخ يعيد نفسه ٤٣٦
القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان ٤٣٧
القسم الرابع: سبيل النجاة ٤٣٩
تأمّل: معرفة الأشياء بأضدادها ٤٤٢

الخطبة المأة والثامنة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٤٤٣
الإتحاد الظاهري والعداء الباطني ٤٤٥
تأمّل: أصدقاء الأمس وأعداء اليوم ٤٤٨

الخطبة المأة والتاسعة والأربعون

نظرة إلى الخطبة ٤٤٩

القسم الأول: إستحالة الهروب من الموت ٤٥١
القسم الثاني: وصيّة الإمام عليه السلام ٤٥٣
القسم الثالث: معرفتي بعد موتي ٤٥٧

الخطبة المأة والخمسون

نظرة إلى الخطبة ٤٦١
القسم الأول: إنتظام كل شيء في ظل وجوده ٤٦٢
تأمّل: قطعية قيام المهدي الموعود عليه السلام ٤٦٦
القسم الثاني: خصائص أنصار النبي صلى الله عليه وآله ٤٦٧
القسم الثالث: العودة إلى القيم الجاهلية ٤٦٩
تأمّل: مصير جاحدوا الولاية ٤٧١
حسن الختام ٤٧٣
الفهرس ٤٧٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠٥٦
التاريخ ١/٨/٢٠٠٥

Nafahät al-Weläyah

Description of Nahj al-Balaghah

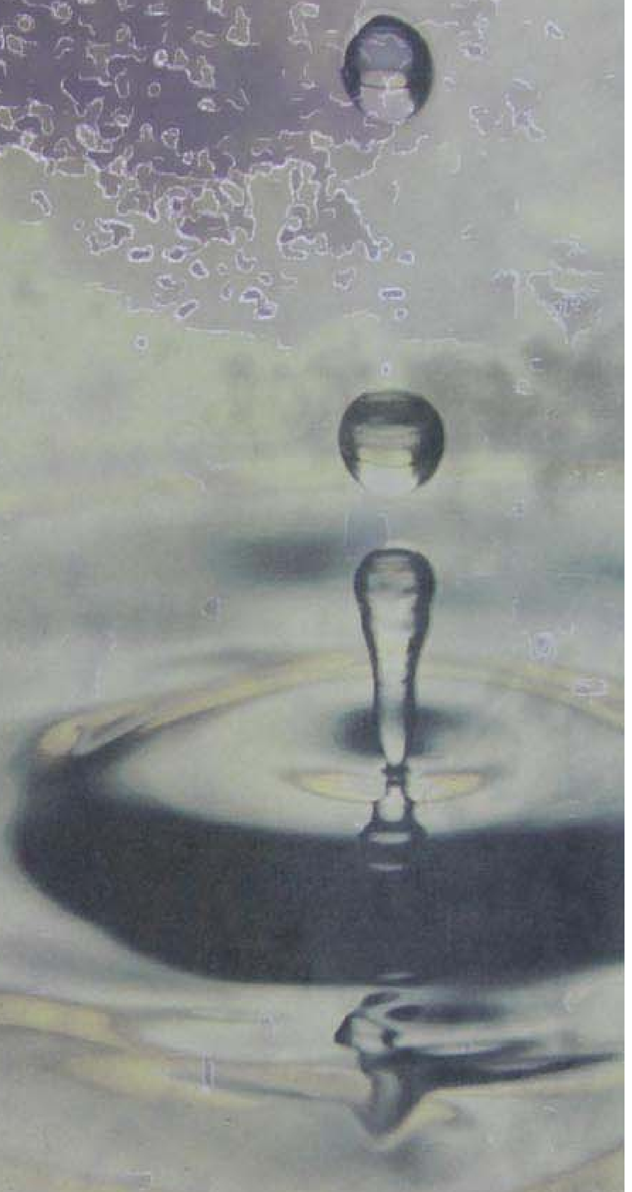

آدین گرافیک

ISBN 964-8139-41-5

9789648139419